

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الحاج لخضر
باتنة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية وآدابها



الظواهر المعنوية والفنية

في ديوان (الدموع السوداء)

للشيخ الطاهر التلي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي
تخصص : أدب جزائري

إشراف الدكتور:
عبد السلام ضيف

إعداد الطالبة:
بوجلحة فضيلة

أعضاء لجنة المناقشة

جامعة. باتنة
جامعة باتنة
جامعة باتنة
جامعة ورقلة

رئيسا
مشرفا ومقررا
عضوا مناقشا
عضوا مناقشا

د/عبد الرزاق بن السبع
د/عبد السلام ضيف
د/معمر حجيج
د/أحمد موساوي

السنة الجامعية: 2008/2009م

قال تعالى :

(قُلْ رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي
بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)

سورة النمل
الآية 19

الإهداء :

أهدي هذا العمل إلى والديّ وأسأل الله لهما الصحة والعافية
في الدنيا والآخرة على دعمهما ودعواتهما .
وأهديه إلى زوجي الذي ساعدني ووقف
معي من بداية المشوار .
إلى كل إخوتي وأخواتي
وإلى كل من مد لي يد العون من قريب أو من بعيد .

المقدمة

المقدمة

التراث - ولاشك - هو الكنز الباقي عبر السنين يقف شاهداً على عظمة الأجداد ، وأقصد بالتراث كل ما تركه العلماء السابقون من كتابات وكتب خطوها بأيديهم أو نسخها النسخ ، وما كان من أفكار طرحوها ودرسوها حتى ترسخت في عقولهم ووجدانهم ، ثم انتقلت إلى عقول من لحقهم على امتداد قرون الحضارة العربية الإسلامية. فهذه الكتابات والمخطوطات هي سجل عصرهم ومرآة أحداثهم وأفكارهم وقيمهم ، ومن هنا فهي أحد أهم المصادر التي لا غنى عنها لكل باحث يبحث في أي جانب من جوانب الحياة العلمية أو الاجتماعية أو غيرها .

هناك أسباب عديدة تبقى الكثير من تراثنا مجهولاً ، وإن كانت هناك محاولات في الأيام الأخيرة لفض غبار الزمن عن بعضه ، لاسيما المخطوط منه. ومن بين هذه المحاولات ، ما قمت به في هذا البحث ليكون واحداً من الأبحاث المقدمة فيه ، وهو بعنوان : "الظواهر المعنوية والفنية في ديوان (الدموع السوداء) للشيخ الطاهر التليلي ". في محاولة لتحريك أفكار وعقول الباحثين لدراسة مخطوطات هي الأندر والأقيم في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. وحتى تتوجه أقلام وعقول الباحثين لدراسة القدر الأكبر من تراثنا المخطوط دراسة عقلانية علمية لا دراسة حماسية.

لقد عُرف عن الشيخ الطاهر التليلي اهتمامه بالجانب الديني لما له من مخطوطات كثيرة في مجال دراسة القرآن وتفسيره ، لكنني أردت أن ألفت انتباه الباحثين إليه من زاوية أخرى ، وهو تمكنه من ناصية الشعر ، وديوانه (الدموع السوداء) الذي هو موضوع دراستي دليل على ذلك. فارتأيت أن أبرزه كعلم من أعلام الجزائر الذين أثروا الساحة الأدبية .

وحاولت تتبع الدراسات التي كتبت في أدبه فلم أجد إلا ترجمات بسيطة في بعض الكتب ، وعلى الرغم من سعادي بحصولي على بعض تراث الشيخ مخطوطاً ومطبوعاً إلا أنني أحسست بالهم وعظم المسؤولية تجاهه ، خاصة وقد أهمله النقاد والدارسون إلا من آراء قليلة في كتب الترجمات أو في حفل تأبينه ، وهذا ما جعلني أنوء بحمل هذا البحث وحدي.

ولأن المنهج التكاملية من خير ما استقرت عليه مناهج الدراسات الأدبية فقد اعتمدته حسب طاقته ، وما رأيته مناسباً لطبيعة الموضوع ، وللخصائص التي رأيتها بارزة فيه ، حيث استفدت من المنهج التاريخي في التعرف على حياة الشيخ وما يحيط بها ، واعتمدت على المنهج النفسي في دراسته التحليلية ، وركزت

على المنهج الفني، وبخاصة في مواضع الدراسة الفنية، كما انفتح البحث على المنهج البيوي الذي يكشف التداخلات النصية التي تتحكم في بناء النص الحاضر، عن طريق وضعه في السياق الثقافي السابق له أو المتزامن معه، من خلال الاقتباس من القرآن الكريم أو من شعر التراث القديم أو الحديث. وقد سرت في هذا البحث وفق مخطط قسمت فيه البحث إلى ثلاثة فصول.

تطرق في الفصل الأول لبيئة الشيخ التليلي؛ فتناولت الإطار الجغرافي والسياسي والاجتماعي والثقافي للمنطقة وما فيها من حركة فكرية وأدبية، ثم تحدثت عن حياته العلمية والعملية وما اكتنفها من أحداث أثرت فيه طبيعة وجبلة وثقافة، ثم أوردت ثبوتاً لمؤلفاته.

وفي الفصل الثاني تناولت موضوعات شعره في عنوانين رئيسيين، تحدثت في العنوان الأول منها عن أغراضه الذاتية، وفيه كل ما يخص ذات الشيخ من رثاء، وغزل، وشكوى، وإخوانيات، ومدح وفخر، ووصف، وحكمة وفلسفة. وكان العنوان الثاني في الغرض الموضوعي، وتطرق لأدب الأطفال، والنقد الاجتماعي، والدين.

وفي الفصل الثالث درست الديوان من الناحية الفنية، حيث تناولت:

— اللغة وركزت فيها على أهم الظواهر اللغوية الواردة في الديوان من اقتباس، وتكرار، وجزالة اللفظ وقوته وإيجائه.

— الصورة الفنية وتطرق فيها للصورة التشبيهية، والاستعارية، والكنائية، والرمز، وأخيرا الصورة الكلية.

— الموسيقى بقسميها الداخلية والخارجية.

وذيلت البحث بخاتمة طرحت فيها أهم الملاحظات التي وجدتها في الديوان.

وكان زادي في مشواري هذا مجموعة من المصادر والمراجع أهمها:

كتاب (هذه حياتي) للشيخ الطاهر التليلي (مخطوط)، وكتاب الشعر الجزائري الحديث للدكتور محمد ناصر، ومؤلفات الدكتور أبو القاسم سعد الله منها (تاريخ الجزائر الثقافي) و(مجادلة الآخر) ومجلة (العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي، قراءة في سيرته وفكره وآثاره) إعداد مجموعة من المختصين.

ورغم انعدام الدراسات التي تناولت شعر الشيخ الطاهر التليلي، إلا أنني خضت هذا البحث، وتمكنت من جمع ما أمكنني جمعه، فكانت ثمرة جهدي، ومبلغ غاييتي هذه الرسالة المتواضعة التي تبقى مجرد اجتهاد قمت به، ولا أدعي رغم ما بذلته من جهد أنني وفيت الموضوع من كافة جوانبه، وحسبي أن أكون قد استفرغت جهدي في تحقيق أهداف البحث ومحاوله إثرائه.

وختاماً الشكر لله سبحانه وتعالى أولاً وأخيراً الذي منّ عليّ وأعانني على إنهاء الرسالة بهذه الصورة.

وأزجي بالغ الشكر والتقدير للأستاذ المشرف الدكتور: عبد السلام ضيف ، نظير توجيهاته القيمة ،
وتشجيعه الدائم الذي أعطاني دفعا قويا لإكمال هذا البحث.
كما أشكر السيد عبد الرحيم سعد الله الذي أمدني بما أحتاج إليه من كتب .
والأستاذ عادل محلو الذي ساعدني في إنجاز الرسالة.
ولا أنسى في الأخير كلية الآداب والعلوم الإنسانية ممثلة بقسم اللغة العربية وآدابها ، الذي أتاح لي فرصة
مواصلة البحث العلمي في جو علمي متميز.

الفصل الأول

- بيئة الشيخ التليي .
- حياته العلمية و العملية .
- أخلاقه وأقوال العلماء فيه .
- آثاره .

إن الحديث عن شاعر غير معروف مثل محمد الطاهر التليلي ممتع ومثير ، لكن تجدر بنا الإشارة إلى الميدان المدروس (ولاية الوادي) لتحديد الإطار المكاني ، وكذا التعرف على الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية للمنطقة .

❖ - بيئة الشيخ التليلي :

1- الإطار الجغرافي :

ولاية وادي سوف تقع في الجنوب الشرقي من الجزائر، يحدها من الشمال إقليم الزاب (بسكرة والزرائب) وتمتد حتى جبال الأوراس ، والناماشة ، وإلى منطقة نقرين ، ومن جهة الشرق الحدود التونسية عبر (نقطة ونفزاوة) وبلدة (نقرين) التابعة لولاية تبسة .ومن الجنوب الحدود الليبية عبر واحات (غدامس) ، ومن جهة الغرب (تقرت وتماسين) بمنطقة ورقلة (1).
أما المساحة الإجمالية لوادي سوف تقدر بحوالي 82.800 كلم²، وهذه الخصائص الجغرافية جعلت منطقة وادي سوف تتمتع بموقع إستراتيجي متميز ، حيث إنها تجاور دولتين : تونس وليبيا، كما أنها محاطة بخمس ولايات هي : بسكرة ، تبسة ، الجلفة (عبر بلدة المرارة)، ورقلة ، وخنشلة*، وهذا الموقع المتميز أكسب المنطقة أهمية تجارية وتاريخية .

2- الإطار السياسي :

الشعر في أية أمة يتأثر بالنواحي السياسية والاجتماعية والثقافية، وقد مرت الجزائر بفترة عصيبة أثناء الاستعمار الفرنسي، ولولا الثورة التحريرية الكبرى لظلت الجزائر تعيش تحت وطأة الاستعمار، وكما وقف ثوار السلاح يدافعون عن الجزائر وقف إلى جانبهم ثوار القلم الذين سخرُوا كتاباتهم للذود عن الشعب، فكان منهم الشعراء والناثرون، ومن بينهم الشيخ التليلي الذي ما فتئ يدافع عن الجزائر ويبث في أهلها روح التحرر والاستقلال أينما حل. منها قوله :

صغير الشعب هيا للمعالي	وحيّ المجد تحت ضيا الهلال
صغير الشعب قد آن الأوان	لأن ترقى ويرقى بك الزمان
فكسرى أنت اليوم وذا الإيوان	بلادك فلتعش أبدا وتحيا
فقف يا ابن الذين أراك منهم	على ساق العزيمة وانظرنهم

1. ينظر إبراهيم العوامر: الصروف في تاريخ الصحراء وسوف. تعليق الجيلالي عوامر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. س. 1977. ص: 37.

* هناك مشروع طريق وطني يربط بين الوادي وبعض مدن الشرق ومنها خنشلة .

وصفح معجم التاريخ عنهم
تجدهم حدقوا فوق الثريا
بلادك تبتغي منك الديونا
فحاذر أن تكون لها خوونا
فما ترضى لغيرك أن تكونا
وما ترضاك لو تلويها ليا(1)

ويمكن أن نجمل الظروف السياسية التي أثرت في الشيخ وهي :

- الحرب العالمية الأولى والثانية ، وما خلفتهما من دمار وضغط على الشعب الجزائري ككل .

- ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وفرحة الشيخ بها لتوافقها مع مبادئه الإصلاحية.

- مجازر الاستعمار ضد الشعب الجزائري.

- اندلاع الثورة التحريرية الكبرى وما فيها من حماسة واندفاع ووعي.

- استقلال الجزائر وفرحة الشعب الجزائري به.

- قانون الوثام المدني في سبتمبر 1999. الذي يحقق الأمن والاستقرار في إطار توفير حلول ملائمة

للأشخاص للمتورطين في أعمال إرهابية(2) ، لأن الشيخ قد تأثر كثيرا بالأحداث التي سبقته وانعزل

في بيته.

3- الإطار الاجتماعي :

تعتبر الأسرة هي الخلية الأساسية للنسيج الاجتماعي ، وما يميز الأسرة السوفية القديمة كونها

تتسع للآباء والأبناء والحفدة جميعا ، حيث يعيش الكل تحت سقف واحد مكون من عدة

حجرات. وتظل الأسرة متماسكة على هذه الحال لمدة طويلة ، وتجتمع الأسر التي تشترك في اللقب ،

وتتجاور في السكن والأملاك الفلاحية مشكلة(العرش) ، فتقدم الأسر صورا مشرقة للتكافل والتضامن

الاجتماعي.(3)

ويقوم الأهالي بأعمال تناسب الطبيعة الجغرافية والبشرية للمنطقة ، وتلبي الحاجات والضرورات

المعيشية للفرد والجماعة وهي :

أ - النشاط الزراعي : يقوم على غرس النخيل التي تعتبر الدعامة الأساسية للاقتصاد المحلي (4). وذلك

باختيار المكان المناسب ، وحفره حتى الاقتراب من المياه الجوفية لكي يطمئن الفلاح على بلوغ جذور

النخلة للمياه الباطنية ، ثم تأتي عملية إزاحة الرمال عن جوانبها ، وهذا ما يطلق عليه اسم غابة النخيل*.

1. الشيخ محمد الطاهر التليلي : ديوان الدموع السوداء ج.2. ص: 81.مخطوط.

2. قانون الوثام المدني 16 سبتمبر 1999م.الصادر عن وئائق مجلس الأمة. ص: 192/183.

3. ينظر علي غنابزية : مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ 19م ..رسالة ماجستير جامعة الجزائر 2001. قسم التاريخ

ص: 06. ص: 131.

4. المرجع نفسه . ص: 61.

*. يطلق على غابة النخيل في اللهجة السوفية اسم (الغوط)أو(الهود).

كما عرفت المنطقة زراعة التبغ الذي اشتهرت به بعض المناطق منها قمار والرقيبة والمقرن ، وتصنف هذه الزراعة في المرتبة الثانية من الاقتصاد المحلي .

ب - تربية المواشي : يمتلك أهل منطقة سوف الكثير من أنواع الحيوانات التي ينتفعون منها كالجـمال ، والماعز ، والضأن ، فيستخلصون منها الحليب ، والزبدة ، واللحم ، والصوف ، والشعر ، والوبر . كما يهتمون بالخيـل ، والبغال ، والحـمير باعتبارها وسائل ضرورية مساعدة في مختلف الأعمال لاسيما الزراعة منها .

ج - التجارة بنوعها المحلية والخارجية : يعتبر الموقع الجغرافي لسوف مميزا ، فهي متصلة بالحدود التونسية والليبية ، وخمس ولايات وطنية هي تبسة ، وبسكرة ، الجلفة (عن طريق المرارة) ، و ورقلة ، وخنشلة . وهذا ما سهل عملية التبادل التجاري مع الدول والولايات المجاورة . وعرفت المنطقة بالصناعة التقليدية منها الصناعات الجلدية و النسيج المتمثل في : الزرابي ، والقندورة ، والبرنوس... كما عُرفت بصناعة السعف وهو جريد النخل ، الذي تصنع منه أواني وأدوات كثيرة .

وقد أحكم الاستعمار الفرنسي و اليهود سيطرتهم على المنافذ الرئيسية للاقتصاد ، خاصة التمور والتبغ (1). ما جعل الفلاحين يمرون بظروف قاسية و يخسرون فيها ممتلكاتهم . ولم يكن وضع البقية بأحسن حال فقد صادر الاستعمار كل ممتلكاتهم ، وانتشر بذلك الفقر والبؤس والبطالة بين الناس .

و قام الاستعمار بضبط الحالة المدنية في محاولة منه لتقسيم المنطقة إلى عروش ، وشجع المشعوذين على المتاجرة بعقول الشعب البسيط ، و تطبيق سياسة فرق تسد التي يعتمدها المستعمر من أجل إحكام قبضته على المنطقة ،

و كان الدين الإسلامي محط نقمة و غضب من طرف المستعمر الفرنسي ، فلجأ إلى حيلة دنيئة ، وهي إنشاء معاهد خاصة لتكوين رجال دين يمثلون لأوامرها ، ويطعنون الدين من الداخل ، كما اتهم الدين بالتخلف والبدع وركز على الزوايا وبعض الطرق المنحرفة التي استغلت بساطة هذا الشعب وأميته ، وراحت تضلله بأكاذيبها .

وقد عبّر الأدب بشقيه ؛ النثر والشعر عن الظروف السائدة - آن ذاك - من فقر وجوع و جهل وتشريد فأخذت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على عاتقها تحسين الوضع و إرسال الطلبة في بعثات إلى المشرق العربي و تونس ليتزودوا بالعلم حتى إذا رجعوا شرعوا في علاج الأمراض الاجتماعية المتفشية في المجتمع الجزائري .

1. موسى بن موسى : الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1939) رسالة ماجستير إشراف د/أحمد صاري .جامعة

قسنطينة. قسم التاريخ س2004/2005.ص:60.

ومضت جمعية العلماء في هذا الطريق حاملة على عاتقها رسالة النهوض بالشعب الجزائري والعمل على إحياء شخصيته ، وإصلاح عقيدته ، وربطه بكيانه القومي ، وتوثيق صلته بنهضة أمته العربية الإسلامية ، فكانت بذلك البرهان على أصالة الشعب ، والرد على المستعمرين الذين ظنوا أن أهدافهم قد تحققت بفصل الشعب عن دينه وعروبته (1).

ومن الأمراض الاجتماعية المتفشية في مجتمع وادي سوف ، الوضع الاجتماعي المزري لأغلب الأسر بالمنطقة ، نتيجة استغلال الاستعمار لأراضيهم ، وكان لهذا الوضع الاجتماعي انعكاساته من فقر وأوبئة راح ضحيتها الكثير خاصة مع بداية الخمسينيات .

كانت الأرض مسرحا لشقاء الإنسان ، وقد طوقته من كل جهة ، فلجأ الكثير من الشباب إلى الهجرة لتونس بغرض استكمال الدراسة والتعلم . والشعر خير مرآة لهذه الأوضاع التي تعتبر عن مأساة الشعب ، وقد تحدث الشيخ محمد الطاهر التليلي عن حياة الناس الفقيرة البائسة من خلال قوله :

معيشتهم ضنك على كل حالة	وأتعابهم لا تستقر على حصر
ولولا ثلاث هن آلات عيشتهم	لمسهم موت من الجوع والضر
فخطارة تهوي وتصد دائما	من البر أو في البر دائما الخطر
وخشبة منوال لنسج ثيابهم	يحاك عليها خالص الصوف والوبر
وخشبة نخل توتي في العام أكلها	تُغل عليهم بالذيذ من التمر
وما فكروا يوما في تغيير حالهم	وتطوير أحوال المعيشة كالعصر (2)

4- الإطار الثقافي :

لقد كان بالجزائر مراكز ثقافية رفيعة ، ولم يكن ازدهار العلم والثقافة حديث العهد حين أُحتلت الجزائر في مطلع القرن التاسع عشر ، بل كان يضرب بجذوره إلى مئات السنين ، ففي القرنين الرابع عشر والخامس عشر ظهرت بالجزائر مراكز ثقافية رفيعة ، وأساتذة أعلام نبغوا في شتى العلوم ، كجامعة تلمسان ، التي يشع منها نور المعرفة والثقافة في شمال إفريقيا ، عندما كانت أوروبا تتخبط في ظلام الجهل والهمجية .

ولم تكن نسبة الأمية عام 1830 سوى 14% وبعد مائة وخمسة وعشرين عاما من الحكم الفرنسي ، أصبحت نسبة الأمية 92% عام 1955 . وعليه فقد امتلأت الطرقات بضحايا الجهل والأمية من الشباب

1. محمد بن سميحة : في الأدب الجزائري الحديث . النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر ومؤثراتها . بدايتها - مراحلها . مطبعة الكاهنة . الجزائر س 2003 . ص : 19 .

2. ديوان الدموع السوداء . ج 1 . ص : 80 .

الذي اضطر إلى العمل ما بين المناجم والحقول، ومسح الأحذية(1)، وهذا يدل على أن تعليم الأهالي كاد يكون مهملا من طرف الحكومة التي عمدت إلى تجريد الشعب من قوميته؛ وذلك بالقضاء على ثقافته الوطنية بإلغاء المدارس والمعاهد العربية التي كانت إحدى حلقات العلم والثقافة، ولم تقف سياسة التجهيل عند هذا الحد بل تطاولت يد المستعمر إلى المساجد التي كانت مقرا للعبادة والعلم، فاستولت عليها ليتسنى لها القضاء على اللغة العربية، وجعل اللغة الفرنسية هي لغة الدرس. ونتيجة لهذا التضييق الشديد على مدرسي العربية هاجر معظم الأساتذة من البلاد ولم يبق في المدارس إلا عدد محدود، وقد تأثرت الثقافة بهذه الأحداث التي خلفها المستعمر فاضمحل الأدب المكتوب واللغة الرفيعة، وهكذا فقد المثقفون الجزائريون تدريجيا اتصالهم بالتراث نتيجة لفقدان الكتب والمدارس بلغتهم(2)، وبذلك انحصر التعليم في الزوايا، وكان لهذا التعليم الفضل في الحفاظ على اللغة العربية، و مناهجه قديمة تعنى بتدريس النحو والصرف والفقه، مما أضرب تقدم الأدب والشعر الذي أصبح يتناول موضوعات عتيقة، ولا يغوص في قضايا المجتمع، وبذلك أصبح الشعر يُروَّج بين الزوايا والطرق الصوفية. الأمر الذي جعله ينحصر في المجال الديني.

ولم يسلم هذا التعليم - الزوايا - من مطاردة السلطات الفرنسية التي أغلقت المدارس الأهلية والزوايا، ونفت المدرسين والطلبة من هذه المعاهد منذ بداية الغزو حتى كادت تختفي الطبقة المثقفة في ميدان الأدب خاصة.(3) لقد شرعت فرنسا قوانين لاضطهاد اللغة العربية، ففي 1880 أصبح التعليم الفرنسي إجباري على الأهالي الذين رفضوه، والغرض من ذلك دمجهم ومسح شخصيتهم الوطنية.

وفي سنة 1904 أصدرت فرنسا قانونا ينص (على عدم السماح لأي معلم مسلم أن يتولى إدارة مكتب لتعلم اللغة العربية بدون ترخيص يمنحه إياه قائد الفيلق العسكري، والتصريح لا يعطى إلا بضمانات).(4) ومن هنا يظهر أن الاستعمار لم يأت إلى الجزائر لنشر (حضارة) كما يدعي، وإنما جاء ليسلب أفكار الشعب ويزور تاريخه، وبذلك لم يستطع الأدب الجزائري أن يطور ذاته، وشغل الناس عن الأدب والشعر مما أدى إلى ركود الحركة الأدبية مدة طويلة(5) وبلغ هذا الركود ذروته في النصف الثاني من القرن

-
1. عبد الكريم شبروا : التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعد الله رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث. إشراف د/ سعيد راوي. جامعة باتنة س2006/2007. ص: 43.
 2. أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية. دار الآداب. بيروت. ط.س1967. ص: 73/75.
 3. عبد الله الركبي: الشعر الديني الجزائري الحديث. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط.س1981. ص: 31/30.
 4. أنور الجندي : الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا. مطابع الدار القومية. القاهرة. ط.س1975. ص: 132.
 5. أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث. دار الآداب. ط.س1977. ص: 22/21.

التاسع عشر ، وفي الربع الأول من القرن العشرين إلى درجة أننا لا نكاد نعثر على اسم واحد في دنيا الأدب (1).

بداية النهضة الثقافية وعواملها :

كان للاستعمار دوره الكبير في تأخير النهضة في جميع المجالات ، خاصة المجال الأدبي ، إلا أن بوادها بدأت تلوح في الأفق مع منتصف العشرينيات من القرن العشرين ، حيث شهدت محاولات جادة للقضاء على التأخر والجمود ، والدعوة إلى التجديد في مختلف الميادين .

عوامل النهضة الثقافية في الوادي :

1. المدارس القرآنية :

كان لهذه المدارس منذ القديم دورها الكبير في تحفيظ القرآن الكريم وتربية النشء ، وانتشرت في كامل أنحاء القطر الجزائري ، منها وادي سوف ، فلا تخلو مدينة أو قرية منها ، وأغلبها تابع للمسجد ، فعادة ما يكون إمام المسجد أو ما يسمى بـ(الطالب) هو المسؤول عن التدريس ، ومن عادة أهل المنطقة أنه إذا بلغ أبناؤهم سن الخامسة يرسلونهم إلى هذه المدارس ليتعلموا الحروف وما تيسر من القرآن الذي يسمعون منه ممن هم أكبر منهم . وأول ما يبدأ به التلميذ هو حفظ حروف الهجاء (أ.ب.ت..) فإذا حفظها عن ظهر قلب شرع في حفظها بالإعجام ؛ بمعنى أنه يقول (ألف لا شيء عليها) و(الباء واحدة من الأسفل) وهكذا مع بقية الحروف ، ثم يحفظها بالشكل مثلا (ألف بالخفض إ ، بالنصب أ ، بالرفع أ ، بالوقف أ) وهكذا حتى إذا أتم حفظ الحروف جميعا شرع في حفظ القرآن ابتداء من (الفاتحة) ثم (الناس) حتى يتم حفظ القرآن .

2 . المعاهد الإسلامية :

إضافة إلى كثرة المدارس القرآنية ، كان للمعاهد الإسلامية دورها الكبير في تثقيف الشعب الجزائري صغارا وكبارا ، وذلك من خلال نشر مبادئ الدين الإسلامي ، وتعليم اللغة العربية ، وأبرز هذه المعاهد بوادي سوف معهد الزاوية القادرية بعميش* الذي فتحه الشيخ الهاشمي الشريف ، وقدم إليه علماء كثر من قمار وتونس ، ثم تطور هذا المعهد في عهد ابنه عبد العزيز الشريف ، الذي واصل مسيرة والده في نشر الوعي الثقافي الإسلامي .

وأهم ما يميز نشاط هذه المعاهد وجود مجموعة من العلماء البارزين الذين كان لهم دور في نشاط الحركة العلمية بوادي سوف ، وقد تجسد هذا النشاط في ثلاثة معاهد علمية : معهد الوادي ، ومعهد قمار ، ومعهد

1 . عبد الكريم شبرو : التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعد الله . ص : 45.

* اسم قديم للقرى الواقعة جنوب مدينة الوادي ، وهي تعرف اليوم بالبياضة وما جاورها.

الزقم، وقد استطاعت هذه المعاهد الثلاث القيام بدور التعليم و التدريس والوعظ والإرشاد .

3 المدارس الفرنسية :

لقد أنشئت هذه المدارس لطمس الثقافة الإسلامية ، ومحو الدين ، وبالتالي خلق جيل جديد لا يمت بصلة للدين وأهله ، وأول مدرسة فتحت بوادي سوف كان مع بداية الموسم الدراسي لسنة 1886م وأطلق عليها اسم (مدرسة الأهالي)، ثم أضاف المستعمر مدرسة ب(كوينين) أفتتحت بعد ثماني سنوات من الأولى ، وأخرى بقمار حوالي سنة 1903م.

- الحركة الأدبية والفكرية بالوادي :

كان للظروف السياسية والاجتماعية والثقافية آثارها على الحياة الفكرية والأدبية بالوادي ، وسنحاول التركيز هنا على الأدباء الذين برزوا في الساحة الأدبية ، مشكلين الحركة الأدبية المعاصرة التي سايرت ازدهار الطباعة والتوثيق خلال السنوات الأخيرة دون إغفال بعض أسماء الأدباء الذين أناروا سماء الحركة الأدبية في الجزائر ، وتركوا بصماتهم شاهدا على تفردهم ، ونذكر منهم على سبيل العد وليس الحصر :

— محمد العيد آل خليفة : شاعر جزائري معروف ولد سنة 1904 بكوينين ولاية وادي سوف ، تحصل على شهادة (التحصيل) من جامع الزيتونة بتونس(1)، له شعر جميل عن الثورة الجزائرية ، والأحداث التي وقعت في عصره .

— الحفناوي هالي : (1911_1965) شاعر وكاتب وصحفي ، تخرج من جامع الزيتونة بشهادة (التحصيل) سنة 1936 ، عمل بمعهد بن باديس بقسنطينة ، وكاتبا إداريا بالجمعية ، وشارك في تأسيس مدرسة التهذيب بالعاصمة وعمل في إدارتها لعدة سنوات.(2)

— الدكتور أبو القاسم سعد الله : باحث ومؤرخ ، حفظ القرآن الكريم ، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين ، وهو من رجال الفكر البارزين ، له سجل علمي حافل بالإنجازات من وظائف ، وترجمات ومؤلفات . نذكر منها :

- تاريخ الجزائر الثقافي في تسعة أجزاء .

- أفكار جامعة .

- ديوان الزمن الأخضر .

- دراسات في الأدب الجزائري الحديث.(3)

1. محمد الطاهر التليلي : مجموع مسائل تاريخية متفرقة تختص بسوف وأهلها في القديم والحديث ، وما يتعلق بصحراء سوف من قريب أو بعيد . ص: 96/95. مخطوط.

2. محمد بن سميحة : محمد العيد آل خليفة . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر. ط. س. 1989. ص: 07.

3. عبد الكريم شبرو : التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعد الله . ص: 53/52.

وهو صاحب أول قصيدة في الشعر الحر ، وهي قصيدة (طريقي) المنشورة بجريدة البصائر، ومنها :

يا رفيقي

لا تلمني عن مروقي

إذ أنا اخترت طريقي

... وطريقي كالحياة

شائك الأهداف مجهول السمات (1).

— محمد الصالح باوية : طيب جراح وشاعر له ديوان (أغنيات نضالية).

— أحمد حمدي : أحمد حمدي من مواليد 1948 بالديلة ولاية الوادي.

أكاديمي وكاتب وشاعر جزائري ، له تجربة رائدة في مجال الشكل الشعري المعاصر ، وهي قصائد نقية خالية من الحشو والتعقيد ، يمتاز شعره بالرقّة والرّهافة (2) ، ظهر ذلك في دواوينه المعروفة : إنفجارات – قائمة المغضوب عليهم ، وله في المسرح : حصن الأحرار – المقصلة اليومية. وفي مجال الدراسات والبحوث : واقع السينما في الجزائر – الثورة الجزائرية والإعلام .

— سليمان جوادي : شعره لا يقل أهمية عن شعر أحمد حمدي بل يكمله ، فلغته في شعره رهيبة الحس ، وصوره بديعة معبرة عن معاناة الشعب اليومية (3) ، ولعل حساسيته الموسيقية تعبر عن تفرد الذي لا يدانيه فيها أحد من أبناء جيله. له ديوان (يوميات متسكع محظوظ).

— عبد الحميد هيمة : من رواد النقد الأدبي في الجزائر حاليا ، وهو أستاذ بمعهد الآداب بجامعة ورقلة ، يركز على دراسة نصوص الأدب العربي . من مؤلفاته (الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري) (علامات في الإبداع الجزائري).

— أقسام الحركة الأدبية والفكرية بالوادي :

أولا : الحركة الشعرية :

تطرقنا للشعر باعتباره أكثر الأجناس الأدبية انتشارا في وادي سوف ، بحيث يفوق الشعراء عدد كتاب القصة و الرواية والمسرح مجتمعين ، وهو أمر طبيعي لأن الصحراء ارتبطت بالفنون القولية والتعبير الوجداني أكثر من السرد والقص ، ويمكن تقسيم الحركة الشعرية بولاية الوادي إلى ثلاث مراحل هي :

1. د/أبو القاسم سعد الله : الزمن الأخضر. المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر. طس 1985. ص: 144.

2. د/حسن فتح الباب : شعر الشباب في الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر. س 1987. ص: 45.

3. المرجع نفسه. ص: 138.

1 - مرحلة الجذور:

لقد ظهرت أولى النصوص الشعرية الفصيحة الموثقة بداية من القرن 12هـ وامتدت حتى السبعينيات من القرن العشرين ، وقوامها أدباء هم في الغالب أئمة ومشايخ ينظمون الشعر في أغراض شتى منها الشعر التعليمي والمدح والثناء.... نذكر منهم:

أ - خليفة بن حسن القماري:

ولد بقمار سنة 1123هـ / 1711م وتوفي سنة 1207 / 1792م له منظومات عديدة أشهرها :

— جواهر الإكليل نظم مختصر الشيخ الخليل : وهو كتاب في الفقه المالكي جاءت في 9818 بيتا . يتميز أسلوبه بجودة النظم ، ودقة المعلومات . وطبع الكتاب بالمطبعة البارونية سنة 1899م بمصر.

— اللامية في نظم الأجرومية : في النحو، قال عنها التليلي في (كتاب مسائل تاريخية) : (مطربة عذبة على طراز الشاطبية يطرب لها الناشئ ويرقص لها المبتدئ لسلاسة نظمها وعذوبة موسيقاها...). يقول فيها :

فأربعة أنواع قسم مقدم هي الاسم ذو الأفراد والجمع كالدلا

وثالثها جمع صحيح مؤنثا و رابعها الفعل المضارع إن خلا

وفرع بضمة وانتصاب بفتحة وخفض بكسر والسكون لما خلا (1)

— منظومة في حكم العمل بالجرة: ووقع خلاف مع علماء الخنقة حولها، وتضمنت ردا علميا عليهم (2).

ب - الشيخ محمد الزبيري: تعرف عائلته باسم (البرية)نسبة إلى أمه . ولد سنة 1296هـ / 1874م بقمار

وتوفي بها حوالي سنة 1311هـ / 1926م (3) نظم شعرا كثيرا من بينه مناظرة شعرية قصيرة مع الشيخ الخضر حسين الجزائري ، عندما قدم مدرسا بالزاوية التجانية بقمار ، وأصبح شيخا للأزهر فيما بعد .

يتميز شعره بالرقعة خاصة عند المدح أو الرثاء . يقول في مدح الرسول @ :

أخفي الهوى وتذيعه أجفاني والشوق من ألم الجفا أففاني

ومتى يؤمل راحة من تنقضي أيامه في الصد والهجران

تحبب ساعاات التمني باللقا وتمنيه بأسا بغير ضمـان(4)

ج - الشيخ الطاهر العبيدي:

1. محمد الطاهر التليلي : مجموع مسائل تاريخية متفرقة تختص بسوف وأهلها في القديم والحديث . ص: 10.
2. عادل محلو: الحركة الأدبية بولاية الوادي . موضوع ألقى في تظاهرة الأسبوع الثقافي لولاية الوادي. جوان 2007. ص: 06.
3. أعلام سوف . إعداد مديرية دار الثقافة لولاية الوادي. شركة مزوار. ط1. ص: 2006. ص: 32.
4. سعد بن البشير العمامرة وأحمد بن الطاهر منصوري : أعلام من سوف في الفقه والثقافة والأدب . جمعية الجماعة السوفية. ص: 26.

ولد الشيخ خلال 1886 ، وتوفي سنة 1968م(1) ترك عددا من المنظومات والقصائد أهمها ثماني ، منها :
– جريان المداد في الاعتصام برجال السند : وهي 856 بيتا في التصوف
– نظم رسالة القطب الدردير في البيان بأسهل بيان .
– بغية الأمل في نظم رسالة العوامل .

د – حمزة شنوف : ولد سنة 1909. بوادي سوف ، عندما بلغ سن الخامسة انتقل إلى بسكرة مع عائلته ،
ثم إلى تونس ليكمل دراسته بجامع الزيتونة سنة 1923. يقول في قصيدة (مناجاة الوادي) :
سقاك الغيث يا وادي الرمال وصانتك الأسنة و العوالي
تذكرني مرائي البحر ليلا بنور البدر من فوق الرمال
فتبعث في الفؤاد هوى دينا فيلهي النفس عن مرأى الجمال(2)
هـ – الشيخ محمد الطاهر التليلي :

هو شيخنا وموضوع بحثنا. ينظر التعريف في هذا الفصل.

هؤلاء الذين سبق ذكرهم هم نماذج فقط لبدايات الحركة الشعرية الفصيحة بولاية الوادي في القرن العشرين ، ولو تحدثنا عن كل الشعراء الذين نظموا شعرا في ذلك الوقت ، لما اتسع المقام ، ولما أوفيناهم حقهم . وقد كان النظم الشعري خليليا تقليديا يغلب عليه الطابع التعليمي والمناسباتي .

2 – مرحلة التأسيس :

أ – عوامل التجديد :

كانت المرحلة السابقة تمهيدا لتطور الشعر الحديث في ولاية الوادي . وتمكن شعراء السبعينات من القرن الماضي من الانطلاق نحو التجديد على المستويين : الشكل والمضمون . ويعود ذلك لعدة أسباب منها :
– التحولات التاريخية التي مرت بها المنطقة - ككل أنحاء الجزائر - وأهمها الاستقلال الذي أعطى انطلاقة جديدة في نظم الشعر .

– الظروف الاجتماعية والثقافية الملائمة للتجديد منها انتشار التعليم .

– عودة المغتربين إلى بلادهم خاصة من تونس التي كانت زمن الاحتلال مركز إشعاع علمي وثقافي .

ب – شعراء مرحلة التأسيس :

– السعيد المثردي :

1. بن سالم بن الطيب بالهادف : سوف تاريخ وثقافة ..مطبعة الوليد .س 2007 .ص : 63.

2..سعد بن البشير العمامرة وأحمد بن الطاهر منصورى : أعلام من سوف في الفقه والثقافة والأدب. ص: 78.

ولد بتونس سنة 1954. هو من الشعراء البارزين الذين أسسوا للشعر الجديد بالوادي ، تتميز قصائده بالغمائية والتجانس الموسيقي ، له اهتمام بالقضايا الوطنية والعربية والإسلامية وانعكست في أشعاره . يقول من قصيدة (هتاف القباب):

يا سائلي عن مواعج بوحي
فكم بح صوت الكثيب بصوتي
فبوح الكثيب بها أوجع
وليت أذانهم تسمع (1)

وقد شارك السعيد المثردي في الملتقيات الشعرية ووطنيا ودوليا ، وقاد لفترة طويلة خلال نهاية الثمانينات والتسعينات حلقة الشعر بالوادي ، حيث جمعت الشعراء الشباب آنذاك . فكان يوجههم باعتباره أقدم منهم في مجال الإبداع الشعري.

— أبو بكر مراد :

ولد سنة 1952 ، له اهتمام بالقضايا المحلية و الوطنية والعالمية ، يتميز شعره بنظام التفعيلة أكثر من العمودي ، وقد نشر ديوانين هما (قصة الفارس المستقل) سنة 1994 ، و(أوراق الهزيمة) سنة 2002. كما أخرج أشرطة سمعية شعرية هي : (نهلة) (أشعار عاجلة) و(عاش الولد). للشاعر أبو بكر مراد قصائد كثيرة تخاطب عواطف القراء ، من بينها قصيدته (التفكير بالنيابة) التي حاول من خلالها أن يدافع عن الناس ، يقول :

مثل أنت بالشعب المخدر
يقتات أحلاما ويصبر

يجوع دهرا وينكر

مثل أنت بالشعب المخدر (2)

— السعيد حرير :

ولد سنة 1960 ، كتب البدايات الأولى لشعره بالمرحلة الثانوية ، يمتاز شعره بالنظام الخليلي ، له ديوان تحت الطبع بعنوان (همسات قبيل غروب الشمس). يقول في وادي سوف :

تأمل قبابي . أنا واد سوف
مدينة سحر نمت كالهلال

مزجت اخضرارا فسائل نخيلي
بصفرة رملي جميلا بدالي (3)

— صالح خطاب :

1. مجلة القباب : العدد 6.س 2007. ص : 74.
2. أبو بكر مراد : أوراق الهزيمة. دار الشهاب باتنة. ص : 17/18.
3. مجلة القباب : العدد 6. ص : 73.

شخصية شعرية متميزة بالوادي ، له اطلاع واسع بالآداب الغربية ؛ فهو مترجم بارع ، وانعكس ذلك على شعره في طريق التصوير واللغة ، يقول في قصيدة (لن أقترب السفر):

لا الجرح يحفل بالرحيل
ولا أنا أنسى فاقترب السفر
جرح تناثر في حشى أمسي
يسافر في دمي
ظلت تعانقه عقارب ساعتني
لتقيم عرسي... مآتي ، ولم أزل
نظرات عشق في عيون أبي وأمي
وابتسامات غزل(1)

إن هؤلاء الشعراء قد تركوا بصماتهم في سماء القصيدة الحديثة في ولاية الوادي ، وفتحوا المجال أمام الكثير من الشعراء لإبراز مواهبهم الشعرية المعبرة عن آمالهم وآمالهم ، بطريقة بعيدة عن النمط التقليدي الخليي .

مما يلاحظ على الشعراء سعيد المشردي وأبو بكر مراد ، وصالح خطاب ، هو التأثير التونسي في اللغة والصورة ، فالشاعران الأولان قد ولدا وتلقيا تعليمهما الأول بتونس ، ولعل قرب المسافة والتواصل بين تونس ووادي سوف له تأثير في ذلك.

3 - مرحلة الانطلاق:

تعج الساحة الأدبية بالوادي بعدد كبير من الشعراء الذين برزوا في منتصف التسعينيات ، ونظموا في كل أنواع الشعر حتى قصيدة النثر. ويمكن أن نرجع انتشار النظم وتنوعه بين فئة الشباب إلى عدة أسباب منها:

— أن أكثر هؤلاء الشباب قد التحق بالجامعة خارج المنطقة للدراسة ، وتوجه جلهم لمعهد الأدب العربي ، أين تعرفوا على أنماط وكتابات جديدة في الشعر .

— رغبة هؤلاء الشباب في التميز عن شعراء مرحلة التأسيس ، بالنظم في أنماط جديدة تتسم بالمرجعية الجمالية.

هذه العوامل وغيرها جعلت هذه الفئة من الشعراء الشباب يتميزون ، رغم ازدحام الساحة الأدبية بالشعراء الذين نظموا في أنواع كثيرة ، وعلى اختلاف أزمتههم.

• اتجاهات شعراء مرحلة الانطلاق :

أ – الاتجاه التقليدي :

وهو اتجاه يعنى باللغة والصورة والموضوعات ، وليس بالضرورة أن تكون القصيدة على النظام الخليلي ، فملتأمل لهذه القصائد يجد نفسه أمام صروح القصيدة القديمة . وهذا ما نلاحظه عند الشاعر حسين لقرع في قصيدته (جمال النساء) :

إن الجمال لدى حواء يزداد
هو النجاة لها من كل حادثة
ضاع الرجال فماذا عن نسائهم
لو أنها بحجاب الشرع تنقاد
ومن ذئاب تعجُّ الحي أرساداً
لا لوم إن رقص في البيت أولاد (1)

ويقول الشاعر عبد اللاوي عبد الرحمان في قصيدة (ردني للذكرى) :

ردني للذكرى إن ضيعتني
أغرق البحر بعمر ودني
أفرغ الكأس التي حنضلتها
أرسل الليل إلي بعدمــــا
وارجع الماضي لعهد ضمني
غوره يغتاب موجا هزني
وأعرها حُلوكُ ثم اسقني
هجر الليل طويلا موطني (2)

ب – الاتجاه الوجداني :

نظم في هذا الاتجاه أغلب شعراء هذه المرحلة ، لكونه يهرب من الواقع المعاش ويجد في الأحلام موطن له ، يطل من خلالها على أحداث العصر ، ومشاكله وآلامه ، فيعود ويرسمها بألوان الطبيعة من شجر ، ونجم ومياه ...

من بين هؤلاء الشعراء الذين برزوا ، نذكر الشاعر مصطفى صوالح محمد الذي يقول في إحدى قصائده :

يا ريشة الرمل كوني اليوم ملهمتي
يا نغمة الناي و الأنسام تسمعني
وهناك شاعر آخر هو بلول محبوب ، الذي يقول في قصيدة نشرها بمجلة (القباب) :
تدمع الدمعة في داجي الليالي
أنت منفي على أية حــــال
استعن بالحرف من كيد الأعادي
حلي ربيعا فؤاد الشعر ناداك
يا رعشة الحرف في أفواه قتلاك (3)
كم يقاسي الحُر في هذا البلد
هل ورثت الهجر من جد لجد
إنهم جاءوك من خلف فجــــد (4)

1. عادل محلو : الحركة الأدبية بولاية الوادي. ص : 14.

2. مجلة القباب. العدد 2. س 2004. ص : 48.

3. قبل أن تنفذ الكلمات (شعر). ص : 100.

4. مجلة القباب. العدد 1. س 2004. ص : 56.

وهناك أيضا غير هؤلاء الشعراء مثل صلاح الدين باوية ، يوسف بديدة ، البشير المثردي ، وأنيس عبد الحفيظ .

ج - الاتجاه الأدوني:

تأثر أصحابه بالتيار الأدوني الجديد ، ومن أبرز ممثليه : سليم حمدان وميداني بن عمر ، اللذان كتبا عددا لا بأس به من القصائد النثرية ، ونذكر من ذلك قصيدة (ويسقط الهرم الهلامي) لسليم حمدان :
تائه

والمدى قبلتان

أعطت الأرض لون النحيب

والأسى موجة كاذبة

ماذا لو عادت أثينا ...

بقبلتها الثانية

والسنون مغامرة لم تزل(1)

إلى جانب كتابة القصائد النثرية ، كتب أصحاب هذا الاتجاه عددا من القصائد العمودية بنظرتها الحداثية .
يقول ميداني بن عمر في قصيدة (حورية الربوة) :

تساكب همس النخل في أذن الربوه

أيا نخل هل خبّرتها أن بي صبوه؟

على صدرها العطشان طلقت شهقتي

وفي نهدها ودعت أهلي على غفوه

وفتنا بجور العمر في ضوء شمعة

أذابت فتيل العمر يا عمرنا عفوا(2)

وأظهر الشاعر يوسف بديدة نقطة التحول والابتعاد عن الثوب القديم من خلال قصيدة (نرجسي) :

سأزرع وحدي

وأقطف وحدي

لأنني قررت أن أستعيد

جمال جيني

رميت إلى البحر ميراث جدي

فلا الشاش يُظهر خصلات شعري

ولا جبة الصوف تُبرز قدي(3)

1. قبل أن تنفذ الكلمات (شعر). ص: 36.

2. المرجع نفسه. ص: 23.

3. المرجع نفسه. ص: 83.

د- الاتجاه الصوفي :

إن الدارس للاتجاهين الأدنيسي والصوفي لا يجد فرقا كبيرا بينهما ، فكلاهما يستخدم الرمز ويتعامل مع اللغة ويوظفها بطريقة متميزة ، لكن الاختلاف في المعنى والهدف . وقد نظم في هذا الاتجاه عدد من الشعراء ، من أبرزهم بشير ونيسي الذي ، يقول في نسه (وجه من الماء):

أعطني يدك يا حبيبي كي أمسح وجع القدر

أعطني يديك

إني أشتهي برزخا من لحم

توشحه فسيفساء الدم (1)

ثانيا : الحركة السردية و المسرحية بولاية الوادي :

— الفنون السردية :

إن الاهتمام بفن السرد سواء أكان قصة أو رواية يعد قليلا ، ويمكن أن نرصد مرحلتين لكتاب الفنون السردية :

أ — مرحلة التأسيس :

كان الأستاذ بشير خلف من الكتاب البارزين في هذه المرحلة ، منذ السبعينيات ، وقد أثرى الساحة الأدبية الجزائرية بعدة مؤلفات في مختلف الاتجاهات الفنية التي تعرفها القصة العربية القصيرة ، منها والعالمية ، كما أسهم بشكلٍ فعّالٍ في إنعاش الحياة الثقافية بمختلف المقالات ، وخاصة في منطقة الوادي ، وهو يرأس حاليا الجمعية الثقافية : " رابطة الفكر والإبداع " ، وصدرت له مجموعة قصصية هي :

1..أخايد على شريط الزمن .

2. القرص الأحمر.

3.الشموخ.

4.الدفء المفقود.

5.ظلال بلا أجساد التي صدرت له خلال شهر ماي 2007.

و تكشف كتاباته عن ممارسته الإبداعية ، وما تحمله في طياتها من رؤى فنية ، وجمالية التشكيل القصصي . حيث تستمد موضوعها من وحي الاهتمامات المحورية للناس ، وتستخلص مفاتيحها مما يزخر به الواقع الجديد من تناقضات ، ويظهر انتصاره للنزعة المحافظة ، فينقد بدقة سلبيات حياتنا . ولا يعني هذا أن التوجه نحو القيم المحافظة ، أدى إلى افتقار نصوصه لتقنيات الفن القصصي ، بل هي

تعتمد على كل عناصر القصة خاصة الشخصيات والعقدة ، المعبرة بشكل واضح عن الواقع المعاش ، ويستغل بشكل جيد كل طاقات اللغة دون تكلف.

ب – مرحلة الانطلاق :

تشمل الكتاب الجدد الذين دخلوا مجال الكتابة القصصية خلال سنوات التسعينيات ، وعلى رأسهم عبد الرزاق بادي الذي أصدر مجموعة قصصية بعنوان (أزمنة الرحيل المر).

و أصدرت رابطة الفكر والإبداع ، التي كما قلنا يترأسها الأستاذ بشير خلف ، مجموعة قصصية تسمى (أنين المدينة) ، برزت من خلالها أصوات سردية جديدة في القصة القصيرة منها : نعيم المثردي الذي تحوّل على جائزة وطنية في فن القصة عن نصّه "المئزر الأبيض" . وهناك أيضا زكرياء نوار ، و سليم سعداني ، وغيرهم .

وخلال مرحلة الانطلاق شهدت الوادي أول رواية عربية وهي (المقبرة البيضاء) للأستاذ أحمد زغب ، وهي أولى رواياته لكنها تحتوي على تقنيات فنية عالية ومسار سردي محكم .

كما يصدر الأستاذ يحي موسى نصين مسرحيين ، بعنوان (تحت سقف الشيطان) و (المكنتسة) .

إن المشهد الأدبي في ولاية الوادي يتجه نحو انطلاقة أكثر ، ويتوجب على أبناء ولاية الوادي المبدعين المشاركة في الحياة الأدبية الوطنية بفعالية أكثر ، حتى يتعرف الشعب الجزائري على أعمالهم ولا تبقى مجرد مخطوطات تملأ الرفوف .

من أجل ذلك آثرنا تسليط الضوء من خلال هذا البحث المتواضع على شخصية من وادي سوف ، تركت آثارا كثيرة يستفيد منها الدارسون في مجالات كثيرة ، وحتى لا تبقى آثاره مجرد كتابات يغطيها الغبار فيذهب عمله سدى ، ركزنا على شخصية الشيخ محمد الطاهر التليلي من خلال ديوانه الذي لا يزال مخطوطا (الدموع السوداء) .

❖ حياة الشيخ العلامة محمد الطاهر التليلي العلمية والعملية :

بعدما تعرفنا على الأوضاع العامة التي أثرت في حياة الشيخ السياسية والاجتماعية والثقافية ،
نتعرف الآن على الأوضاع الخاصة بالشيخ ؛ أي سيرته الذاتية .حيث قال الشيخ : (... وبعد فإن
من واجبات العاقل أن يعرّف نفسه قبل غيره...)(1).ومن هذا المنطلق ألف الشيخ التليلي كتابه(هذه حياتي
(وقال في مقدمته : (...فعلى العاقل أن يسجل حياته بقلمه ما دام في فسحة الحياة فهو أدري بنفسه وأعلم
بدخيله)(2).ومن هذه الترجمة وغيرها نطل على حياة الشيخ .

أولا : اسمه ونسبه :

هو محمد الطاهر بن بلقاسم بن الأخضر بن عمر بن أحمد بن بلقاسم بن أحمد التليلي الفرياني(3)
، ولقد اشتهرت أسرة الشيخ بلقب(تليلي)وهو نسبة إلى أولاد تليل.الذين لهم في تونس بلدة بهذا الاسم
وقبيلة وزاوية.(4) ، وقد ذكر الشيخ أن جد الأسرة (تليل) يتصل عمود نسبه وأصل شجرته بالخليفة الثالث
عثمان بن عفان رضي الله عنه(5).

ولد التليلي في بلدة قمار ، بوادي سوف عند منتصف الليلة السادسة من شهر ذي الحجة أي قبل عيد
الأضحى بأربعة أيام سنة 1328 هـ الموافق لسنة 1910 ميلادية.

ثانيا : تعلمه :

1. تعلمه في البلدة :

لقد نشأ الشيخ محمد الطاهر بين أحضان أسرة عريقة شريفة دينا ، ودنيا ، وكان أبوه بلقاسم يتمنى
منذ صغره إذا تزوج وولد له ولد ذكر أن يسميه(الطاهر).

ونترك المجال للشيخ حتى يكمل مراحل نشأته ، فقال (فكنت أنا من بين أولاده الذين ولدوا قبلي ، ولقد
كنت أتأرجح بين الحياة والموت في فترة الرضاع كلها ، فكنت أموت مرارا وأحيى مرارا ، إلى أن خرجت

2.1 محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. مخطوط . ص : 01.

3.هي نسبة إلى بلدة تونسية ، تقع في الجنوب التونسي قرب مدينة قفصة ، وقد ذكر الشيخ في ترجمته أن أسرته انحدرت إلى سوف من هذه البلدة ،
والجد الذي وصل إلى وادي سوف من هذه العائلة هو أحمد التليلي .ينظر محمد الطاهر التليلي(هذه حياتي)ص : 02.

4.د/ أبو القاسم سعد الله (فقيه العلم والجزائر الشيخ محمد الطاهر التليلي(2003.1910)جريدة(الشروق)العدد950.(2003/12/16)
ص : 15.

5. جاء في مجلة العرب ج.11 و12.الجماديان سنة 2005.ص : 739.(أن الشيخ محمد الطاهر أصله عربي من نسل الخليفة أبي بكر الصديق)وهذا
ما يخالف ما أثبتناه في الأصل ، وهو الصحيح استنادا إلى ما ذكره الشيخ في ترجمته لنفسه فيكون ما جاء في المجلة خطأ يقتضي التنبيه إليه .

من تلك الفترة بسلام، وقد قضيت مدة الرضاعة كلها ولم أستطع أن أتكلم بأي كلمة، بل لم أستطع الكلام ولم أقدر على إخراج الحروف من مخرجها مدة خمس سنوات كاملة، حتى ظنُّني أنني أبكم وإن حيت حيت أبكما، وعند السنة الخامسة من العمر نطقت بكلمة هي زجر للقطعة - أسب - وعندها كان سرور الجد والأم وبقية أفراد الأسرة عظيما جدا (1).

و من عادة أهل المنطقة، أن الطفل إذا بلغ خمس سنوات يهيئه والده للدراسة في الكتاتيب، خاصة إذا ظهرت فيه عوامل النجابة، وهذا بالفعل ما وقع لشيخنا التليلي .

قال الشيخ: (... وكانت عادة بيتنا في قمار لا يختنون أطفالهم إلا في السنة الخامسة، والغالب أن يكون الختان في مفتح تلك السنة، فكان ختاني سنة 1333هـ الموافق لسنة 1914م، وذلك في أواسط الصيف، وبعد الشفاء من آلام الختان، والبراء من أدواء الصبيان، أدخلني والدي بإشارة جدي لأبي كتاب القرية المعروف بجامع الطلبة(2) وكان المؤدب فيه الشيخ المرحوم السيد أحمد بن حم الأخضر بن المحنط المتوفى حوالي سنة 1342هـ). (3).

وقد قضى التليلي في الكتاب سنة كاملة عرف فيها حروف الهجاء، وقرأ الحزب الأول من الأعلى إلى الناس قراءة لا حفظا، فيجب على الطفل أن لا يحفظ شيئا قبل تعلم استقامة السطر وإمساك اللوح والقلم وإتقان كتابة الحروف وكيفية وضعها، ولكن جده رحمه الله - انتقد هذا النظام بل اعتبره(نظام يضيع معه عمر الصبي بقدر ما يخيب أمل والده فيه)(4)، وأمر بإخراج محمد الطاهر من الكتاب لياشر تعليمه بنفسه على حسب ما يراه مناسبا .قال الشيخ(خرجت من الكتاب المذكور بأمر من جدي إذ لم ير فائدة في الاستمرار على هذه الطريقة المختارة عندها وأخذ هو على نفسه أن يياشر تعليمي مباشرة)(5). ومن حسن حظ الفتى أن الجد كان من حفظة القرآن. وطلب من الفتى أن لا يحو لوحه، ولا يخرج من سورة إلى أخرى إلا بعد الحفظ المتقن .

وهكذا حتى أتم الفتى حفظ نصف القرآن، فأمره جده بالعودة من جديد، وقال معللا: (يا بني إن نفسي لا تطمئن وقلبي لا يسكن وصدري لا ينشرح حتى أراك تجيد حفظ القرآن الكريم على أقل تقدير، فإذا أنت حفظت هذا النصف الذي تعبت فيه معك حفظا جيدا ومت أنا بعدها مت منشرح الصدر مثلج الفؤاد راضيا على نفسي مغتبطا بعملتي معك وتعليمي إياك)(5). وحقق الفتى التليلي أمنية جده بحفظ نصف

1. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. ص : 04.

2. مازال هذا المسجد يحمل اسم (مسجد الطلبة) حتى اليوم ، لكن أهل البلدة يطلقون عليه اسم (مسجد الغوار)نسبة لإمامه العيد غوري.

3. 4. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. ص : 05..

5. المصدر نفسه. ص : 07.

القرآن حفظاً جيداً، ثم أكمل الحفظ، و طلب منه في نفس الوقت حفظ المتن كمتن ابن عاشر في الفقه المالكي ومتن الأجرومية في النحو، وهكذا دام العمل حتى حفظ المتن الأول و الثاني، ولم تنته طموح الجد في تعليم الحفيد عند هذا الحد، فكلفه بقراءة متون الكتب الدراسية للمرحلة الابتدائية، وامثل الفتى للأمر، لكن الجد لم يستطع مواصلة التعليم. قال الشيخ التليلي: (وعندها - بعد حفظ خمسة وأربعين حزبا من القرآن - عجز الجد كل العجز عن إتمام ما كان يأمله من تأديبي وتعليمي مباشرة وعلى يده، فأرسلني إلى الشيخ الطيب بن الحاج علي بن الزا).⁽¹⁾

ومن حسن حظ الفتى أن الإمام كان ملماً بمبادئ علوم العربية، فاستفاد منه الشيخ كثيراً، وواصل معه حفظ القرآن، وبقي على هذه الحال سنة كاملة، ويحضر إلى جانب ذلك بعض دروس الشيخ محمد بن السائح اللقاني في النحو، وكذا دروس الشيخ العلامة عمار بن الأزعر، فتكونت لديه رغبة في تعلم علوم العربية، لهذا لازم دروس الشيخ أحمد القا في النحو، لكن هذا الأخير رحل إلى تونس، ولم يبق في قمار إلا الشيخ عمار بن الأزعر ليدرسه، فلزمه حتى رحل الشيخ الطاهر التليلي إلى الزيتونة طالباً العلم و محققاً أمنية جده..

وعندما توفي الجد واصل الشيخ التليلي تعلمه على يد شيوخ أهل البلدة، فتعلم مبادئ علوم العربية والدينية، وتابع دروس الشيخ عمار بن الأزعر⁽²⁾ التي كان يلقيها في أشهر ثلاثة من كل سنة وهي رجب وشعبان ورمضان، وقرأ عليه الكثير من الكتب منها:

- شرح ميارة على متن ابن عاشر في الفقه المالكي.
- كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي .
- الجزء الأول من مختصر خليل في الفقه المالكي.
- شرح الرحبية في الفرائض.
- شرح الأجرومية، وقطر الندى، ومقدمة الإعراب في النحو.
- المقدمة الجزرية في التجويد.
- صحيح البخاري.

إضافة إلى كتب أخرى في التفسير والحديث والمنطق والأدب. قال الشيخ: (إلى هنا ينتهي بي عمر الكتاب والمحاضرة و حياة العصا والمؤدب)⁽³⁾ ... و هنا تبدأ نشأته العلمية وتلقي المعارف والعلوم.

2- تعلمه في تونس

1. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. ص : 08.
2. ولد عمار بن لزرع سنة 1316 هـ. ينظر أنس يعقوب إبراهيم : أعلام من أرض النبوة ط1. س1514 هـ. ج 2. ص: 145/138.
3. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. ص : 11.

عندما بلغ الشيخ التليلي سن السابعة عشر، رحل إلى تونس مع غيره من الشباب المتحمس للعلم والمعرفة والتحق بجامع الزيتونة 1927. ومن نظامها أن يقرأ الطالب الكتب التي تعطى له كل سنة، ثم يعيدها على شيوخه. لكن الشيخ لم يلتزم في سنتيه الأولى والثانية بالدروس التي كانت تلقى، لأنه قرأ أغلب كتبها على الشيخ عمار بن الأزعر، وقال واصفاً حاله (... كنت في هذه السنة مطلق العنان غير متقيد بالرتبة ولا بالكتب ولا بالشيوخ ولا ملزم بطريقة خاصة وليس لي دفتر يوجب علي إتباع المقرر، فكنت أتخير أحسن الكتب وأفضل الشيوخ وأليق الأوقات، فكانت دراستي في تلك السنة كما أشاء وأريد وكما أحب وأختار). (1)

وهذا لا يعني أنه أضاع وقته في اللهو واللعب، بل أعاد قراءة الكتب التي قرأها على الشيخ عمار بن الأزعر، ليتقنها أكثر وزاد عليها كتباً أخرى منها:

- كتاب كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني
- كتاب شرح قطر الندى.
- كتاب عنوانه النجاة في الرسم والكتابة
- كتاب شرح الباجوري على كتاب التوحيد
- كتاب شرح المارغني على جوهرة التوحيد .
- كتاب الزنجاني في الصرف، وقرأ أيضاً شرح المجرادية في الجمل .
- كتاب شرح ميارة على متن ابن عاشر في الفقه
- قرأ القراءات رواية ودراية
- كتاب إيساغوجي في المنطق .

وهكذا ظل الشيخ طول السنة يتخير أحسن الكتب وأفضل الشيوخ وأليق الأوقات، وما إن انتهت هذه السنة حتى أصبح الشيخ كامل العدة وافر الأدوات، فكتب طالبا من النظارة العلمية للجامع، أن تجري له امتحانا لأنه أتم قراءة كتب السنتين الأولى والثانية فقبل طلبه. أجرى الشيخ الامتحان ونجح، نال معها ملاحظة (حسن جدا)، ودونها في دفتره الذي انخرط به في سلك النظام الزيتوني للدراسة الدائمة .

وعندما انتقل الشيخ إلى السنة الثالثة وجد نفسه مقيدا بنظام محكم لا يستطيع الإفلات منه، فالشيوخ والكتب والتحضير والتمرين والحصص كلها تحت المراقبة الشديدة، ولا يسع التلميذ، إلا الالتزام التام، وهكذا حتى وصل الشيخ إلى السنة السابعة. لكن تلك السنة لم تحسب، لأن الطلبة اضطربوا عن الدراسة بالجامع، فسمي هذا العام بعام التجنيس. وقال ملخصاً نتيجة هذا العام (لم تقع الامتحانات

وبالتالي لم تحسب لي تلك السنة من سني الدراسة اللازمة لي وطرحت من الحساب، فاستأنفت سنة أخرى وهي السنة المقبلة (1352 هـ - 1353) الموافق لـ: (1933-1934) وبالضرورة كان فيها تغيير لأوقات الدروس وللشيوخ وللكتب والترتيب ولكل شيء (1).

هذا ولم يقتصر الشيخ في طلبه للعلم على الدروس النظامية فحسب، بل كان يحضر حلقات العلم خارج الجامع ويقراً كتباً على مشايخها أهمها:

- كتاب الجامع الصغير للسيوطي، وكانت حلقات شرح هذا الكتاب تقام بين العصر والمغرب من كل رمضان.
- حضر الشيخ عدة دروس في التفسير.
- قرأ قسماً لا بأس به من كتاب الفروق للقرافي على الشيخ عبد السلام التونسي.
- حضر الشيخ عدة دروس في شرح الإحياء للغزالي.
- حضر دروساً في البلاغة.
- لازم الشيخ دروساً مختصراً لخليل وشرح الرسالة بعد صلاة الصبح.
- حضر الشيخ دروساً في الفقه.
- قرأ دروساً في الإنشاء.

هذه أهم الدروس التي تلقاها الشيخ خارج الجامعة، ومع ذلك لم يكتف بدراسة العلوم الشرعية والأدبية، فكان يحضر دروساً في الطب، ودروساً في مبادئ اللغة الفرنسية وغيرها.

وبهذه المرحلة الشاقة من حضور الدروس وقراءة الكتب المفيدة انتهت مسيرته العلمية في تونس. تحصل في الأخير على شهادة (التطويع). قال عند ترجمته لنفسه: (تلك هي حياتي الدراسية في تونس أملتيتها عليك من دون أن أترك منها وفي كنانتها عوداً إلا نثرته أمامك ونشرته بين يديك، اللهم إلا توافيه صغيرة ونتفا حقيرة تركتها تعمداً لتفاهتها أو سهواً لحقارتها) (2)

ثالثاً: الشيوخ الذين تتلمذ على يدهم الشاعر :

لم يرحل الشيخ في طلب العلم إلا لتونس، وقد حمل منها كثيراً من العلوم الشرعية وعلوم الأدبية، وذلك بعد أن حفظ القرآن الكريم على جده وعلى الشيخ الطيب بن الحاج علي، والشيخ عمار بن الأزعر وغيرهم رحمهم الله.

قال الشيخ في آخر ترجمة لنفسه: (وهذه قائمة لأسماء بعض شيوخي الذين أخذت عنهم القرآن والعلم واستفدت منهم فوائد علمية سواء في قمار أو في تونس داخل جامع الزيتونة وتحت نظـامه أو خارج جامع الزيتونة وفي تونس، ولم أقصد غير جمع الأسماء فقط في هذه القائمة من دون ذكر الفوائد أو وفياتهم أو ترتيبهم أو ذكر شيء من تاريخهم اللهم إلا في القليل النادر)⁽¹⁾ ونتطرق لأسماء الشيوخ الذين تتلمذ الشيخ الطاهر التليلي على أيديهم، بدءاً بشيوخ قمار ثم تونس، على النحو الآتي :

1- شيوخه في بلدة قمار :

— الطيب بن الحاج علي بن الزا: هو الشيخ المؤدب الطيب بن الحاج علي بن محمد بن الزا، شيخ قضى أكثر عمره في تعلم مبادئ القرآن، ودرس على يد علماء كثر منهم الحاج أحمد هالي، والشيخ محمد بن السائح اللقاني. توفي في جوان 1969م.⁽²⁾

— أحمد بن حم الأخضر المحنط

— الأخضر بن عمر بن ميده

وهؤلاء الثلاثة هم شيوخه في حفظ القرآن الكريم، أما بقية العلوم الأخرى كالفقه واللغة فقد درسها على عدة مشايخ نذكر منهم :

— محمد البرية الزوييري: هو الشيخ محمد بن أبي القاسم الزبييري المعروف بـ(سي محمد بن البرية) ولد سنة 1226هـ الموافق لـ 1874م درس على يد أحمد هالي وعلى يد الشيخ عمار بن لزعر. قضى أكثر عمره في تعليم القرآن الكريم. وتوفي سنة 1949م.⁽³⁾

— محمد اللقاني بن السايح، محمد العزوزي بن الصادق الحوحو، أحمد بن محمد القا، عمار بن الأزعر وهؤلاء الثمانية هم أبرز شيوخه بقمار، فمنهم تعلم وعليهم أخذ، خاصة جده ميده والشيخ عمار بن الأزعر.

2- شيوخه بجامع الزيتونة : وهم على قسمين :

أ - شيوخه في تجويد القرآن : ونذكر منهم :

— مختار المؤدب.

— محمد أجديدي البترني الكتبي.

قرأ الشيخ التليلي على هؤلاء الشيوخ وغيرهم فن القراءات رواية ودراية،

1. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. ص: 82.

2. 3. محمد الطاهر التليلي : مجموع مسائل تاريخية متفرقة تختص بسوف وأهلها في القديم والحديث وما يتعلق بصحراء سوف من قريب أو بعيد ص: 104 - 99. مخطوط.

ب – شيوخه في العلوم الأخرى :

لم يول الشيخ اهتماما كبيرا بعلم القراءات، وإنما أخذ منه الضروري الذي لا يتم الواجب إلا به، وركز اهتمامه الأكبر على العلوم الأخرى كالفقه والتاريخ والأدب، وعدد الشيوخ الذين أخذ عنهم هذه العلوم وهم 49 أستاذاً، نذكر منهم :

– محمد البشير النيفر : من عائلة عريقة في العلم والتعليم بالزيتونة . ولد في جمادى الأولى 1306 هـ، كان ينتمي للطريقة التجانية، وقد ارتقى في درجات العلم والتوظيف إلى أن صار مفتياً مالكيًا وقاضياً، وكان يقرئ الفقه والتفسير. توفي في أول رجب 1349 هـ الموافق لـ أوت 1974 م.(1)

– محمد الطاهر بن عاشور: هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور إمام ضليع في العلوم الشرعية واللغوية والأدبية، ولد سنة 1296 هـ، تحصل على شهادة التطويغ من جامع الزيتونة، ثم عين مدرساً به. توفي سنة 1393 هـ الموافق لـ أوت 1973 م (2)

– محمد الزغواني – الشاذلي بن الضيف

– محمد العربي الدرعي – إبراهيم النيفر

هذه بعض أسماء شيوخه في جامع الزيتونة. أما خارج الجامع، وقد كان الشيخ منضبطاً في حضور المحاضرات والدروس وقراءة الكتب ثم يعيدها على شيوخه، ومنهم:

– الشيخ العربي الكبادي

– محمد بن عمار التوزري .

هؤلاء جميعاً هم شيوخ محمد الطاهر التليلي الذين درس عنهم في مسقط رأسه بقمار، وجامع الزيتونة بتونس، كما ذكرهم في ترجمته.

ثالثاً: ثقافته:

إن المتأمل لحياة الشيخ من بدايتها يدرك تعدد معارفه وتنوعها، وتبرز ثقافته الدينية والأدبية والعلمية واضحة جلية. فمنذ صغره كان يحفظ القرآن عن جده وشيوخه، ويحضر دروس الأدب، وفي وقت فراغه بتونس يهتم بالعلوم الأخرى كالطب والفلك وغيرهما .

– عنايته بعلوم القرآن :

يعتبر الشيخ الطاهر التليلي من الأعلام المعاصرين الذين اهتموا بالدراسات القرآنية في الجزائر،

2.1. محمد الطاهر التليلي : مجموع مسائل تاريخية متفرقة تختص بسوف وأهلها في القديم والحديث وما يتعلق بصحراء سوف من قريب أو

ويعود ذلك بالأساس إلى دراسته في جامع الزيتونة بتونس، واعتناقه مبادئ الإصلاح من زعماء جمعية العلماء المسلمين بقيادة الإمام عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، وكذا تعمقه في دراسة القرآن والتاريخ الإسلامي. يقول الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله عن الشيخ التليلي (...فهو عارف بالتفسير ومعاني القرآن الكريم، وأصول الفقه وفروعه والمذاهب الإسلامية، وعلم الكلام والحديث الشريف، ومعرفته هذه ليست معرفة نقلية تقوم على الحفظ والذاكرة وحدهما كما كان حال علماء عصر التخلف، ولكنها معرفة عقلية أيضا. ذلك أن الشيخ لا يقلد في أمور كثيرة، وهو يظهر من الاستقلال الفكري ما قد يوصله إلى درجة المجتهدين).⁽¹⁾ ومن خلال تتبعنا لمسيرة الشيخ التعليمية، يكون من الطبيعي الاهتمام بالقرآن وعلومه، فقد قضى حياته في خدمة العلم والتأليف، وتفرغ منذ تقاعده عن العمل الوظيفي سنة 1972 للبحث ودراسة القرآن، فتارة تجده متعبدا تاليا لآيات القرآن بتدبر، وتارة أخرى يكون باذلا وسعه في التكرار والاستظهار، ومن غير هذا وذاك فهو منقب وباحث ودارس لمختلف المعارف القرآنية، ويستعين بالدراسات المتخصصة القديمة والحديثة.

— عنايته بالأدب :

كان الشيخ الطاهر التليلي منذ صغره مولعا بقراءة كتب الأدب، وقد أشبع رغبته بالكتب التي قرأها في جامع الزيتونة عندما كان طالبا، ولم يكتف عند هذا الحد بل كان يتبادل الكتب مع أصدقائه فترسل إليه رزما من البقاع المقدسة، فينهل الشيخ من علمها الوفير. يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله (...فهو حافظ للمفردات اللغوية وراوية للشعر العربي في جميع عصوره).⁽²⁾

وقد ظهرت عنايته بالأدب من خلال تعليم التلاميذ الذين كان يدرسه معجم غريب الألفاظ، ونظمه لقواعد الإعراب حتى يسهل على التلاميذ حفظها. فالاهتمام بالنشء من أولويات الشيخ وسوف نتطرق إليه بالتفصيل في الجزء الثاني من البحث، ولم يتوقف عند هذا الحد بل له مؤلفات مخطوطة حول الألفاظ العامية في سوف وإيجاد مرادفات لها بالفصحى.

ويعتبر ديوان (الدموع السوداء) والذي هو موضوع دراستنا، دليلا كافيا على اهتمام الشيخ التليلي بالأدب شعره ونثره، وتصدر الإشارة إلى أن المؤلفات الدينية للشيخ جلتها منظومة، وهذا يبين توجهه الديني والأدبي.

— تطلعه إلى العلوم الأخرى :

كان الشيخ التليلي من الرجال الموسوعيين الذين ابتلاهم الله بحب الاطلاع، قال الشيخ (وبعد فإن الله

1. 2 (فقيد العلم والجزائر) الشيخ محمد الطاهر التليلي 1910-2003. ص: 15.

3. د/أبو القاسم سعد الله : أفكار جامحة. المؤسسة الوطنية للكتاب. ص: 204.

ابتلاني بحب الاطلاع والمطالعة واكتشاف المجهول والجري وراءه والتنقيب عليه (1) حيث كان يحضر

دروس الأستاذ عثمان العكاك صاحب التأليف التاريخي، فتكونت لديه رغبة قوية في ضبط المسائل التاريخية وتأريخ الأحداث. و تطرق الشيخ لعدة مسائل تاريخية تختص بسوف وأهلها في القديم والحديث، كتراجم بعض الأعلام وأصول وأنساب القبائل والعشائر السوفية، وقد استفاد منه الدكتور أبو القاسم سعد الله عند تأليفه كتاب (تاريخ الجزائر الثقافي). (2)

كما اطلع الشيخ على علم الفلك، و كتب فيه رسالة سماها (الدرر الملكية في الدراري الفلكية) ضمنها فوائد خاصة بعلم النجوم وكل ما يتعلق به، من معرفة الأوقات، والأيام، والشهور، والساعات، وكل ما من شأنه أن يعين المسلم على أداء الواجبات، كما حذر الشيخ من استعمال هذا العلم - علم النجوم - لأغراض وأهداف غير نافلة قد تؤدي للكفر والتشكيك في الخالق - جل وعلا - . فكانت رسالة (الدرر الملكية في الدراري الفلكية) على صغر حجمها جامعة لفوائد غزيرة تنبئ عن علم واسع للشيخ وسهولة وفهم مضمونها.

ومن العلوم التي بحث فيها الشيخ أيضا، علم الطب فكان أيام طلبه للعلم بتونس يحضر دروس الطب التي يلقبها بعض الدكاترة يقول الشيخ: (... حضرت دروسا في الطب على الحكيم دنقزلي والحكيم محمود المطاري...) (3). هكذا يبدو الشيخ منذ صغره مولعا بحب المطالعة والاطلاع.

إن اهتمام الشيخ بالكتاب والسنة جعله يحكم عقله ويشكر الله على هذه النعمة. حيث يقول:

مصباح عقلك فاحذر أن تحطمه
بين العواصف فهو النور تفقده
نور به حيث يرضى الله مانحه
واشكر له فهو في الظلماء موقده (4)

بعد هذه السيرة العطرة التي قادتنا للتعرف على علم من أعلام الجزائر، الذين بذلوا جهدهم تجاه أمتهم ودينهم ووطنهم بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فكم من جاهل علموه، وكم من ضال أرشدوه، لقد كانوا حقا ربانيين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يرجون من أحد جزاء، وإنما سعادتهم في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، و أتموا أمنيتهم بالتعليم والتوجيه والإرشاد لا يبالون بالدنيا أقبلت أو أدبرت، وبالمعيشة رقت أو اخشوشنت. وإليك ملخص حياته كما نظمها في أبيات فقال:

حياتي كلها حصرت في عشر
من الأحداث في قلق وعسر
ولا أعني الصغائر في حياتي
فتلك كثيرة من دون حصر

1 . محمد الطاهر التليلي: الدرر الملكية في الدراري الفلكية. مخطوط. ص: 01.

2 . أنظر د/ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. دار الغرب الإسلامي بيروت. ط1 س1998. ج2 - 5 - 8.

3. محمد الطاهر التليلي: هذه حياتي. ص: 27.

4ديوان الدموع السوداء. ج.1. ص: 57.

أتت أكلها من دون نكـر
وخلفت الندامة بعد خسـر
لقرآن توسع فيه فكـري
ونيلي للتقاعد عند كبـري
وكرهت الحياة لنفس حر
بأول زيجة وقعت في صغري
لأهلي والتباعد دون عذر
لمن لم يرض إيوائي وخـري
باجحاف وبخس بيـع غر
ونسـيـانـي لقرآن وذكر
تفوق سواها في خير وشـر
على تلك التي وسمت بشر
قضيت بطيه أيام عمـري
على تلك الحوادث أي سفـر
ولا من يدعي أخبار دهـري
ولا الأخبار مرجع كل أمـر
قضى أيامه في غير يسـر(1)

فمنها خمسة درت ومـرت
ومنها خمسة كرت وفـرت
فخمستها التي درت فـحفظي
وتطويعي وتعليمي وحـجي
وخمستها التي كرت وفـرت
زواجي دون مشورة لأهـلي
هروبي من مجاورتي وعـوني
وبنيان المساكن فـوق داري
وبيعي دون مسبغة لنخـلي
وأفضعها ذهاب الرأـي عني
فتلك وهذه يا صاح عـشر
وقد ألت أواخرها لحـافا
لحافا أسودا سـود الليالي
فلا تسأل سوى هذه القـوافي
ولا زيدا ولا عمرا وبكـرا
فلا الأسفار تحمل كل علم
فذاك ملخص حياة شـخص

رابعاً: نشاطاته:

تأثر الشيخ بالحركة الإصلاحية في قمار سنة 1931 على يد شيخه ومعلمه عمار بن الأزعر، وتزامن ذلك مع إنهاء الدراسة في الزيتونة، فتحدت يومئذ مرجعيته الفكرية والسياسية، ووجد أن خير وسيلة لتحقيق طموحه العلمي والإصلاحي هو التعليم. فتنقل عبر الولايات مدرسا ومعلما ومصلحا. بعد أن عجز عن ذلك في بلدته. وكانت تلك بداية المسيرة التي دامت نحو 37 سنة دون انقطاع. وبدأ الشيخ بالتدريس في قرية (كمبيطة) ببجاية سنة 1935 ودامت عدة شهور، تعرض أثناء التدريس لمضايقات، انتهت بمغادرته والعودة إلى قمار.

- التدريس بمدرسة النجاح بقمار:

وهي فترة العطاء بالنسبة للشيخ التليلي، حيث تزامنت مع فترة شبابه، ورغبته واندفاعه لتقديم تجربة

رائدة في التعليم مسيطرة للحركة الإصلاحية منذ الأربعينات حتى الاستقلال .

وقد أمسك الشيخ التليلي بزمام الإدارة فيها رغم الظروف السياسية الصعبة، وكثرة الاعتقالات، حتى أشاد بدوره زائر تونسي لقمار: (زار جنوب الجزائر سنة 1952... ثم زرنا المدرسة القرآنية التي يديرها المثقف الشيخ الطاهر التليلي المحرز على العالمية من الكلية الزيتونية العامرة ، وهو روح المدرسة وعمودها الفقري ، جمع إلى إدارتها التدريس بها وتخرج المثقفين والمثقفات ، وطالما راودته المدرسة الحكومية على إعطاء ساعة بالعربية ففضل مدرسته على مدرستهم...)(1)

وقد تولى الشيخ التليلي إدارة المدرسة في الفترة ما بين 1939. 1261، فجمع بين الطريقة التقليدية والطرق التربوية الحديثة التي تعلمها من مشايخه في جامع الزيتونة(2)، ويجتهد الشيخ التليلي مع زملائه في تكييف مناهج جمعية العلماء المسلمين وفق الواقع التعليمي في المدرسة وقدرات التلاميذ، وكان يساعدهم بانتقاء مفردات لغوية تعينهم على كتابة الإنشاء والتمارين الكتابية التعبيرية(3)، كما كان يحثهم على المطالعة التي تكون شخصيتهم. قال في نظم بحور الشعر القديمة المعروفة :

بحور الشعر في القدماء تجري	تُحد بستة من بعد عشر
طويل ووافر وبسيط رجز	مديد كامل وخفيف بحر
سريع مضارع هزج ورمـل	ومنسرح ومقتضب لأمر
ومجث ومحدث والمتقارب	فتلك بحورنا يا صاح فادر(4)

وقد استعمل الشيخ بحر الرجز كثيرا في منظومته العلمية ، خاصة المتعلقة بالقرآن الكريم وهذا كعادة سلفه . وقال في نظم الجمل التي لها محل من الإعراب :

فجمل إن أولت بمفرد	لها محل فاعرفنها تهتد
عددها تسع كما سيأتي	نظمتها للحفظ في أبيات
كجملة الحال وجملة الخبر	وجملة الوصف كذاك تشتهر
وجملة المفعول و التابع ما	لها محل والجواب علما
لفعل شرط جازم وما يضيف	إليها مثل حيث أنت لاتقف
وجملة المستثنى والمسند له	كمن تولى بعد إلا فانتبه(5)

1. محمد صالح الجابري: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900.1962 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع د ط. س 1983. ص: 43.

2. علي غنابزية: الشيخ الطاهر التليلي رائد التعليم العصري في مدرسة النجاح بقمار ..موضوع ألقى في الندوة الفكرية الرابعة بعنوان: العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي. ص: 120.

3. أنظر كتاب : محمد الطاهر التليلي: زهرات لغوية مقتطفة من كتاب الألفاظ الكتابية للهمداني..مخطوط.

4. محمد الطاهر التليلي: رسالة المقتطفات النظمية من مؤلفاتي المعلومة. مخطوط س 2001. ص: 14.

5. المصدر نفسه . ص: 14.

ويظهر مما سبق توسع ثقافة الشيخ وتنوعها .

– إدارة المعهد الإسلامي بالوادي :

تولى الشيخ التليلي الإدارة والتدريس في المعهد الإسلامي بالزاوية القادرية بالوادي سنة 1964 ثم قدم استقالته بعد مدة وانخرط في سلك التعليم التابع لوزارة التربية.

– التدريس في مدارس الحكومية :

تنقل الشيخ بين عدة مدن هي العاصمة و عنابة و تقرت والوادي يدرس أبناءها مدة سبع سنوات ، وانتهت فترة العطاء العلمي سنة 1972 بالتقاعد المسبق ، تفرغ الشيخ بعدها للتأليف والبحث والعبادة ، فاتحا بذلك حياة علمية جديدة .

خامسا: مواقفه الإصلاحية :

أ – في المجال الاجتماعي :

رغم الظروف السياسية والاجتماعية السيئة في المنطقة بسبب ضغط المستعمر ومحاولته طمس معالم الشخصية الوطنية ، إلا أن الشيخ التليلي لم يفشل ولم يتوان في نشر ما تعلمه من ثقافة ودين وعلم وأدب. فقد كان يحدث نفسه يوم عودته من تونس وقائلا : (سأرجع إلى بلدي فأخدمها وأنشر فيها كل ما تعلمته وتلقيته من ثقافة ودين وعلم وأدب كما خدمها غيري وعمل لها سواي من الشيوخ والعلماء والمحدثين ، وقلت ليس تعليمي إلا وسيلة إلى النهوض بالبلاد وإنبات النبات الحسن من الشباب الصالح المصلح والنخبة المختارة والزبدة والعصارة الذين بهم تسموا البلاد وعليهم تعتمد –بعد الله – وما أنا إلا ابن من أبنائها). (1)

وقد تحول حديث النفس إلى حقيقة في أرض الواقع ، فالشيخ قضى حياته في نشر العلم الصحيح ، مرغبا الناس في تحصيله ، كما قدم عمره الطويل العامر بسعيه الدؤوب لمحاربة البدع والخرافات وكل ما يعوق تحرر الأمة ورفقيها. وأبرز مواقفه الإصلاحية تكمن في نشاطه الإصلاحي التعليمي للناشئة بمدرسة النجاح في أواخر الثلاثينيات ، حيث كان الشيخ التليلي مديرا لها ومدرسا فيها . وقد استطاع أن يحقق مواقف إصلاحية تاريخية منها :

- تربية الشيخ لتلاميذه في المدرسة على كريم الأخلاق وشرف الطباع وعلو الهمة .
- سعي الشيخ في تربية تلاميذه على التوحيد والتحذير من الشرك ودراسة الفقه والتاريخ الإسلامي ، وإحياء اللغة العربية ، و مواجهة الاستعمار بأفكاره الهدامة الرامية إلى تجهيل الشعب الجزائري

وهذا بالدعوة إلى العقيدة الصحيحة ، ومحاربة البدع والخرافات.

• إنتماء مدرسة النجاح إلى جمعية العلماء المسلمين ، و تطبيق منهجها في الإصلاح والسير وفق توجيهاتها ، ومن المعروف أن جمعية العلماء تعمل من أجل الإصلاح الديني والاجتماعي ، للنهوض بالبلاد ثقافيا واجتماعيا.

ب - في المجال الديني :

ويمكن أن نجمع مواقف الإصلاحية في :

1. سعيه الحثيث في الدعوة إلى الحق ونبذ الابتداع ،
2. حث المتعلمين - صغارا وكبارا- على حفظ القرآن الكريم.
3. سفره إلى قرية كمبيطة ببجاية للتدريس في مدارس جمعية العلماء بطلب من المراقب العام للجمعية وقتئذ وهو الشيخ محمد بن خير الدين ، أين تسلم شيخنا وظيفة الإمامة والخطابة بالمسجد الجامع ، وقد انتهج الشيخ في دروسه هناك منهج الإصلاح والتجديد لولا تدخل الاستعمار الذي أوقفه وسجنه.
4. توليه منصب الإمامة والخطابة بالمسجد الكبير، حيث حل محل الشيخ عبد القادر الياجوري وذلك سنة 20 محرم 1357 هـ الموافق لـ: 18 ماري 1938 م ، وقد رتب الشيخ برنامجا علميا جامعا ، فجعل دروس التفسير ليلة الأحد وليلة الاثنين ، ودروس الأحاديث النبوية ليلة الثلاثاء والأربعاء ، ودروس الفقه ليلة الخميس والجمعة . أما الخطب فإنها تدور حول التصفية والتربية أو كما عبر عنها الشيخ .بقوله (التخلي والتخلي)(1) ، يعني بذلك التخلي عن العادات الجاهلية والتخلي بالسنة النبوية ، ومنهج التخلي والتخلي يعبر عن موقفه الإصلاحية في هذا المجال .

سادسا : وفاته :

بعد حياة ملؤها الجد والنشاط في خدمة العلم ، تعلما وتعلما ودعوة إلى الخير ، حتى اعتلت صحته في سنواته الأخيرة ، فألزمته الفراش ، وفاضت روحه الطيبة مساء ليلة الأربعاء 18 رمضان 1424 هـ. الموافق 12 نوفمبر 2003 ، رحمه الله.مخلفا وراءه سبعة أولاد : ابنين وخمس بنات.

❖ أخلاقه وأقوال العلماء فيه :

– أخلاقه :

لقد تعلق قلب الشيخ الطاهر التليلي بالقرآن الكريم، وصفت نيته من شوائب الشرك وحب الظهور، وانعكست في أخلاقه. وقد تحدث الشيخ محمد التيجاني زغودة (1) - رحمه الله - عن كثير من أخلاق الشيخ العالية التي وهبها الله إياه، في كلمة ألقاها بمناسبة الندوة الفكرية الرابعة: العلامة الشيخ عبد القادر الياجوري يومي 27/26 ديسمبر 2004 والتي خصصت لدراسة سيرة وفكر وأثار العلامة الشيخ محمد الطاهر التليلي بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته - رحمه الله - .

لقد عُرف الشيخ محمد الطاهر التليلي بمزايا وأخلاق عالية، وأعطاه الله ذاكرة أمينة، وحافظة واعية وذكاء حادا، وصورة نافذة، وعقلا راجحا وجدية صارمة، لا تعرف العجز ولا الخمول، وترسخت هذه الفضائل والعطايا الربانية في شخصه، فكان يعتبر نفسه حامل أمانة وصاحب رسالة.

كان الشيخ صادقا مع نفسه ومع الناس، حريصا على ما ينفعهم ويرفع شأنهم، وخطاهم دينا ودنيا، فصرف عمره الطويل العامر في نشر العلم الصحيح والحث على تحصيله، حتى اتصف بعلو الهمة والصدق في القول والإخلاص في العمل والنفور من حب الظهور.

كان من صفات الشيخ الحميدة الثبات على المبدأ والعقيدة، لا يساوم ولا يزايد في ذلك مهما كلفه الأمر ومهما ناله من أذى، فهو يصبر ويحتسب ولا يشكو لأحد، وإنما يث آلامه وأحزانه لله وحده. وربما جاشت نفسه في بعض الأحيان عندما يشتد به الأذى، فيلجأ إلى القلم يودعه بعض أشجانه وأحزانه في قوالب شعرية .

وكان من الفضائل المشهود له بها، أنه لا يذكر أحدا بسوء في مجلسه وإن كان من ألد خصومه الكائدين له، ومن فضائله الملموسة أنه لا يجب أن يكون لأحد عليه يد أو فضل، وإن كان ذلك فهو يجازي عليه بما يكافئه من شكر وتقدير، فيرسل الاعتراف من رصيد الشعر، لأن الشيخ لا مال له سيظهر ذلك من خلال دراستنا لديوانه (الدموع السوداء).

ومن فضائل الشيخ الورع والزهد في متاع الدنيا وزينتها ومناصبها، حتى أنه قد عرضت عليه مناصب عديدة سامية فرفضها وعلل ذلك بقوله (... جريا على عادتي في الهروب من الرسميات، ومن الظهور في المجتمعات أو من بين الشخصيات) (2). وكان من صفاته التي أنسها من عرفه حق المعرفة - نكران

1. ولد محمد التيجاني زغودة بعمار سنة 1917.

2. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. ص: 52.

الذات ، فهو مع علمه وفضله وتدينه وسلفيته ووطنيته الصادقة لا يتظاهر بذلك ولا يتبجح به بل لا يرى لنفسه فضلا على غيره.

ومن فضائله إدراكه العميق لقيمة الوقت وأهميته في حياة الإنسان ، وحرصه على استغلاله فيما ينفع أو يفيد ، حتى أنه كان يستقل زائره القادم لمجرد الحديث والثرثرة ، ويرى ذلك الزائر جانبا ، قاتلا لوقته ، مبعدا إياه عن التأليف أو التصنيف ، أو المراجعة أو التنقيح ، أو الذكر أو التأمل ، ومع ذلك فإنه يؤثر الصمت عن الكلام فيما لا يهمه ولا يعنيه ، وجامع خصاله إخلاصه التام ونصحه لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

– أقوال العلماء فيه :

عاش الشيخ منعزلا فلم يخالط الناس إلا أقرانه الذين ماتوا قبله ، ولم يعرفوا عنه الجديد. كما أن الشيخ التليبي ومنذ تقاعده سنة 1972 م اعتزل في بيته ، ولم تكن له حلقات علم يستفيد منها الجيل الجديد ، ولا نشر مؤلفاته فيعرفه البعيد . هذا ما جعل أقوال العلماء قليل إلا ما كتبه بعض محبيه ، الذين عرفوا قدره وقالوا فيه كلمة الحق التي يجب أن تقال.

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله : (لو كان المرحوم الشيخ التليبي قد عاش في عصر بعيد عنا ، عصر ازدهار الحضارة العباسية أو الأندلسية لكان ربما من كبار الموسوعيين الذين لا يُشق لهم غبار ، فقد جمع الذكاء الحارق والذاكرة الحية والحافظة التي لا تعرف الكل ولا النسيان إلى آخر لحظة من حياته) (1). وقال أيضا : (وإذا كنا نسمع ونقرأ أن بعض العلماء القدامى قد ألف موسوعات بلغت المجلدات الضخمة فظننا أن الشيخ التليبي كان في مقدوره أن يتفوق على بعضهم فيما أنجزوا من الأعمال ، مع ابتكار وتجديد لو توفر له ما توفر لهم من مكتبات و) (2).

وقال أيضا في تقديمه لكتاب منظومات في مسائل قرآنية من نظم الشيخ : (وقبل أن نذكر هذه التأليف نقول : أن الشيخ له اطلاع على الثقافة الدينية والمعرفة العربية ، غير أن هناك ميدانين قل من يبزه فيهما وهما المعرفة الدينية والمعرفة الأدبية . فهو عارف بالتفسير ومعاني القرآن الكريم وأصول الفقه وفروعه والمذاهب الإسلامية وعلم الكلام (3) والحديث الشريف . ومعرفته هذه ليست معرفة نقلية تقوم على الحفظ والذاكرة وحدها كما كان حال عصر التخلف ، ولكنها معرفة عقلية أيضا ، ذلك أن الشيخ لا

1. الدكتور أبو القاسم سعد الله . تصدير الندوة الفكرية الرابعة تحت عنوان : العلامة المصلح محمد الطاهر التليبي. ص: 01.

2. المرجع نفسه. ص: 01..

3. يعني علم التوحيد والعقيدة ، أنظر : د/أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي . ج.2. ص: 91.

يقلد في أمور كثيرة وهو يظهر الاستقلال الفكري ما قد يوصله إلى درجة المجتهدين رغم انه لا يدعي ذلك (1).

ومن محبي الشيخ - أيضا - والذين عرفوه حق المعرفة الشيخ محمد التجاني زغودة - رحمه الله - يقول عن الشيخ : (هو الفقيه النبيه العالم الموسوعي الأستاذ الشيخ محمد الطاهر التليلي). (2) ويقول أيضا : (فقد أريد لي أن ألقى كلمة عن شيخ الجماعة شيخ الشيوخ وطود الرسوخ العلامة الموسوعي فقيدنا وفقيد التدقيق والتحقيق الشيخ محمد الطاهر التليلي تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته) (3)..
ومما قيل في رثاء الشيخ العلامة محمد الطاهر التليلي ، ما نظمه الشاعر الجزائري : أحمد الطيب معاش ،
وسمى قصيدته بـ : (وداع ورثاء النضو العليل للعلامة محمد الطاهر التليلي) وإليك أبياتها :

لقد قصرت في حق التليلي	فلم أنصفه حتى بالقليل
وقد ألغيتُ عقدا بين شعري	وبيني منذ سافر جلُّ جيلي
وكنت نذرت إهدائي رفاقي	وأشياخي مديحي أو عوبلي
وغادرنا المحاضر والمربي	وجامع كل أوصاف الجليل
فلم أسمع بخطب أو مصاب	ولم أرسل من المنفى رسولي
ف(طاهر) واد سوف كان فذا	بعلم أو حديث أو أصول أصول
قضى دهرا يصارع ظلم دهر	وأهوال (المعمر) والمغول
ونابُ الفقر ينهش منه عظما	ونصل الغدر يفتك بالعليل
فهاجر كالرسول لجمع علم	برغم الأسرين أو البدييل
فُتوجَّ بانتصار في اغتراب	وفاز من المعارف بالجزيل
وعاد لـ (سوفه) في سوق رمل	ليشري أو يبيع برغم قـيل
ولما لم ينل حظا بمـال	تحول للمقفع والخلييل
يصنف أو يصفف أو يصلي	ويخلو للنوافل والهليل
وقبل القرن ناطح كل قرن	وعاش مصارعا كل (الوعول)

1. د/أبو القاسم سعد الله : أفكار جامحة.ص: 204.

2. محمد التجاني زغودة : الشيخ الطاهر التليلي كما عرفته. ألقى في الندوة الفكرية الرابعة بعنوان العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي.ص: 07.

3. المرجع نفسه . ص: 07.

سوى غزو الهزال والتحول
كسعد الله أو وفد نزيول
وفاخر كل غيل بالشبول
ويصبو فرقد نحو الرحيل
من التصنيف والعلم الأصيل
سلام شعر من نضو عليول
صبورا في الشدائد والمهول
بأصداء الرحيل أو العويول
وجزاء من منامي أو مقيول
كأني والسقام بلا عقول
فنصبح للتجارب كالحقول
سيلحق النطاسي بالعميول!
تزل مناقب الماضي الطويل
وجنح طائري واهتاج غولي
ك (سعد) أو سعيدي أو خليل(1)

ولم يوقفه عن حلبات لكم
وحاور بعض أقطاب كبار
أنجب للجزائر خير جيل
وفي هذا الشتاء تغيب شمس
ويترك مثل (جاحظه) جبالا
في قطب بعلم أو بشعر
فقد فقدت جزائرنا عظيما
إذا قصرت في حق لجهلي
فجزء من حياتي في اغتراب
وأضناني التطب و التداوي
وتجمعنا مطاعم سوق طب
إذا هان العليل أو (الكوباي)
وإن غاب الضمير وغر مال
وعذرا يا إمامي تاه مهري
وعفوا يا مربي بعض جيلي

1. قصيدة ألقاها الشاعر الجزائري أحمد الطيب معاش في تأبين الشيخ التليلي عند انعقاد الندوة الفكرية الرابعة تحت عنوان العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي .وسماها (وداع ورتاء النضو العليل للعلامة محمد الطاهر التليلي).

❖ آثاره :

ألف الشيخ التليلي مجموعة من الأعمال التي ما تزال معظمها في لحافها الأسود كما قال في الديوان (الدموع السوداء) حبيسة خزائنه، ولولا محاولات وحيل الدكتور أبو القاسم سعد الله لما تسنى لنا دراسة هذا الديوان ولما تعرفنا على سيرته الذاتية. وإليك أعمال الشيخ :

• آثاره الخاصة بالقرآن الكريم :

– المطبوع منها:

1 – المدخل في غريب القرآن :

هو أحد مؤلفات الشيخ المنظومة ، وفيه تتبع المفردات الغربية التي وردت في القرآن الكريم مرة واحدة ، دون أن يلتفت إلى صيغة الكلمة ، أو من شكلها ، أو وزنها. وجمعت هذه المنظومة (445 بيتا) من بحر الرجز ، واعتمد الشيخ في كتابة هذا النظم على (قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية لمحمد إسماعيل إبراهيم ، ورتب نظمه على حروف المعجم بدء بما أوله همزة إلى ما أوله ياء ، حتى انتهى من تبييضه في يوم 04 ذي القعدة 1402 هـ .

2 – حجر المخلاة في مجالس المحاجاة :

وهو من مؤلفات الشيخ المنظومة و المطبوعة ، يتناول هذا النظم مسائل تتعلق بضبط القرآن ورسومه وهي كثيرا ما تطرح بين القراء و الطلبة المبتدئين ، وحرص الشيخ على نظمها لتكون للمبتدئين تبصرة وللشيوخ تذكرة .. وضمنها في 1307 بيتا ، من بحر الرجز .
واعتمد الشيخ التليلي في كتابة هذا النظم على ما طرح في مجالس المحاجاة ، وعلى بساط البحث والحجاج ، مع القراء والطلبة المتقنين .

3 – تلخيص الأرقام والأعداد لما وجد في القرآن من المواد :

هذا المؤلف هو آخر مؤلف مطبوع للشيخ التليلي ، وهو عبارة عن نظم لكلمات أو أعلام وردت في القرآن الكريم . ولما كان النظم جامعا للكلمات ، قسمه الشيخ إلى قسمين خصص الأول للكلمات والثاني للأعلام ، وقد جمع فيه (589) بيتا من بحر الرجز .

هذه هي مؤلفات الشيخ المطبوعة ، وقد جمعت في كتاب واحد بعنوان (منظومات في مسائل قرآنية) قدم لهذا الكتاب الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله ، والذي قال عن مؤلفات الشيخ عموما وعن هذه المنظومة خصوصا (الشيخ إذن مجموعته من الأعمال التي ما تزال حبيسة خزائنه ما عدا هذا الذي تقدمه

إليك ، وقد كاد هذا العمل أيضا أن يبقى حبيسا لولا حيلة استعملناها معه نرجو أن يبررها قصدنا النبيل ، وهو إفادة القراء وإشاعة المعرفة بين الناس (1).

– المخطوط :

وسنذكر مؤلفات الشيخ المحفوظة و التي تتعلق بالقرآن الكريم :

1 – مجموعة تشتمل على مسائل في رسم القرآن وضبطه .

2 – قواعد وكلمات في الثابت والمحذوف في القرآن الكريم.

3 – رسائل في رسم الألف في القرآن كما في المصحف.

4 – تجريد كتاب الحجة من كل دليل وحجة.

5 – التعليقات البيانية على منظومات مسائل قرآنية :

وهي تعليقات كتبها الشيخ التليلي يوضح فيها بإيجاز ما وقع في كتابه (منظومات في مسائل قرآنية)

من غموض بعض الكلمات ، أو حل رموز حساب الجمل الذي عد به الأبيات ، أو رمز به لتاريخ نظمها .

6 – قواعد البيان في الثابت والمحذوف في القرآن على رواية ورش .

• آثاره في مختلف الفنون :

كان الشيخ التليلي رجلا موسوعيا ، خط بيراعه المخطوطات في شتى الفنون والمجالات كاللغة والشعر والفقه والأصول وعلوم القرآن ، وتعداها إلى علم الفلك والتاريخ ، ولما كانت كلها مخطوطة ، كان التقسيم باعتبار النظم والنثر.

– المؤلفات المنظومة :

1 – سلوة المهموم والمختار في قراءة هذه الأشعار من مختلف الأقطار والأعصار:

هي مجموعة من الأبيات الشعرية لشعراء سابقين في مختلف العصور ، جمعها الشيخ تسليية لنفسه المتعبة ، وتسكيننا لقلبه الحيران – على حد تعبيره – و تصلح للتمثيل في مناسبات شتى ومواضيع مختلفة ، وهي هوية الشيخ منذ صغره وكثيرا ما كان ينشدها للتمثيل والاستشهاد. واشتمل المؤلف على إحدى وأربعين ومائة صفحة من الحجم الكبير. وانتهى من جمع مادة هذه السلوى سنة 1999

2 – منظومات تربوية للمدارس الابتدائية . تحوي أناشيد للتلاميذ الصغار ، والكثير من قصائدها وردت في الديوان..

3 - سلم الوصول إلى ورقات الأصول .

4 - نظم متن الاستعارات للسمرقندي .

وهي وريقات ست نظم فيها الشيخ ما نُثر في كتاب الاستعارات للسمرقندي ، نظمه على بحر بسيط ، وقد اشتمل على واحد وعشرين ومائة بيت ،

5 - ديوان الدموع السوداء : وهو موضوع بحثنا ، وسيتم تفصيله في الجزء الثاني من هذا البحث.

6 - مقتطفات المنظومة من مؤلفاتي المعلومة.

وهي رسالة اشتملت على سبع وأربعين صفحة من الحجم الكبير. ضمنها الشيخ التليلي بعض المقتطفات التي نظمها من الفوائد العلمية والمسائل الفقهية ، أو ما استفاده من المطالعات ، أو اعترضه عند المحادثات ، فجمع هذه الرسالة إلى جانب الفوائد العلمية ، ومجمل حياته الشخصية ، وهي تختلف عن رسالة مقتطفات من ديوان الدموع السوداء ، الآتي ذكرها .

7 - مقتطفات من ديوان الدموع السوداء.

وهي تشبه السابقة لكن الشيخ لم يقصد جمعها في بادئ الأمر ، وإنما طلب منه بعض الشباب المثقف أن يقتطف لهم من ديوانه بعض القصائد المركزة والعامية لتوضع في المراكز الأدبية والأمكنة الثقافية. فأجاب الشيخ طلبهم شاكرًا لهم حسن ظنهم به .، و اشتملت الرسالة على ثلاث وخمسين صفحة من الحجم الصغير، ضمنها ستا وعشرين قصيدة.

- المؤلفات المنشورة :

1 - مجموعة من النكت العلمية ، والأخبار العالمية ، والحكم الثرية ، والقضايا التاريخية : وقد جاءت غير مرتبة في سبع وسبعين ومائة صفحة من الحجم الكبير والغرض من جمعها تسهيل حفظها أو نقلها أو الاستفادة منها.

2 - المسائل الفقهية - فتاوى -.

3 - رسالة النماذج الهامة لأمثلة المطابقة العامة :

وهذه الرسالة تحتوي على وفيات بعض الأعيان دون التقييد بالزمن ، والغرض منها المطابقة بين التاريخين الهجري والميلادي وتحديد سنة الوفاة.

4 - شواهد الكلمات العامية من اللغة العربية الفصحى :

وهو دفتر يبلغ أكثر من مئة صفحة ، في كل صفحة ثلاثة أعمدة : عمود للمصدر ، وعمود للكلمة ، وعمود لبيت الشاهد. وقد بلغ مجموع الكلمات والعبارات التي رجع بها إلى الأصل الفصيح واستشهد لها بالشواهد من أمهات التراث حوالي 1500 كلمة. وقد دون الدكتور أبو القاسم سعد الله في مجلة

العرب بعض الكلمات العامية التي نقلها عن الشيخ منها(1):

الكلمة	الشاهد	المصدر
بذرق	فقدت ثم دعوت لي بمبذرق متشمر يسعى بغير رداء	العقد الفريد، 7/8
لقمة طعام	ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت وبين أخرى تليها قيد أظفر	العقد الفريد، 12/8
هرت الكلبة (نبحت للتحذير)	ولقد غدوت على التجار بمنبج هرت عواذله هرير الأكلب	العقد الفريد، 56/8
ترهز	ورهب تذرّف العينان منه وأخذ بالذوائب والقرون	العقد الفريد، 133/7
رنق (نظر)	يا مقلة الرشا الغرير وشقة القمر المنير ما رنقت عيناك لي بين الأكلة والستور	العقد الفريد، 266/6
التراب السافي(الناعم)	ولقد ذكرتك يا أميمة بعد ما نزل الدليل إلى التراب يسوفه	النظرات للمنفلوطي 100/2
يرقل (يعرج)	تعطيك مشيا وإرقالا ودأداة إذا تسربلت الآكام بالآل	شواهد المغني للسيوطي 458/1
الخطار (العناد)	عذرت البزل إن هي خاطرتني فما بالي وبال ابني لبون	شواهد المغني 459/1

5 - بدائع الجنان واللسان في غريب الألفاظ ومسائل القرآن :

6 - زهرات لغوية من الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمداني :

وقد جمع فيها الشيخ التليلي بعض المفردات اللغوية من كتاب (الألفاظ الكتابية) لعبد الرحمن بن

1. مجلة العرب، ج11 و12، ص 40. الجماديان . 1426هـ يونيو /يوليو 2005 المملكة العربية السعودية . ص: 750.

عيسى الهمداني ، و اقتطف من كل باب من أبوابه ثلاثة ألفاظ أطلق عليها اسم زهرات ، وجعلها في كراس صغير ، حتى يسهل تداوله والاستفادة منه . خاصة تلاميذ مدرسة النجاح . وجاءت هذه الرسالة في سبع وثلاثين صفحة من الحجم الكبير .

7 – رسالة في بعض الرموز الفلكية والفقهية :

وأصل هذه الرسالة مجموعة من الرموز المختلفة الواقعة في بعض العلوم ليحصر المسائل الواسعة ويسهل حفظها واستظهارها. وتحتوي على فنون مختلفة، علمية وشرعية. فهي تتعلق بالقرآن والفقه ، وعلم الفلك .

8 – الدرّة المعارة لقراء الاستعارة .

9 – تلخيص فقرات من كتاب الأضداد للتوزي .

10 – قصة الشيخ العجوز وزوجته :

وهي قصة خيالية ذكرها الشيخ في الديوان ، والمتأمل لهذه القصة يجدها ترجمة لحياته الشخصية بكل تفاصيلها .

11 – رسالة الدرر الملكية في الدراري الفلكية :

العنوان الذي وضعه الشيخ هو : (رسالة الدرر الملكية في الدراري الفلكية مجموعة من الفوائد الخاصة بعلم النجوم وما يتعلق بها من معرفة الأوقات والأيام والشهور والأعوام والساعات) وهي رسالة في علم الفلك . اشتملت على أربع وستين صفحة من الحجم الكبير، تفيد قارئها بمعرفة الأوقات والتغيرات الزمنية كمعرفة الأيام والشهور والأعوام. وقد فرغ من كتابتها يوم 22 جويلية 1981 م

12 – إتحاف القارئ بحياة خليفة بن حسن القماري :

وهي رسالة في أدب التراجم والسير ، تناول فيها الشيخ حياة علم من أعلام الجزائر، وهو العلامة خليفة بن حسن بن مبارك بن سعد القماري السوفي الجزائري .

تطرق فيها لنسبه وولادته وشيوخه وتلامذته وذريته وتراثه العلمي ، وهي منظومة تحتوي على ما يقارب عشرة آلاف بيت . نظمها في بحر الرجز ، وجاءت في ثمانين عشرة صفحة من الحجم الكبير .

13 – حديث المسامر في صروف ابن عامر .

14 – رسالة الأذكار الشرعية :

وهي من أحسن مؤلفات الشيخ ، حيث عالج فيها ابتداء الأوراد والأذكار الزمانية والمكانية . تظم ستا وستين صفحة من الحجم الكبير وقد ألفها الشيخ سنة 1975 .

15 – رسالة في الأمثال العامية :

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله عن هذا المؤلف (هذا الدفتر يظم 35 صفحة من الحجم الكبير ، وقد رتبها الشيخ على حروف الهجاء ولم يكتب له مقدمة ويبدو أنه كان ينوي كتابة مقدمة له عندما ينتهي

من جمع الأمثال ، أما عدد الأمثال التي جمعها لكل حرف فيراوح بين الصفحة الواحدة في عمودين مثل حرف الجيم والحاء ، وبين الثماني صفحات ذات عمودين أيضا ، مثل حرف الألف ، وهناك حروف بصفحتين وعمودين مثل حرف الباء والتاء ومن الأمثلة التي أوردها لحرف الألف ، والباء والتاء قوله :

- إذا كان في راسك ما يُعبي جمل أنا في راسي ما يُعبي قافلة .
- إذا حبك القمر واش عندك في النجوم .
- بات بلا لحم تصبح بلا دين .
- بات على غيض ولا تبات على ندامة .
- تبديل السُّروج فيه راحة .
- تبَّع بوك ولا يغروك .

أما من صفحة 36 حتى الصفحة 46 من الدفتر، ففيها نصوص نقلها الشيخ - كما قال - من اليوميات أو الرزنامة وجاء بنقول من ابن عروس ومن محمد المرزوقي الذي روى عن علي القفصي شاعر الملحون ، وأخيرا ذكر الشيخ بعض الأحاجي أو الحكايات العامية (1)

16- مجموعة في تاريخ سوف منذ القديم :

يشتمل هذا المخطوط على تراجم بعض الأعلام وسيرهم ، أو تاريخ وفياتهم على الأقل ، كما ضمنه الشيخ الحديث عن عشائر سوف وقبائلها وأصلها وأنسائها ، والشعر الملحون وغير ذلك من الفنون . وهو مخطوط غير واضح أو مرتب .

17- هذه حياتي :

هي رسالة جمع فيها الشيخ كل ما يتعلق بحياته الشخصية والعلمية ، وما اعترضه فيها من سرور أو شرور ، أو سار أو ضار ، ابتداء من ميلاده إلى تقاعده سنة 1972 م . وجاءت في واحد وتسعين صفحة من الحجم الصغير . كتبت بخط ابنته .

تطرق فيها لبعض أعماله الأدبية ، وشيوخه الذين درسوه في قمار وتونس ، مع سرد الكتب التي قرأها عليهم .

قال الدكتور أبو القاسم سعد الله متحدثا عن مؤلفات الشيخ محمد الطاهر : (ألف الشيخ محمد الطاهر

التليلي مجموعة من الأعمال لا يراها هو شيئا ذا بال ونراها نحن كثيرة الأهمية ...) (2)

وإليك الآن ما قاله الشيخ عن مؤلفاته :

1. مجلة العرب. ج 11 و 12. ص: 743/744 - بتصرف -.

2. د/ أبو القاسم سعد الله : أفكار جامعة. ص: 204.

لقصر وبعضها مسائل
في البحث والمسموع والتعبير
لما حواه البحث والتمحيص
لكاتب وسامع وقاري
في ذا وذا وما تراه من أذى
في كتبنا فصيح لا تدار
وفي كل أمر من عظيم القصد
من الذي قدسه مكتوبا
بقلم محطم مُرَدَّه⁽¹⁾

مؤلفاتي جلها رسائل
لقصر كذاك أو تقصير
وربما مرادنا التلخيص
إذ زبدة المخيض في اختصار
فاقنع بذا واغفر لكل من هدى
فليس حقا أنني مؤلف
والله يهدي كلنا للرشد
ويغفر الأخطاء والذنوب
إذ كلها مسودة مسودة

الفصل الثاني

الظواهر المعنوية في الديوان:

- الأغراض الذاتية
- الأغراض الموضوعية

:

ديوان الدموع السوداء يعد من أكبر أعمال الشيخ التليلي، وهو عبارة عن ترجمة وافية لحياته، يقول في كتابه (هذه حياتي): (وكأنني هنا أسجل المجموعة الشعرية التي سميتها مجازاً "ديواناً" وهي مجموعة تحتوي على ما يقرب ثلاثة آلاف بيت وقد تزيد من النظم أو الشعر أكوثره في الإصلاحات والإخوانيات والمدرسيات التي يصور مجموعها حياتي الخاصة في مجتمعي الصغير الأسرة والبلدة والمدرسة)⁽¹⁾. ويترجم ذلك قوله في الغلاف الخارجي للديوان:

إن كنت تطلب مني علماً بتاريخ حالي
وسيرتي في حياتي وبين قومي وآلي
فاقرأ ديواني هذا ففيه ظل خيالي

ويحتوي الجزء الأول من ديوان (الدموع السوداء) على أربع و سبعين ومائة صفحة، وبه ثلاث ومائة قصيدة، والجزء الثاني على أربع عشرة ومائة صفحة، وبه ثمانون قصيدة، وكلها من الحجم الكبير. وللشيخ التليلي ابنة صغيرة هي التي تدون له. وقال الشيخ التليلي في خاتمة ديوانه هذه التوصيات: - قد يكون في بعض الحروف تشابه أو تشاكل فيختلف من أجله المعنى أو يشكل فيجب التأمل قبل الإصلاح.

- قد يكون على الكلمة أو الجملة لطخة مداد أو أثر ماء فيجب التروي في إزالته أو تغطيته أو فهمه حتى لا يؤدي إلى الخلل فيه أو في معناه.

- قد يكون في بعض القصائد أو المقطوعات مبالغات اقتضاها الكلام، أو الشاعرية، أو القافية، أو غير ذلك من الموجبات الواجبة الضرورية، فيرجو صاحب هذه المبالغات من القارئ الكريم العفو والمسامحة، ويطلب منه أن يستغفر له ربه، وأن لا يؤاخذ بما كتبت يده أو بما سطره قلمه في دنياه مما لا يحبه الله ويرضاه.

وقد قسم الشيخ التليلي ديوانه إلى قسمين:

القسم الأول: اشتمل على القصائد والمقطوعات المرتبة على حسب ترتيب الحروف الهجائية، بدءاً بالهمزة وانتهاءً بالياء، وتميز هذا القسم بتطرقه لأغلب أبواب الشعر من فخر، وشكر، وسلوى وشكوى وعزاء، وراث، وإطراء، وهجاء وغيرها من الأبواب.

القسم الثاني: أما هذا الجزء فقصائده ومقطوعاته غير مرتبة هجائياً، ولا ترتيباً اصطلاحياً، وهو يشترك

1. محمد الطاهر التليلي: هذه حياتي..ص: 79.

مع الأول في كونه استغرق أغلب أبواب الشعر أيضا .

وسوف نتناول في هذا الفصل الموضوعات التي تطرق إليها الشيخ في ديوانه الدموع السوداء، وهي موضوعات ترتبط ارتباطا وثيقا بشخصيته وبموقفه من الوجود . فهو إن كان شاعرا فهو معلم ومصلح وموجه وعالم دين، ومن شأن هذه الشخصية أن تنزع إلى أغراض شعرية بعينها تعبر من خلالها عن تجربتها الذاتية .

وشعر الشيخ يثبت أنه لم يعن من الشعر إلا بما يعبر عن تجربته ويفصح عن مشاعره وأحاسيسه ومن ثم فإن أغراضا شعرية معينة لا وجود لها في شعره كالمديح - إلا لقادة جمعية العلماء -، وكذلك لا نجد للهجاء والغزل و المجون ظلا في شعره لعدة أسباب منها دينية وعلمية، وهكذا اقتصر شعره على موضوعات بعينها يجمعها كلها أنها ذاتية، كالرثاء، والفخر، والغزل، والشكوى، والمراسلات الاخوانية، وبعضها الآخر يعبر عن موقفه من موضوعات عامة كالدين، وقضايا المجتمع وأدب الأطفال. وما يميز ديوان الشيخ التليلي أن الكثير من هذه الأغراض متداخلة في شعره بشكل واضح، خاصة غرض الشكوى والنصح والإرشاد والحكمة، وهو ينظم النظام العربي القديم التي يعتمد على تعدد الأغراض في القصيدة الواحدة، مع وجود أغراض أخرى في قصائد منفردة. وسوف نقوم خلال هذا الفصل بفرزها لمجرد الدرس، وسنبداً بعرض الأغراض الأكثر استخداما في الديوان .

أولا الأغراض الذاتية :

شعر الشكوى والعتاب :

يقوم غرض الشكوى والعتاب على تأزم العلاقة بين الأهل والخلان ، فإذا كثر العتاب كان سببا من أسباب القطيعة والجفاء ، وإذا قل كان مدعاة للألفة والصحة(1) ، ويمثل شعر الشكوى والعتاب في ديوان الشيخ التليلي ملمحا شخصيا بارزا ، و محور الكثير من القصائد يدور حول عتابه لأهله وأصدقائه ، ويشكو ظلم الزمان وقهره ، كما يشكو فقره وضعف حاله ، وهي صور فنية صادقة لمعاناته ، وتأرجح مشاعره بين الإيمان بالله ، والشك واليأس ، ورتاء الذات حيناً آخر .

يعاتب الشيخ التليلي ابنه جمال الذي انتظره طويلا ليتحصل على الشهادة ، فقال :

قالوا مشيبك قد بدا	في بكرة العمر الأشب
قلت المشيب له هوى	ولكل بادرة سبب
حاولت إدراج العلى	في يافع طلب الأدب
فأذفته من كل ما	يجلو من العلم الضرب (2)

وعندما أراد الفتى مزيدا من العلم ، أرسله والده إلى فرنسا مع صبية البلد ليتعاونوا في الدراسة لكن الفتى :

فإذا الفتى ولدي المثق	ف في الأزقة يرتقب
وإذا الفتاة من ابنة الإ	فرنج تكشف عن عجب (3)
فابتعد عن العلوم والدراسة ، واهتم باللعب واللهو :	
وإذا المدارس عنده	دور الخرافة والكذب
وإذا المعارف ما تلق	ف في المخامر واللعب
وإذا تذكر أرضه	وبدا له أن يقترب
ويقول قومي جامد	ون كأنهم قطع الخشب
متمسكون بدينهم	كي لا يمسهم اللهيب (4)
ويبدي الشاعر حزنه قائلا :	

أما أنا فلقد جنيت _____
ت من الشجيرة مر حب (5)

1. ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجليل بيروت لبنان. ط.5.س.1981. ج.2. ص:160.
5.4.3.2.. ديوان الدموع السوداء ج.1. ص:16. -17 - 18/17 - 18.

وليس من عادة الشيخ التعبير المباشر عن حياته الأسرية ، خاصة علاقته بزوجته ، فهو عادة ينظمها بشكل قصص خيالية أو بطريقة المزح والترفيه ، ولكن في قصيدة (نفثة مصدر بين السطور) يظهر ضيقه وانزعاجه من زوجته الثانية ، وهي القصيدة الوحيدة في الديوان التي تعبر بشكل مباشر وصريح . لقد قلبت زوجته موازين البيت ، فنعتها بالأفعى قائلاً :

دخلت بيتي كالعدو العاتي
وتقدفي السموم في القنّاة
مفعمة بالبغض والتترات
وشبهها بالليثيم المخرب قائلاً :

لتهـدمي بنيانه المواتي
وتعبثي في البيت بالأداة
مملوءة بالحسد والأداة (1)
ويخرب البيوت بالشتات (2)
وتحدث معاتباً بعض الإخوان على جفائهم :

أيا من لا أسميه احتـراما
أسائل منك ذالـب خبـير
على رسل الصداقة والجوار
على النبأ العظيم ولا أوارى (3)

ويسأله سبب زيارته لقمار ، هل هو لحضور عرسه الثاني ؟ كما يسأله عن سبب الهجر ؟ ويطلب منه أن يحكم عقله ، ويسمع للطرفين ، ثم يحكم بالعدل :

وقد حيرتني وأثرت سـخطي
أبيت وتعلم ما أقـاسي
وما تلك الوسوس غير طيف
أثار غبارها مني إليـكم
وزدت نكاية في عين زار
من الأوباش أوباش النجار
يريني وجهه عند افتكار
هواء الصمت عن عمل مثار (4)

كما اشتكى الشيخ من الزمان وجفوته ومعاداته قائلاً :

أسأت إلي في سر وجـهر
زعمت بأنني يا دهر جـان
وأغربت اللثام على احتقار
فعاقبت المسيء على اجترار (5)

ويخاطبه مخاطبة الإنسان ، يشكوه مرة ، ويهجوه أخرى :

وددنا لو نصحت ولم تعاقب
قبيل النصح أو بعد اعتذار (6)

ويعدد حسناته التي قام بها لكن الزمان عاقبه من أجلها ، فهو جلا د قاس :

ولم أذنب إليك ولا لأهلي
سوى أنني دعوت إلى فخر (1)
ويشتكي إليه في قصيدة أخرى بالنيابة عن أهل البلدة قائلا :

يا دهر إنني بالنيابة مشتك
أشكو إليك خصاصة وتضررا
فانظر بعينك في ملامح أهلنا
تجد الدليل على الوجوه مصورا
فاقرب إليه وجس نبض عروقه
تجد الحياة وشيكة أن تصدرا (2)

والشيخ لم ينس هذا الظلم ، فكلما حاول الصعود إلى المجد والعلو ، وجد الدهر له بالمرصاد ، فالدهر ملك الفرس ، والناس المجوس ، لذلك أخذ ينصح الناس قائلا :

لا تصحب الدهر فهو كسرى
والناس من جنسه مجوس
بل لا تعاد الزمان يوما
وأنت في قبضة الرئيس (3)
ثم أخذ يمدح ليلة الخميس التي جمعته مع أصدقائه المشايخ :

يا ليلة من بنات دهر
غراء في حلية العروس
يا ويحها لو درى أبوها
أنها تحفة الجليس (4)
وعاب تملق العامة ونفاقها قائلا :

قال لي أنت أيها الشيخ شيخي
وأنت والله منطقي ولساني
وكانت ردة فعل الشيخ شديدة الوقع في النفس ، لأنه لا يبالي بالمخالفة إذا كان ذلك لا يرضي ضميره :

أنت إبليس فالتمس غيري غرا
هم كثير عمي البصيرة حول
ذل شعب من أهله أنت يا هـ
ذا وماتت فروعه والأصول (6)

وقد تنقل الشيخ التليلي بين المدن الجزائرية بحثا عن الرزق ، منها عنابة وبسكرة وخنشلة . فعندما حل بعنابة لم يجد مسكنا يستأجره ، وبقي شهرا كاملا في نزل حفيان مسعود (7) . وأخذ يشكو الوحدة والحشرات قائلا :

1.4.3.2. ديوان الدموع السوداء : ج 1. ص: 67 - 66 - 149 - 150/149

6.5. المصدر نفسه ج 1 ص : 111.

7. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي . ص: 73.

أبيت في الفندق المشحون منفردا
لا من أنيس سوى الناموس يلسعني
في وحشة من ظلام الليل ساهرة

أصارع الهم والآلام تصرعني
والبق بالفرش والبرغوث يقرضني
وربما جاءني الشيطان بالفتن (1)

ولأن خلل المحيط لا يدع مجالاً للاستقرار وللطمأنينة، ويظهر بعد ذلك التوتر النفسي والقلق والخوف مجتمعة، إذ يشير القلق إلى حالة من عدم الطمأنينة وعدم الثقة بالمستقبل والخوف من المجهول. طلب المساعدة لاستئجار منزل حتى يستقر، وينصرف إلى تحضير الدروس بإتقان فقال:

فهل لكم يا سادتي بيت بأجرته
آوي إليه بأولادي وأمهم
وعندها يستقر الفكر منصرفا
إلى الدروس فأملها بلا شحـن (2)

وعندما عاد الشيخ إلى قمار، فتح مسجد الطلبة ليدرس فيه النشء، وينشر العلم بين أهله، وكذلك معهدا لتعليم القرآن والعلوم الأخرى، والهدف من ذلك خلق نشء جديد متعلم فقال:

لبثت والله حسبي
رضيت منهم بقوت
أريد خيـر جهاد
إلى العيال كـزاد (3)

لكن الرجال الذين لا يريدون للعلم أن ينشر وقفوا في وجهه، وأعلنوا الحرب عليه، فاضطهدوه ونكروه، والسبب في ذلك أنه ليس تابعا لهم:

ولم يكن غيـر أني
أبيت طاعة نـذل
فكان ما كان مني
ومـنهم في عناد(4)

وقصد الشيخ من رواية القصة تحكيم العدل:

فتلك قصة قـومي
نشرتها بين نـاس
ليحكموا أو يقولوا
وقصتي في التعادي
على بساط الحيات
مقالهم في انتقـاد (5)

و لزم الشيخ التللي بيته عندما آذاه الناس، وأغلق بابه إلا على المقربين منه، فوجد في الكتابة متنفسا، وأخذ يشكو قائلا:

بالأمس كنت من العيال مفلسا
فبسطت كل البسط كفي للذي
واليوم صرت من العيال بكثرة

ومن الشراء مدثرا ومدرهما
سأل النوال وللقراية مكرما
وفقدت فلسا قاتتا أودرهما (1)

لقد كانت الحاجة هي التي أقعدت الشيخ حزينا مهموما ، فأخذ ينصح صبيته بالتقليل من الإنجاب ، وهو في داخله شديد التألم قائلا :

ولكم أصابر بالتعلل صبيتي
وأسوق من أي الزهادة جملة
وإذا اللسان أقام بعض أدلة
قام الفؤاد إلى الدليل محطما (2)

والحاجة نفسها هي التي أضعفت الشيخ وأنهكت قواه ، وأفقدته كل ما يملك ، فباع النخيل وكتبه من أجل إعالة أبنائه ، فكتب و نبرة الحزن تقتله والدمع يخنقه :

بعتك اليوم واشتريتك أمس
بعتك اليوم والدموع جوار
يا كتابي وأنت في الكل أنسي
عند بيعك يا كتابي ببخس (3)

وهي قصيدة رثائية باكية على كتابه ، ونشرت له القصيدة في مجلة (الثقافة الجزائرية) بعنوان (وداع كتاب) ، وقال يهجو الفقر الذي كان سبب بيع الكتاب :

مسنى الدهر وهو داء عضال
بعتك اليوم يا فداء صغار
بعذاب ولا كشيطان مس
أسكت الدهر منهم كل حس (4)

ويطلب الشيخ التليلي عدم لومه من خلال قصيدة (الوحدة خير من جليس السوء) ، لأنه مقيد بضوابط الزمان وغدره وقهره ، وقد تعب من الصمت فثره على بساط من الحزن والأسى قائلا :

يا لائمي تفننا
فلا تلم مقيدا
وعاذلي تحننا
وملجما مرسنا
لقد تعبت زمننا
داريت فيه الزمنا (5)

انقطع الشيخ عن العالم ، وأغلق كل الأبواب عندما انعزل في بيته مستأنسا بوحده ، فكانت له الكتب وطنا ، والدفتر بيتا ، ولم يعد يعنيه رأي الناس بالمدح أو الذم :

ولدت بالبيت الذي
أغلقتة من كل من
مستأنسا بوحدي
متخذًا من مكتبي
نشأت فيه أزمننا
أتى يريـد الفتنا
وقد نسيت الحنا
ومن كتابي وطنا (1)

وبقي طيلة حياته متأسفا على حال قمار، فظلمهم لا يفارق ذهنه، رغم علمه بأنه ليس وحده المضطهد، وإنما هو حال كل المصلحين الذين أرادوا الثورة ضد الظلم، وأرادوا تنوير عقول الناس في الجزائر كلها، فحاله من حال الإبراهيمي وابن باديس، وعبد القادر الياجوري، وعمار بن لزعر والحفناوي وغيرهم :

إلى كم يا قمار أعاني منك
سعت وقد سعى قبلي أناس
وزارك في القديم هداة خير
فمن أهليك أشباه الصلال
لجمع الشمـل في آت وحال
فنب الهزء منك عن السؤال (2)

لكن نفس الشاعر طيبة، وحبـه للبلاد كبير يفوق ظلمهم، فهو يسأل الله لهم الخير، وأن يبعد عنهم كل شر :

فيا رب الهداة أعن هداة
وأبعد عنهم من كان منهم
وقد أثمر طول عمر الشيخ عن معرفة دقيقة بالناس ، وتكشفت له نواياهم فقال :
جريت قومي قديما
إن كنت في الضيق فروا
وناصبوني عدا
وكرهوا في أهلي
على الإصلاح في وادي الرمال
يدس إليهم سم اختلال (3)
أيقاظهم و النياما
وألـبسوني اتهاما
وقارعوني خصاما
وبغضونني انتقاما (4)

ويذكر من عنت الناس (أنهم كانوا يستفتونه فإن وافق رأيه ما يريدون احتجاجوا به وإن خالفهم شنعوا عليه وأذوه) (5) وهذا يوضح قوله :

وقالوا فـيَّ وقالوا
من غير ذنب جنته
مما يعـد حراما
يداي فيهم صـداما (6)

1. ديوان الدموع السوداء ج.1.ص: 127.

3.2. المصدر نفسه ج.2.ص: 85 - 85 - 76.

5.د/ أبو القاسم سعد الله : مجادلة الآخر . دار الغرب الإسلامي . ط1 س 2006.ص: 297.

6.ديوان الدموع السوداء ج.2.ص: 76.

ورد على هجاء البعض بأسلوب لا يخلو من السخرية ، فكان بشكل حوار :

قالوا هجاءك عصيــــفر
قلت الذي في أنفه
قالوا نعم ذاك الذي
قلت الذي في طوله

والشاعر يلجأ إلى الشعر ليعبر به عما يريد :

أم بالشعور أوضح المستــــورا
ومن الشعور بلاغة لو أدرجت

كفن الحروف لظلت المقبــــورا (2)

ولا يجد إلا الله فيرفع كفيه بالدعاء أن يؤانسه ، ويأخذ بيده :

يا ربنا أنــــت الولي
فاختر لي ما فيه الرضا
وأنس رب وحشــــتي
فخذ إلهي بيــــدي

أنت الــــذي تختار لي
إلى انقضاء أجــــلي
ووجدتني في منــــزلي
إلى الطريق الأمثــــل (3)

الوصف :

تحدث الشيخ التليلي عن أطوار حياته المختلفة ، وبدأ من صغره ، يحكي عن الأحداث التي مر بها ، فشبه حبه بمشي الزواحف المعروفة في البلدة ، وهي قصيدة مشطورة ، قال فيها :

غداة أدب ديبب النـمال
فمن عقربان إلى حية

وكل الزواحف حولي تجر
وحولي تدب ظــــروف القدر (4)

بدأ الطفل يكبر ، ويتعلم الكلام ، بينما والده منزوع من كثرة بكائه ، فيفر الصغير إلى والدته التي تحضنه وتقبله وتبعده عن كل ما يضره و هنا تظهر قدرة الشاعر على دقة الوصف :

فتلهب خدي من لثمها
وعندما مرض الصغير جن جنونها وتمنت لو تفتديه بروحها فقال :

وتهرب بي من هــــوام تضر (5)

ولو أنني عندها أشتفي
فتفدي حياــــتي بنور البصر

3.2.1 ديوان الدموع السوداء ج1.ص:124 - 90 - 80.

5.4 المصدر نفسه ج2.ص: 34

وتخلع إن تستطع عمرها وليس لها خلع ذاك العمر (1)

ولأن الخرافات والشعوذة قد سيطرت على عقول الناس عامة ، كان لوالدته من ذلك نصيب ، فأخذت تلقي عليه التمايم لتبعده عن الأذى وظلم القدر فقال :

وتلقي التمايم في زعمها عليّ لآمن بطش القدر (2)

ومر الزمن وكبر الصبي ، وأخذت منه والدته ، فشعر بوحدة وضيق شديدين ، لكنه لم ييأس وواجه معترك الحياة ، فذاق صنوف العذاب من الناس بين مكر واحتيال فقال :

فأعثر بالمكر والاحتيال من الناس في الجب أو في الحفر (3)

ووصف الشيخ نفسه عندما أصابه الزكام فقال في قصيدة (ليل الزكام) :

طال ليلي بالزكام وتغشاني السقام
لم أذق طعم المنام بل تذوقت الحمقام
وطوت جسمي فهال أمرها مني العظام (4)

وعندما مرض تذكر الموت والفناء ، فحمد الله على صفاء نفسه من الشرك فقال :

أموت وما في القلب مثقال ذرة من الشرك أو ما قد يؤول إلى الشرك
وأعلم أني لا محالة صائر مصير الناس للفناء وللفسك
ورحماء إن ألقى عليّ جناحها نجوت وإلا فالمصير إلى الهالك (5)

ويصف الشيخ التليلي حياته التي مرت صورها أمامه قائلاً :

حييت فمست بهذي الحياة وما المموت إلا لحي عظمات
لذاك جمعت نقاطاً تهيم مبعثرة في بساط الشتات
وسجلتها في سجل صغير وعنونه بـ (سجل الحياة) (6)

ولما شب الشيخ ، أرسله جده للدراسة في تونس ، وعندما وصلها ورأى جمالها ، شكر الله على خروجه من سوف ، وأخذ يصف أهلها وجوها وبيئتها فقال :

حمدت إلهي يوم من بنعمة وأخرجني من سوف من بلد العفر

1. ديوان الدموع السوداء . ج.2. ص:34.

3. المصدر نفسه. ج.2. ص:35.

4.5.6.. المصدر نفسه ج.1. ص:117 - 100/99 - 32/31.

ترى أهلها فيها كأن وجوههم
فمن نحسهم عند اختيار مقامهم
وليس لهم من مورد غير قطرة
وأرياح نحس قد تهيج عليهم
زواحفها لا كالزواحف لسعها

بها غبرة الأموات بالجوع والفقر
حلولهم أرض التوحش والقفر
من البئر بعد الطي للبئر والحفر
فتدخل في فرش وتدخل في قدر
أليم يؤدي من تمس إلى القـبر (1)

لكن الشيخ سئم من حياة الحضر في تونس واشتاق لبلدته ، فقرر العودة إلى قمار ، وفي طريقه أخذ يصف ما شاهد فقال :

ذهبت في التـو إلى القطار
رجعت بعد فارحـا للبيت
ثم رجعت بعد للمحطـة

وقد جهلت نافـذ الأقدار
لحمل زادي في انتظار الوقت
ثم ركبت حاملا للشنطـة (2)

لكن من فرحته أخطأ في القطار ، واضطر إلى الانتقال لمدينة أخرى ، وتنقل بين القطار والسيارة حتى وصل إلى الوادي وكان الجو حارا ومقفرا ، فقال :

أصابنا من هـذه المسافة
فمرة ترانا في سقيـفة
نزلنا بالغوط لحف الرحـل
وهكذا مـن قرية لقرية

من النـزول والركوب آفة
ومرة كالطير حـول جيفة
بنزع شيء من متاع الحـمل
بقدر ما دفعـته للكرية (3)

ومنذ عودته من تونس أحس بأن الدهر يضمـر له الشرور ، فقال في قصيدة (احتضار الأمل المريض في البلد البغيض) :

فلقد أنبأني الدهر بـذا
فرحا بالقفر والفقر كـذا

منذ فارقـت جهولا تونسـا
يحسن المغبون مـن حيث أسـا

ويُسي حيث أتى بالحسن (4)

ويصف الطرق التي علم بها أهل القرية القرآن وعلومه ، وأبعد عنهم الجهل والتخلف . لكنه تأكد أن العلم وحده لا ينفع ، وإنما يحتاج صاحبه إلى المال لاستكمال الفائدة. ورغم كون الشيخ يعمل ببدنه

1. ديوان الدموع السوداء ج.1 ص: 80/79.

2. المصدر نفسه ج.2 ص: 17- 19

4. المصدر نفسه ج.1 ص: 133.

رافعا الرمل على ظهره(1) ، فهو لا يتوقف عن الوعظ والإرشاد وتقديم الدروس للناس ، لكن بعضهم أضر له الشر ، وساعده الدهر على ذلك ، فقرر الشيخ الخروج من البلدة قائلا :

لكن الدهر بعكسي كلفُ
صنني بالرغم من كل هدفُ
وتحداني بما لا أصفُ
وابتلاني بالذي فيه التلفُ

فهجرت رغم أنفي وطني

أطلب الشيء الذي في فعله
لامني من لست أرضى عذله
وهمومي كلها من أجله
فإذا شـاهـد طرفي طفله

لم يذق طعم هنيء الوسن (2)

وخرج الشيخ من البلدة يبحث عن عمل بين القرى ، فوجد من فرحوا به وأعطوه سكنا في مكان عمله ، لكن لم تطل فرحته ، فقد أوقفه الاستعمار الفرنسي . والقصيدة تجمع بين الوصف والشكوى العارمة التي أتعبته فلا فرق بينه وبين السجين عندما ينعدم الحظ ، أو بينه وبين الدهر ، فكلاهما صلب وقاس لا يلين .

لقد كان الشيخ التليلي طيلة حياته يتطلع إلى التحرر من القيود الاجتماعية التي تخنقه ، وأخذ يبحث عن الحرية التي أطلق عليها اسم (الشمس) فقال :

إني خرجت بليـلة
عمياء ليس لها بصـر
من بطن أعماق الـدهـ
ور إلى الوجود على قدر
قلبت طرفي في الـدجـي
وأجلت قلبي في الغيـوب
فلمحت في الأفق البـعـي
مد بصيص نور في الرسـوب (3)

لكن هذه الشمس ما هي إلا وهم توارثه الأجداد ، ومع انتشار الجهل انقضت عليه الوحوش تنهشه ، لكنه قرر مواصلة المسير ، ونشر العلم الذي تعلمه ، لينير به ظلمة الكون ، وقد تحقق له ذلك ، وظن أن قيوده انكسرت ، وبدأ يعدد أهدافه وغاياته ، فإذا بالشمس قرص أسود زاد من عنائه ، وأحبط عزيمته ، فقرر الانزواء في بيته :

وحسبت يا شمس الإضـ
وذكرت في نفسي الطمـ
لكنني لما لمحت على محيـ
ءة أن قيدي لن يعـود
وح لنبيل غايات النفوس
ك السـواد

1. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي .ص: 48.

2. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 124- 61/60.

غفت الشموس بأسرها ولبست إذ ذاك الحداد

وأمرت نفسي أن تنأ م على الكآبة والتكاد (1)

وهذا الانزواء ليس قصد الهروب، وإنما هو ابتعاد عن اللغو، واتقاء للسهام التي لم يتوقف الناس عن رميها به، حتى استأنس العزلة ورضي بها، فمن جاءه زائراً مسترشداً، رحب به ووجد عنده الجواب، أما من جاءه مثرثراً، صده دونما حياء، وعليه أن يتقبل - الزائر- ذلك :

لذا ارتضيت وحدثني وعزلتي ضمن الخبا

فمن أتاني زائراً زورة خل مجتبي

أقل له في غبطة يا مرحبا يا مرحبا

ومن أتاني يبتغي ثرثرة لا أربا

أقل له مصرحاً إليك عني هرباً (2)

وكان نتيجة عزلته وبقائه في غرفته، غلق الباب على كتبه، فباتت حبيسة كأنها في لحاف أسود بعيدة عن أعين الناس، فأخذ يصفها قائلاً :

رأيت بنات فكري في لحاف من الأوراق مسود دكين

مجدرة الوجوه ملطخات كأن بثورها قطع العجين

مجرحة الحدود مقرحات مدمعة المحاجر والجفون (3)

وعندما يسألون عن سبب الانعزال، ترد الكتب قائلة :

فقلنا لقد ولدنا ناقصات وأهملنا أطباء الجنين

نشأنا هكذا لسواد حظ بسجن البيت نقنع بالأنين (4)

كما تبين خوفها من النقد قائلة :

فأحببنا التستر والتخفي وأخفينا الوجوه عن العيون

وليس لنا من الوصاف وصف يحببنا إلى الرجل القرين

فلا تخطئ ظنونك ترجو منا أصيل النسل من ولد هجين (5)

ويصف الشيخ حاله في ساعات ضجر وقلق عند الكبر، فقد كره حديث الناس والكتب، ومال إلى النوم

2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 62- 22/21.

5.4.3. المصدر نفسه ج2.ص: 78- 79/78 - 79.

الثقيل فقال :

كرهت حديث الناس في آخر العمر
وعفت حديث النفس من حيث أنه
فملت إلى النوم الثقيل لعـلني
وعندما كبر الشيخ تراحت الأمراض على جسده ، فزادت سكونه واندثاره ، كتب يصف حاله :

جزت الثمانين عاما
فقد دهنتي الدواهي
ففي الدماغ طنـين
وفي العيون غشـاء
وما بلغت مراما
فألبستني السقـاما
أحس منه اضطراما
رد الضياء ظلاما (2)

وقال في قصيدة أخرى عندما أصابه القلق والتضجر لما آل إليه حاله ، حيث لا يسعه إلا تذكر الأيام السابقة ، فأخذ يفتخر واصفا نفسه قائلا :

وقد كنت أعقل قبل المشيب
وقد كان عقـلي فتيا نقيا
فها أنا اليوم عند المشيب
أرى كل شيء بعين ارتياب (3)

والشاعر في هذه الأبيات يصف حاله في صغره ، ويقارنها بمشيبه الذي يملؤه الضعف والفتور. ويتمنى عودة الأيام الخوالي قائلا :

فيا ليت أمسي يعـود إلي
فأشكو إليه صنوف العذاب (4)

وبعد أن وصف الشيخ شبابه ، يفتح عينيه على واقعه المثقل والمتعب :

فقلبي عليل وجسمي نحيل
وطرفي كحيل بداء الذهاب (5)

وعندما عجز الشيخ لزم بيته وابتعد عن الناس إلا من جاءه يطلب تفسيراً أو جواباً ، يقول الشيخ :

لزمت للحال بيتي
وربما أزعجـتني
وقد حمـدت المقاما
مسائـل تترامي

3.2.1. ديوان الدموع السوداء ج2:ص:25- 74/73 -79.

5.4. المصدر نفسه ج2:ص:80.

من سائل يرجو —ني جواب ما قد تعامى (1)

وفي آخر الجزء الأول من الديوان حصر الشيخ التليلي حياته في عشرة أحداث ، مقسمة إلى قسمين ؛
خمسة حسنة ، والأخرى خلفت وراءها الندامة والخسر :

فخمستها التي درت فحفظي	لقرآن توسع فيه ذكرى
وتطويعي وتعليمي وحجي	ونيلي للتقاعد عند كبرى
وخمستها التي كرت وفرت	وكرهت الحياة لنفس حر
زواجي دون مشورة لأهلي	بأول زيجة وقعت في صغري
هروبي من مجاورتي وعوني	لأهلي والتباعد دون عذر
وبنياني المساكن فوق داري	لمن لم يرض إيوائي وخيري
ويبعي دون مسغبة لـنخلي	بإجحاف وبخس بيع غر
وأفضعها ذهاب الرأي عني	ونسياني لقرآن وذكر (2)

ثم أوجز في قصيدة أخرى مراحل عمره كلها ، من ولادته حتى عجزه وكبره ، وفي الأخير يسأل الله
المغفرة والرضا يوم القيامة .

الرسائل الإخوانية :

تمثل أشعار الشيخ التليلي ورسائله الشعرية إلى أصدقائه وأقرانه صورة دقيقة وجليّة عن علاقات
القربى والصدقة وأخوة العلم والدين ، وهي انعكاس طبيعي لثقافات العصر. لذلك تأخذ جزءا كبيرا
من الديوان . لكن الملفت للانتباه أن كثيرا من رسائله مجهولة المرسل إليه ، وهذا أسلوب الشيخ التليلي
في الديوان ، فالعتاب والشكوى والرسائل كلها مجهولة المرسل إليه . وأصدقاء الشيخ التليلي منقسمون بين
مكة المكرمة وتونس ، وهم يمثلون الأكثرية ، وهناك أيضا بسكرة ، وعنابة والجزائر وقمار ، وتنوعت
إخوانياته في أغراضها وموضوعاتها وفق الأحداث والظروف ؛ بين شكر وشكوى وعتاب ورجاء وتهان
وعزاء .. وقد خلف الشيخ في هذا النوع من الكتابة ما يربو على الستين إخوانية ، وكان لإخوانه في مكة
المكرمة نصيب الأسد .

كتب الشيخ التليلي لصديقه بلقاسم بن الساسي (3) أربع رسائل ، منها همزية ضمنها مائة و تسعة وثلاثين
بيتا بعنوان (إلى أبناء العمومة) ، شملت عدة أغراض منها الشكر والعتاب والتوضيح ، واستهل القصيدة
بالشوق والسلام الحار الممزوج بالعتاب قائلا :

1. ديوان الدموع السوداء ج2.ص:75.

2. المصدر نفسه ج1.ص:166/165.

3. الشيخ بلقاسم بن الساسي . ولد سنة 1889. ينظر محمد الطاهر التليلي : مجموع مسائل تاريخية متفرقة تختص بسوف وأهلها في القديم و

الحديث.ص:94.

عسى الأيام تجمعنا جميعا
بطينة حول مائدة الهناء
قطعتم حبل وصلتنا إليكم
بما أبدىتموه من الجفاء
فما بال المطيب من قديم
تدنس عندها بالكبرياء (1)
ويلومه على التهاون في نقل أخبار بني الأعمام ، والاكتفاء بالتفاخر والتحدث عن غنى مكة وأهلها ،
لكن لم يرسل منها إلا :

وتمرات الحجاز وكحل عين
وكتان وداد أو قباء
وأترية البقيع وكل هذا
من البدعية الداء العياء
وإن طلبوا فما طلبوا عزيزا
كفرداش وغربال النساء (2)
وارتفعت نبرة العتاب على الذين يتركون بلادهم للظلم والجهل ، ويرحلون إلى مكة المكرمة دون تحديد
شخص بعينه :

عجبت لعالم فطن نبيه
يعد من الفطاحل في الدهاء
له علم ومقدرة وجاه
وصيت في النضال وفي الغناء
عجبت لعالم في مثل هذا
يفر إلى المشارق في انزواء (3)
ويعاتب صديقه (محمد سعد الوادي) على الكتب الكثيرة التي أرسلها إليه ، وأثقلت كاهله :

تقاطرت إلينا
رسائل وكتب
تكررت هدايا
فهل لكم فكاك
وقد عتبت يوما
يحملها الضباب
ألفها الصحاب
من نحوكم عذاب
من أسرها يعاب
ولم يفد عتاب (4)
والناس تذم الشيخ إن سكت أو شكر ، لكنه يملك نفسا أبية ، لا يقبل أن يعاب :
والطبع مني ياأبي
أقول ما أراه
أن يسدل النقاب
ولتقم الكلاب (5)

1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص:02.

3.2.المصدر نفسه ج1.ص:04.

5.4.المصدر نفسه.ج.2.ص:31-32.

وكتب الشيخ التليلي رسالتين إلى (عبد القادر الزباني) بتونس يعاتبه فيها على الهجر ، وعدم الرد على رسائل الشيخ قائلا :

أيها الزباني زيّن
واكتب العتب ودون
فملام الشيخ هين
والشيخ لم يفقد الأمل فأخذ يلتمس الصفح منه قائلا :

طالباً عفوا وصفحا
أفلا يلقي حميما
كن عطوفا وابن ماء
من صديق معتمد
واسع الصدر حمد
موردا منه أرد (2)

والشاعر شديد الغيرة على بلاده ، حريص على تطويرها والنهوض بها ، لكنه يجد الناس له بالمرصاد ، يعيبون تمسكه بالدين والدفاع عن الوطن ، فكتب رسالة لصديقه في السجن (3) ، يشكوه ويعيب اهتمام الناس بالملهيات :

أنتم إذن نسوة في البيت قابعة
لا فرق بينكم يا قوم في صفة
من للحواضر أو من للنساء بها
ويبين له مكانته في نفسه قائلا :

هم النجوم وأنت البدر بينهم
أبا الرشيد تقبل مني تذكرة
قوم سمعنا بأن الضيف سيدهم
قداحهم بخصال الحمد فائزة
وربما كنت ماء سائغا لصدي
تحدد الوصل بين الكف والعضد
وأنهم سادة للسادات العمدة
أقداحهم بصفات الجود في مدد(5)

وقد نظم صاحب له من مكة المكرمة رسالة عتاب ، فرد الشيخ التليلي بعتاب مماثلة :

وبعد فاعلم بأني
بلغت منك السلام

2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 54- 55/54.

3. التقيت بالسيد عبد الرحيم سعد الله في بيته - وهو صديق قديم للشيخ التليلي ومهتم بآثاره - أخبرني أن الرسالة كتبها للشيخ عبد القادر الياجوري عندما كان في سجن بسكرة.

5.4. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 35/34 - 36.

ملفلف بالسهم

وفي القميص عتاب

وعد عند الملام (1)

يا لاثمي لا تلمني

وأخذ يشكو الهموم وقسوة الدهر الذي أخذ ينتقم منه ، فضاع فكره ، واختلطت أقواله وأفعاله بين الصحيح والخطأ :

فمشيتي في الظلام

فلمست والله أدري

فهو الصديق الملام (2)

فمن يلم بعد هذا

كما كتب له أحد الأصدقاء من مكة رسالة أخرى ، ضمنها شكوى من جفوة الزمان وجفاء الإخوان ، فرد الشيخ التليلي على الرسالة بنفس البحر والروي ، وضمنها أبياتا من قصيدته قائلا :

شعرا من النظم حرا

لقد بعثت إلينا

وما راعوا لك قدرا "

"إن سامك الناس غدرا

بل سامني الدهر ضدا (3)

فقلت كلا تمهل

وإلى مكة المكرمة كتب الشيخ التليلي لصديقه (محمد سعد الوادي) ردا على رسالة اشتملت مقطوعات شعرية ، و كان جواب الشيخ مشابها ، ويشكره في مقدمتها على الكتب التي أرسلها له (محمد سعد) ، ويشكوه من المرض والناس :

مزم من قد بدوت عليلا

أنا أشكو من السقام وداء

لا أرى فوق وردتي إكليلا (4)

ما أرى في الورود إلا اشتياكا

ونظم الرسالة في مقاطع ، يشكو طفولته المعذبة ، وشبابه ، حتى وصل إلى المشيب :

من السواء منقطع القرين

وعام الشيب يعدل كل عام

بميلادي ولكن بالأنين (5)

ولست بحاسب سني وعمري

وكتب له رسالة أخرى يشكو الناس وظلم الدهر :

وحزوني عن الجميع نفاقا

كلما قلت سوف أخفي همومي

حيث كنت كانت السباقا

لاحقتني الهموم في كل أرض

3.2.1 ديوان الدموع السوداء ج.1 ص: 70/69 - 70 - 72.

5.4. المصدر نفسه ج.2 ص: 40.

وأرى الحزن لا يفارق ظلي كأن بيني وبين حزني وفاقا (1)

وأرسل (محمد سعد) رسالة علمية مطولة إلى الشيخ التليلي مطرزة بأبيات منثورة ، ورد الشيخ بمقطوعة يعارض ما جاء فيها ، ويذكره بأيام الصبا المتعبة :

لا تذكرن الصبا وأيام كنت هنا فإنما كنت في هم وإكـدار
فإن جهلت الصبا وأيام كنت هنا فانظره في صبية في ملعب الدار (2)

أرسل الشيخ التليلي رسالة إلى صديق في مكة المكرمة ، وطلب منه أن يدعو له في البيت الحرام لأن دعاء الصالحين مستجاب ، ومسح على شكواه حزن مرير صادق ، قال :

كل ذهني وماتت الأفكار وتناهت من الدنيا أعمار
عاد حلو الحديث في الذوق مر وجميل الكلام في الأذن عار
ويمني تقاصرت عن يـراعي فهي رعيـدة وفيها انبتار (3)

أظهرت الأبيات ضعف الشيخ وتعبه ، وزاد على ذلك عدم قدرته على الكتابة التي كانت سلواه الوحيدة بعد أن عزل نفسه في بيته :

تحية من غريب في موطنه به من الناس في أفكاره قلق
يعيش في عزلة بالبيت تغمره تحوطه الكتب والأقلام والورق (4)
وتطرق للصحراء فأخذ يذمها قائلاً :

فنجدي جفاف حصبه من جهنم فما تربه مسك ولا العود عنبر
ولا روضه روض تعهده الحيا فكان له زهر أنيق ومنظر
بل الشمس تسقيه الحميم ولا ترى بصحرائه غير الرمال تكسر (5)

ومن مظاهر توطد عرى الصداقة بين الشيخ وأصدقائه ، التي تبعث في نفسه الاطمئنان والراحة ، وإن كانت تصور ملامح التعب . مقطوعة أرسلها لصديق ضم إليها صورته سنة 1946 :

اقرأ ما شئت في ملامح رسمي ما أنا فيه من حياة القفار
فيناديك لا محالة رسمي إنه الطاهر التليلي القمـاري
غير أن الظروف قد غيرتـه فغدا وجهه حليك الغبار (6)

2.1. ديوان الدموع السوداء . ج.2. ص: 43 - 33.

4.3. المصدر نفسه. ج.2. ص: 36.

5. المصدر نفسه. ج.2. ص: 41/40.

6. المصدر نفسه ج.1. ص: 89.

كما أرسل لصديقه صورة أخرى له مع أبيات شعرية قائلا :

عقدان من عمري الفاني قضيتهما
والنصف بعدهما في جنة القاري
واليوم من جنة الفردوس أخرجني
هم المعيشة مضطرا إلى النار(1)

وقد سادت الشكوى في قصيدة كتبها لصديق في تونس ، وكانت شكواه من أمور كثيرة مثل الزمان
والناس وهموم الأولاد ، فقال :

لست أنس الأحباب ما دمت حيا
يا صديقي ولو أسأوا إليا
غير أن الظروف لم تتسامح
فتخل اليراع يمشي سـويا
وجنود المشيب وهي عـدو
هاجمت صحتي فلم تبق شيئا (2)

وهكذا مسح الشاعر على شكواه حزنا مريرا ، وشكا آلامه إلى أحبائه وأهله ، وتنوعت رسائل الشكوى
والعتاب بين الطول والقصر .

وننتقل إلى غرض آخر من رسائل الديوان وهي رسائل الاعتذار والتوضيح . فقد يقدم المرء
على أقوال وأفعال تكون مصدر إزعاج واندهاش للغير ، فيضطر للتوضيح أو الاعتذار ، وحياة الشيخ
التليلي تعرضت للتحليل والنقد والتأويل في كثير من الأحيان ، وذلك بشهادة شعره وكتب الشيخ ست
رسائل في الاعتذار والتوضيح ، منها رسالة كتبها لأبي القاسم بن الساسي في مكة المكرمة قال موضحا :

قرأنا في الرسالة سوء فهم
فأحسبت التفاهم عن تناء
فهمت في رسالتنا بأنا
أهنا من أب أو أولياء (3)

وفحوى الرسالة أن الشيخ أراد أن يأخذ أباه للحج ، لكن الفقر أسكته ، فأخذ يشكي همومه مع التوضيح
والاعتذار :

فلا والله لولا حفظ ديني
وأمكن أن أخالط كل خب
وحفظ مروءتي لعلا ندائي
وأجمع بعدها زادا لحج
وأملأ منه موفورا إنائي
ولكن المروءة لم تطعني
وأمكث في المدينة أو كساء
إذا حدثت نفسي في الخلاء (4)

أما زواجه الثاني فهو موضوع يؤرق أصدقاءه . كتب إليهم موضحا أنه فرض قد قضاه ، ويطلب عدم

معاتبته ، ويعتذر عن إهماله لهم طول هذه المدة ، وعدم إيفائهم حقهم :

وهل من الحق أنني
من غرسكم وسواق
أنسى الذي قد جنيت
بها ومنها ارتويت (1)
ويلتمس الصفح والعتو إن اقترف ذنبا في حقهم :

الصفح والعتو منكم
وإن يكمن من جزاء
إن كنت جرما جنيت
فبالرضاء اكتفيت (2)

وعندما طلب منه أن يبدي رأيه حول كتاب اعتذر موضحا أن لكل إنسان رأيه الذي يدافع عنه :

لا رأي لي في مثل ذا
هذا يقول وذا يقو
فسواي أعلم بالسؤال
حول وذا يقول وذا يقول
كل يؤيد قوله
بالرأي أو شتى النقول (3)

ومن رسالة كتبها إلى الشيخ (غدور) بمكة ، يستوضحه في الكتب التي فقدها ، ثم نظم رسالة أخرى
يعتذر ويصحح ما جاء في الرسالة الأولى :

وبعد ذا أعلمكم يا ناسي
حيث ذكرت في الخطاب الثاني
مجلد الجزأين أعني الخامس
أعني ضعيف الجامع الصغير
فلا التفات في الخطاب الثاني
بأنني أخطأت في القياس
أن الذي فقدته في الآن
ومعه في ذا القمطر السادس
إذ قد سهوت عنه في التحبير
وإنما لأول ذي شأن (4)

ويمتاز التوضيح بالشكر على باقي الكتب التي اختارها له ، وأنها حسب طلبه مثل (كشف الحفاء
للعلاجوني) (تنزيه الشريعة لابن عراق) (خزنة الأدب للبغدادي) .

وعندما كبر الشيخ في العمر خانتته يده ، وقلت الرسائل بينه وبين أصدقائه ، فكتب إلى (غدور) يصف
حاله ويعتذر عن توقف الرسائل :

فإن أبطأت في الرد
فعجزني اليوم معروف
على مكتوبك الهادي
وعذري واضح بـادي

3.2.1. ديوان الدموع السوداء ج.1 ص: 30- 31 - 49.

4. المصدر نفسه ج.2 ص: 24.

وعفو منك غـ دور

أرجي منه إمـ دادي (1)

وفي سنة 1994 ازداد الشيخ في الكبر ، وافتك المرض نور عينه ، وارتعشت يداه ، مما زاد انزواءه وبعده عن الناس ، فكتب رسالة إلى (غدور حروز) و(محمد سعد الوادي) ، يتذكر فيها الماضي وتبادل الكتب والعلوم ، حتى فاضت عيناه بالبكاء :

يا جيرة البيت ذي السنا

وخيرة الأهـل والولاء

تحيتي سقتها إليـكم

بدمعها الفأئـض الإناء(2)

ومع مرور الوقت ازداد البين بين الأصدقاء ، وتمزق حبل الوصال ، فكتب معذرا عن انقطاع الرسائل :

أما أنا فاعتـذاري أني

أصبت في العـين بالغشاء

وفي اليمين ارتعـاش كف

قد أفسد الخـط بالتـواء

فهذا من بعض مـأراه

من اعتذاري عن الوفاء

فإن يكن عذرکم كعـذري

فقد أصبتم فذاك دائـي(3)

وعندما نتطرق للروح الإيمانية العالية التي يتسم بها الشيخ نجد أنها أكسبته القدرة على التمييز بين الصحيح والخطأ ، وخلعت على الكثير من شعره سمة التوجيه والنصح ، فأينما رأى الخطأ حاول تصحيحه ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بنذ البدع والخرافات التي اعتنقها الناس من الزوايا ، وكذلك بيوت الشعوذة التي كانت منتشرة ، ولها الأثر البالغ في نفوس الناس خاصة الكبار .يقول الشيخ التليلي ناصحا أحد الشيوخ بالتباع الحق ونبذ الابتداع :

لتدنس بالمطـامع

وجه علم فيـك لامع

فهي خال في المـجامع

خال عار لا يزيـن

يا إمام القوم دينـك

قد أضرتـه يميـنك(4)

ويستعين الشيخ التليلي بالحكمة ليوضح له مكانته ، وحاجة الناس إليه :

ما هلاك النـاس إلا

من مليـك قد تعلـى

أو صـوفي قد تخـلى

أو عليـم لا يديـن(5)

وأبرز دور العالم في إصلاح الناس ، وإلقاء الدروس والمواعظ ، وإنارة عقول الناس وليست تلك

1. ديوان الدموع السوداء ج.1 ص: 58.

3.2. المصدر نفسه ج.2 ص: 82 - 83.

5.4. المصدر نفسه ج.1 ص: 136/137 - 137.

الأفكار التي اعتنقها الناس من المدجلين والمشعوذين :

لا دعاوي أو فداوي
أو حـروز أو تداوي
لا ولا دفـك داوي
بين أبناء اللـعين (1)

ويتمنى الشاعر لو أن العمر يرجع فيعيش حياته، ويسرح جفونه فيها كما يريد، وينسى الهموم والأحزان بين جداول المياه وفي الرياض البهية والأمطار، ولأن الزمان لا يعود ينصح أحد الطلبة الأصدقاء قائلا :

سرح جفونك يا فتى
في روضة الحسن البهي
وكساها من نبت الربا
مطر تعزز بالولـي
فانف الهموم بنزهة
بين الجداول والقنـي (2)

لا يتردد الشيخ في استشارة أصدقائه إذا صعب عليه الأمر ، حتى يكون موقفه صحيحا ، فكتب يستشير صاحبه ، فطلب منه السفر :

عجزت وربى أن أحاول حيلة
بها تسكت الأرواح من جانب الغرب
فقلتم ركوب الجو أنفع حيلة
إلى نجلنا عبد الحميد مع الـركب (3)

لكنه قد يحتاج إلى النصح وهو النصوح ، وقد عرفها عندما جرب ، لذلك أراد لصاحبه أن يستفيد منها ، فطارت إلى مكة نصيحته :

خل قلب الحب في أم القرى
فارغا إلا لهـا مطلبـا (4)

واشكى (غدور حروز) للشيخ التليلي من حوادث الزمان ، وهو يعلم أنه أيضا قد تأذى في حياته ، وكانت رسالة الرد التي كتبها الشيخ التليلي ممزوجة بين المدح والنصح ، ويتمنى أن يجمعهما الله في دار الخلود ، لذلك ينصحه أن ينسى الألم والماضي ، وينتظر الغد المبتسم :

وأن الإله سيجـمعنا
وكم نلاقي جميع الرفاق
بدار الخلود ودار النعم
وطير السرور يغني النغم
لـ إلى خير دار ورب رحيم
ولا كلنا في انتظار الرحيـ
وكن في انتظار الغد المبتسم (5)
تعز أخي وانس ما قد مضى

3.2.1 ديوان الدموع السوداء .ج.1.ص:138- 160 - 26.

5.4 المصدر نفسه .ج.2.ص: 35- 59.

و أعقبها بالسلام والشكر على الكتب التي أرسلها له محمد سعد الوادي منها كتاب (نظم قطرب) (وابن تيمية) (دلائل التوحيد الأربعين) وغيرها من الكتب ، وقد وصلته في ثلاث رزم :

فتلك التي قد بعثتم بها
فهذي الرسالة قد سجلت
هدايا كريم مديم الديــــــــــــــــم (1)

استمد الشيخ التليلي النصح والإرشاد والتوجيه من تجاربه الخاصة التي خاضها مع الناس والزمان ، فمن رسالة بعثها لصديق قديم ، تقدم به العمر ، وجد أنه يستحق وسام المدح قبل النصح فقال :

فجالست الشيوخ وأنت شيخ
فحدث عن حصور أو هصور
ولا تحش العثار وكن هنيئا
ولا بست الشباب ولم تراع
تمتع أو تمنع ما استطــــــــــــــــاعا
فإن الجهد علمك الصــــــــــــــــراعا (2)

لم ينس الشيخ أصدقاءه الذين ساعدوه وأمدوه بالكتب ، ورد على رسالة عتاب بلغته من صديق ، ولم يبرح فيها غرفة الطبيب فالمرض داء ، وعتابه أقراص دواء ، يقول :

بلغ الدواء بحــــــــــــــــبه وبمائه
وتكســــــــــــــــرت أقراصه بإنائه
وانساح من ماء الزجاجة جلّه
لكن في الباقي كــــــــــــــــمال شفائه
وكذا الرسالة بلغتني لومكم
متقمصا في طيها بكــــــــــــــــسائه (3)

ومن نص رسالة أخرى كتبها الشيخ لصديقه العروسي بعناية يشكره على هدية الزواج :

حوت من البــــــــــــــــر صنع كف
من أعرف الناس باللبوس
وجلده من قماش قــــــــــــــــطن
كأنه الخمر في الــــــــــــــــكؤوس (4)

وعندما أهدى الدكتور أبو القاسم سعد الله للشيخ التليلي نسخة من كتابه (تاريخ الجزائر الثقافي بجزأيه ، بعث له الشيخ شاكرا ومعبرا عن إعجابه بالكتابين فقال :

لقد أهديت لي صفرا جليلا
نظرت إليه من بعد وقرب
وعهدي بالسباحة من قديم
فقلت أغوص ألتقط اللآلي
في تاريخ الثقافة للجزائر
فقلت البحر تستره الدفاتــــــــــــــــر
فخضت عبابه والبحر ثائــــــــــــــــر
فبحر الشيخ معروف الجواهر (5)

1. ديوان الدموع السوداء . ج2. ص: 60.

5.4.3.2. المصدر نفسه ج1. ص: 142- 154/155 - 151 - 84.

والعلاقة بين الشيخ والدكتور وطيدة ، تثقلها مؤلفات الدكتور المرصوفة في مكتبة الشيخ :

فليست هذه أولى المزايا من الشيخ الجليل ولا البشائر

فكم نورت مكتبتي بكتب تؤلفها وكم لك من مآثر (1)

بعث الشيخ خمس عشرة رسالة شكر لأصدقائه وخلانه في مختلف المناطق ، وتتسم إخوانيات الشيخ

بالجدية وتبادل المعارف والعلوم والكتب ، فمن رسالة بعثها لأحد أصدقائه يقول فيها :

تحية زكية طيبة لطيب

في ضمنها رسائل أربعة من كتبي

أولها مسائل تشرفت بالنسب

والثاني في المحذوف من قرأنا المحبب

وثالث قصيدة مرآة عمر متعب

ورابع (مقتطفات) من ديوان مختبي (2)

ويثني على صفاته الحميدة ، ومساعدته للناس :

فمن تكن صفاته كوصفكم لم يتعب (3)

وأرسل له صديق من مكة - لم يذكر اسمه - مجموعة من الكتب سنة 1978. عدها خمسة عشر كتابا فقال :

وردت إلي من فاضل خل وفي للمحامد جامل

أهدى إلي من المكاتب خيرها كتبا تعد ذخيرة للعامل (4)

وذكر في الأخير اسم صاحبه وهو (غدورحروز) ، وأخذ يشكره على الهدية ، التي تختلف عما يحضره

أهل البلدة ، عند قدومهم من الحج :

تلك الهدية لا قماش يرتدى أو ماء زمزم أو بخور الفائل

لله أنتم يا ابن وادينا الذي أمطرتونا بالغزير الوابل (5)

وقال أيضا من رسالة أخرى للدكتور سعد الله يشكره على هديته

يا مهدي لي جواهر يا ثمين من ذخرك

أهديت لي مؤلفا ألفته في كبرك

من كتب عديدة في نثركم وشعرك

أحسنت صنعا سيدي أدخلتني في قصرك (1)

وبتعدد صداقات الشاعر تكثر المنافع ، ويكثر معها تبادل الكتب ، فمن رسالة شكر كتبها الشيخ التليلي

لصديقه (محمد سعد الوادي) يشكره فيها على الكتب التي أرسلها إليه ، حيث يقول :

أهدى إلي هدية من خير أنواع الكتب (2)

كما أرسل له صديق من مكة مجموعة من الكتب ، فكتب الشيخ التليلي رسالة شكر ، وذكر الكتب المهداة بالترتيب فقال :

منها هدايا لا هدايا الجاوي بل كتب مفيدة المطاوي

جزيت يا مهديه خير ناوي خير الجميع و الدعا المساوي (3)

وكذلك بعث الشيخ رسالة لـ (غدور) يشكره فيها على الكتب والكساء فقال :

كاف الكتاب لروحنا ولجسمنا كاف الكساء مطهرا مسرودا

هذا السخاء وما سمعنا بمثله لسواكم في عصرنا معهودا (4)

وبعث الشيخ التليلي لـ (محمد سعد الوادي) رسالة مستعجلة مبتورة ، شكره فيها على الهدية التي أرسلها قائلا :

هدية ثمينة إلى أخيه التكله

فكتبكم يا سيدي قد وصلت مزملة (5)

وهذه الكتب منها (عقد اللآلي) (أصول الفقه ثلاثة أجزاء) (التوبة المستعجلة وغيرها ، كما أرسل الشيخ له

(بريدة) وتمنى أن تعجبه ، وإلا فعليه أن يرميها في أقرب سلة ، فقال :

فهذه بريدة نسجتها مهلهلة

فإن قبلتم لبسها فبردتي مفضلة

وإن أبيتم سادتي فبيتها في المزبلة (6)

وتمنى الشاعر لو أن حياته كانت مختلفة ، وأنه لم يعان ، لكان آمنا في حياته ، فكتب لصديقه قائلا

2.1. ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 86- 30.

3.المصدر نفسه ج1.ص: 161.

4.6.5.4.المصدر نفسه ج2.ص: 60- 65 - 66.

من قصيدة مشطورة :

يا ليـتني فيها جذع
أخب فيها وأضع
أختار منها ما أشاء
وما أحب من متع
ولي زـمان آمن
من شغب ومن فزع (1)

فلو كان حاله كذلك لاهتم بالكتب المرسله إليه ، لينتفع منها . وفي الأخير يشكره على الكتب التي أرسلها فقال :

جزاكم رب الورى
بكل خير يصطنع
ثم السلام ختمه
من التليلي يُستمع (2)

وقال شاكرًا آخر :

أسكتنا أفحمتنا أعـجزتنا
يا مهدي الشيء النفيس لك الهنا
من ذا يعارض واديا في سيره
أو من يقاوم سيله إن دنـدنا (3)

ويؤكد الشيخ أن الكتب المهداة إليه من مكة خاصة ، هي أثن الهدايا التي يؤتى بها من الحج ، فلا هي كحل عين ولا قماش ولا ماء زمزم و ردها الشيخ أكثر من مرة ، وهو بذلك يعيب أهل البلدة الذين لا ينتفعون من علم مكة .

إن الرسائل التي تبادلها الشيخ التليلي مع أصدقائه ، تحمل منفعة مادية في تبادل الكتب والعلوم ، رغم بعد المسافة بينهم . فهو يرسل ، وترسل إليه المؤلفات . ولاستكمال الفائدة يلجأ إلى استعارة الكتب من أشخاص آخرين كلما احتاج إلى ذلك . من مثل رسالة كتبها لتلميذه القديم ، يطلب إعارته ملخص كتاب الأغاني . استهل القصيدة بالمدح قائلاً :

أ إبراهيم يا كنز الأمانى
وغاية قاصد وثمار جـان (4)

وطلب أن يستعير الكتاب مدة شهر ، ووعد بأن يحافظ عليه فقائل :

رجوتك لا تخيب لي رجاء
وخل الشكر ينشـره لساني
فمثلك خص مثلي في احتياج
ومثلي خص مثلك بالـتهاني (5)

لقد غادر الشيخ العالم المزدهم بهدوء ، واستقر قي بيته منعزلاً ، طمرته الرمال المتراكمة ، وانقطعت صلته -

3.2.1. ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 57- 58 - 42.

5.4. المصدر نفسه ج1.ص: 130.

0إلا عن قليل - فإذا برسالة تصله من صديق قديم هو (محمد الطاهر فضلا)(1)، وكانت دهشة الشيخ

كبيرة بقدر فرحته ، والقصيدة تنبئ على ذلك وهي بشكل حوار فقال :

ما اسم هذا الخُل خلِي قال (طه فضلا)

قلت لي أهدها حقا قال حقًا للولا

قلت هل يدري مكاني ومكاني في الخلا (2)

ومن رسالة بعثها الشيخ لأصدقائه يشكرهم فيها على الكتب القيمة التي وصلتته منهم .أخذ يتذكر أحياءه

وأيام الاجتماع لتدريس القرآن الكريم ، فاستهل القصيدة بالمدح قائلا :

يتامى العقد في الأخلاق حسنا وحبات الجمان من السيخاب

ومجمعهم إذا اجتمعوا بناد لذكر الله مجتمع الثواب

رياض جنانهم أركى وأذكى من الروضات طيبا كالملا ب (3)

وننتقل إلى غرض التهاني فعندما تحصل صديقه ورفيق دربه الشيخ الحفناوي على شهادة التحصيل من

تونس سنة 1936م . فرح الشيخ التليلي كثيرا و كتب يهنئه :

أهلا بنور ساطع أهلا بنجم لامع

أهلا بمن نال العلا وجليل علم نافع

اليوم نحفل بالन्ह ووض وبالرقي الجامع

هذا الذي ترك البلا مد لنيل علم رافع (4)

وينصحه بضرورة العمل لما فيه خير للناس ، بعد أن سيطرت الخرافات ، وتمكنت من عقول الناس

وقلوبهم ، ولا شك أن الاستعمار قام بدوره في تخريب الأذهان ، ومحاوله طمس معالم الشخصية الوطنية ،

ودور الشيخ الحفناوي والشيخ التليلي تنبيه الناس وتوجيههم :

فاحرص على العلم الذي حصلته في (الجامع)

أن لا تدنس وجهه بسفاسف ومطامع

إنني لأعجب من جهه لول عرضة للصافع (5)

ويتعجب من المشعوذين الذين يدعون العلم :

1.محمد الطاهر فضلاء من مواليد 1918 بقرية تبندار (سطفيف)كاتب و مسرحي .

2.ديوان الدموع السوداء ج2.ص:54- 61.

المصدر نفسه ج.1.ص:140- 141.

متلفع بردا العلي

م مبرقع ب"الشارع"

ما العلم في تلك الوريد

قة من لفيف وادع

حسب الوريقة أنها

عنـوان نهج شارع (1)

وعندما زار قمار الإمام التليلي شيخ زاوية سيدي أحمد التليلي في فريانة، كتب الشيخ التليلي رسالة تحية، ضمنها ترحيبا وفخرا بأصله العربي :

لدوحه ثالث الخلفاء تعزى

أصول الجد يشملها احترام

له الشرف الرفيع لدى قريش

وفي الوسطى مكانته تقام (2)

وأثنى على دوره في نشر الوعي و العلم في الناس :

فتدريس وتقديس وذكر

ورياض المعارف والنظام

بتقوى الله لا خوف البرايا

تخر له الغطارفة العظام (3)

وكتب الشيخ في غرض الشوق، وهو نتيجة طبيعية لافتراقه عن إخوانه وخلانه، والتزامه البيت، ما جعله يكتب رسائل تفيض شوقا وحنينا. فمن رسالة كتبها لصديقه أبي القاسم بن الساسي بالمدينة المنورة، لم يحتمل الشيخ طول المسافة فبعث الرسالة مع أمواج البحر ولجج الفضاء، وأخذ يحكي ويبث أشواقه قائلا :

سلام يمتطي أمواج ماء

وقد يسري على لجج الفضاء

سلام كله شوق وتوق

إلى أفياء طيبة والبناء

بعثتُ به مغلغلة رسولا

إلى الشيخ المفللف في الكساء (4)

و يشكو انكسار جناحه الذي أقعده بعيدا عنهم، ومنع رحيله إليهم :

ولكن الجناح وقيت شرا

كسير غير مأمول الشفاء

وجسمي إن يكن عنكم بعيدا

بأرض الرمل أو أرض الوباء

فقلبي عندكم في كل حين

يحدثكم أحاديث الوفاء (5)

وخصه برسالة أخرى فيها شوق وحنين للقائه، وفرحة عارمة بالرد :

هبت رسالتكم صبا فكأنها

حملت إلى غرب الديار بشامها

1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 141.

3.2.المصدر نفسه ج2.ص: 67- 68.

المصدر نفسه ج1.ص: 01- 02/01.

فتضوعت بعبيرها أرجاؤها
وعلا السكوت من السرور كلامها

فلکم بها أحييتنا ولكم بكم
أسكبت بالبعد النفوس رجامها (1)

وإن كان بعد المكان قد فرقهم، فإن في المنام إمكانية لجمع الخلان. ولا يجد الشيخ إلا صديقه ليثته أحزانه :

فوددت أن خيالكم قد زارني
في ليلة ذقت الهني منامها

فأبته شكوى الفهامة علوه
يحكي الحقيقة حافظاً أحكامها (2)

ثم يذكره بأذى الناس عندما كان في البلدة ، وشبههم بالعقارب وشبه البيت بالظلام قائلاً :

فالدار ليل والأنام عقارب
والنعل ما رضيت لنا أقدامها (3)

واشتاق الشيخ لصديق له في السجن فكتب له رسالة امتزج فيها الشوق بالفخر والشكوى ، وإن كانت هذه الرسالة لم تصله ، حيث قال :

عاب العواذل واللوام معتقدي
فيكم وفي حبكم هددت بالرصد

دامت لهم نية أني فتنت بكم
ونيتي أنهم صنّف من النقد (4)

ويشبهه بالبدر قائلاً :

لئن تباعدت عن أهل وعن وطن
فما تباعدت عن شبل وعن أسد

هم النجوم وأنت البدر بينهم
وربما كنت ماء سائغا لـصدي (5)

أما حياة الصبا، فالشاعر لم ينسها أبداً، خاصة أيام الدراسة في تونس فكلما ذكرها تذرف عيناه دموعاً على رحيلها، فمن رسالة بعثها إلى صديق بتونس، يتذكر أيام الطلب بجامع الزيتونة في جو حزين قائلاً :

أين أيامي الطلية
أين أعوامي الهنية

تركت بالقلب نارا
أكلت كل شظوية

غير أنني بدموع
الذكريات الأولوية

أطفئ الجمر وأمضي
للعصور الذهبية (6)

لكن دموعه هي التي تطفئ نار الحرقه، وتزرع فيه البهجة والفرح. ويتذكر أيام الدراسة واجتماع الأصدقاء ، ولعبهم وإنشادهم للأغاني الوطنية في جو شبابي يوحي بالسعادة :

نطرب السع ولكن
بالأغاني الوطنية

2.1. ديوان الدموع السوداء ج.1 ص: 122.

6.5.4.3. المصدر نفسه ج.1 ص: 123 - 33 - 36 - 155.

نترك الدرس ونلهو

باحترافات زهية

حفلنا حفل ملي

بالنكات الأديبة (1)

ومن رسالة أخرى كتبها لصديق في تونس، افتتحها محيا إخوان الصفاء (أصدقاءه) وأشياخه وخلانه، وبث فيها شوقه لتونس وجامع الزيتونة، فهو يتذكرها دائما لأنه عاش فيها أحلى أيامه، ومن شدة شوقه يقول:

فقلبي لا يلذ له حديث

سوى في تونس ذات الدلال

فتونس أنست قلبي وفكري

وأنستني العشيرة والأهالي

فحبها تخلل في فؤادي

وحل مع العقيدة في الخيال (2)

ويبين أن ما أسر قلبه جامع الزيتونة وليس البلد (تونس):

(فما حب الديار شغفن قلبي)

ولكن حسب آيات الجلال (3)

ويتذكر الدروس التي كان يتلقاها على يد مشايخه من نحو وصرف وبلاغة وجبر وتاريخ وإنشاء... ولشدة فرحته بالدروس يقول أن من فاته دروس الجامع فقد مضى عمره هدرا:

فطوبى للمجاور في حماه

يقضي العمر في الربع الخصب

فعمر المرء يذهب دون نفع

إذا ما فاته درس الأديب (4)

ويبلغ في الأخير سلامه لجامع الزيتونة:

وللمعمور جامعنا سلام

وللخضراء من غصن رطيب

وداعا جامع الزيتون مني

وأشياخي وكل فتى حبيب (5)

ويزداد شوق الشيخ لأصحابه حتى يجافيه النوم ليلا، فيبلغ سلامه مع الفجر، ويصف حاله:

ويا ساعة بعد الوداع وقفقتها

وحيدا كأنني الميت في ظلمة القبر

أيرضيك أن القلب يغلي كآبة

وأن دموع العين فاض بها حجري (6)

ويقبل الرسالة التي يبعثها إليه، لعلها تلامس كفه أو ثغره:

وأقبل مكتوبي إليه لعله

يلامسه بالكف منه أو الثغر

وأطويه طي ثم أنشر طيه

وأثمه أخرى لدى الطي والنشر (7)

1. ديوان الدموع السوداء ج 1. ص: 156.

2. المصدر نفسه ج 1. ص: 107.

3. المصدر نفسه ج 1. ص: 19.

4. المصدر نفسه ج 1. ص: 79/78 - 79.

وننتقل مع الشيخ إلى غرض آخر من الرسائل الإخوانية ، وهي الرسائل الإخبارية ، فأصدقاء الشيخ جلهم خارج الوطن ، بين مكة ، والمدينة ، وتونس ، فكان يرسل لهم رسائل يخبرهم عن أحواله ، وينقل التطورات الاجتماعية والسياسية في قمار والجزائر عامة ، خاصة أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر. فمن رسالة كتبها إلى صديق وقريب له في تونس سنة 1934 يخبره أن لا أصدقاء له منذ قدومه من تونس ، لذلك انعزل في منزله ، وأخذ يهيئ نفسه للزواج قائلاً :

أما أنا فليس لي رفيق
في هذه البلاد أو صديق
فحالي في مسكني اعتزال
من كتب ألفها الرجال
وقد بنيت للزفاف مسكنا
به المسرة قريبا والهناء (1)

وفي سنة 1941 كتب الشيخ التليبي رسالة مطولة إلى أبي القاسم بن الساسي ، ضمنها العديــــــــــــد من الأغراض ، وقد أخبره عن أحوال البلدة ، والتغيرات التي وقعت ، وازدهار النشاط التجاري فكتب قائلاً :

أقاموا بالمدارس سوق علم
فمن يبيع يلذ ومن شراء (2)
وازدهر النشاط العلمي في قمار وباقي القرى المجاورة ، حيث افتتحت المدارس ، وبدأ الكبار يتدارسون بعد العشاء الفقه والتفسير ، ويدرس الشباب في النهار ، كما سافر الكثير إلى تونس من أجل الدراسة :

بمدرسة النجاح بدت قمار
وأقمار المعارف في جلاء
تعلم ما تزايد كل عام
على مائة موفرة الذكاء
ودرس للعجائز كل يوم
يقوم به المشايخ في العشاء (3)

وفي جعبة الشيخ نبأ آخر يخص الفلاحين ، فقد اجتمعوا وشكلوا نقابة تحميهم وتدافع عنهم ، لكنها فشلت بسبب حسد النفوس :

خباء نقابة تحمي حماهم
وتدفع عنهم كل اعتداء
ولكن والتأسف ملء قلبي
سيعصف غمرها داء الرياء (4)

وتستقر الرسالة الثانية عند هالي الحفناوي سنة 1945 ، وهي سنة غضب الشعب الجزائري ، كما هي غضب العالم بأكمله خلال الحرب العالمية الثانية ، ولم يسلم لسان كبير أو صغير من الحديث عنها ،

1. ديوان الدموع السوداء ج.2 ص: 29.

2. المصدر نفسه ج.1 ص: 06.

4. المصدر نفسه ج.1 ص: 07.

وهي رد على رسالة كتبها له الحفناوي ، فأبدى إعجابه بأسلوب الرسالة قائلاً :

أما التنظيم فإنه الجـــــــ
وزاء في حسن وبعد (1)

وفتح باب الحرب العالمية الثانية على مصراعيه ، يذكر أسماء قادتها غاضبا :

يكفيك هتلر شر حر
ب ذقتها أسدا وفهد (2)

وقد جعل الشيخ هذه الحرب انتقاما لمقتل المسلمين في حروبهم ضد الروم :

يا محرقا للمسلميـــــــ
ن بأرضهم لقديم حقد

مت خائنا في أرضكم
برصاص أحفاد وولد (3)

وفي سنة 1946 كتب الشيخ التليلي رسالة إخبارية ثانية لصديقه أبي القاسم بن الساسي ، جمع فيها أخبار الجزائر عامة و قمار خاصة ، وذكر أصدقاءه بأسمائهم ، وتحدث عن أخبارهم ، وبدأ القصيدة بالشوق للقائهم ، وبعدها نقل الخبر تلو الآخر ، منها خروج النواب من السجن ، واشترآهم

في الانتخابات ، لكنهم تعمدوا تأخير خروج(مصالي)من السجن خوف نجاحه :

وخلف المصالي عن التسريح
قبل انتخاب خشية التصريح

ثم المصالي بغية النصيح
إن فاز في انتخابه الريح

ونحن ريش في مهب الريح(4)

كما اتجه الكثير من الشباب إلى العلم والدراسة ، وعزموا الرحيل إلى تونس لاستكمال الدراسة . ويخبره عن أصدقائه الذين كانوا معه مثل الياجوري الذي استقر بغيلزان معلما ، والطيب لقماري ، استقر بالعاصمة مع أسرته ، والحفناوي هالي وجد في بسكرة المقام . أما خارج الجزائر فقد استقر عمار بن لزعر في المدينة المنورة .

وننتقل إلى غرض آخر في الرسائل وهو الرثاء الذي كان الشاعر يحزن فيه كثيرا على رحيل المحبوب

من أهله وأصدقائه ، حتى ينهك قلبه :

كم نال قلبي من فراق أحبتي
سهم أصاب وطعنة بسنان

إن المصائب جمة وأجلها
فقد الحبيب وفرقة الخلان (5)

وبلغه نبأ وفاة صديقه عبد القادر الزباني ، فقال :

4.3.2.1. ديوان الدموع السوداء ج.1.ص: 40- 41 - 42/41 - 04.

5. المصدر نفسه ج.2.ص: 53.

واليوم أقرأ في رسالة صادق

موت الصديق صديقنا الزباني

فتألم القلب الجريح لموت

فبذت دموع القلب في الأجنان (1)

واعتمد الشيخ على المديح، وإظهار محامد الميت، وهي سمة بارزة في رثاء الشيخ التليلي التي اكتسبها من الرثاء العربي القديم :

يا خادم العلم الشريف سنيه

نم هائثا في جنة الرضوان

يا صاحب الخلق الكريم زملا

ومدثرا بالجوود والإحسان (2)

ونظم قصيدة عزاء للدكتور أبو القاسم سعد الله عند سماعه نبأ وفاة والدته :

عزائي إليك أخي في المصاب

مصاب عزيز علاه التراب

عزائي إليك وإني شريك

فلي من مصابك سهم أصاب (3)

ويذكره بأن البكاء لا يجدي نفعا ، وإنما ينبغي الدعاء لها :

فليس البكاء وليس العويل

بمجد لديها غداة الحساب

أخي أنت من بعدها قيم

ورب لبيت عراه اكتئاب

فراع البنين وراع البنات

يصد السباع وطرده الكلاب (4)

وننتقل من الرسائل الإخوانية بأغراضها المختلفة إلى غرض آخر لا يقل أهمية في الديوان وهو الفخر والمدح .

الفخر والمدح :

الفخر هو باب واسع من أبواب شعر العربي، يعبر عن ميل الشاعر للعزة والأنفة، ويقصد به (تعداد الصفات وتحسين السيئات) (5)، ومما يلاحظ في الديوان أن الشيخ التليلي لم يعتمد على فخره بنفسه، وإنما قصر الفخر على غيره مثل زعماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. خاصة الشيخ عبد الحميد بن باديس، فعند زيارته لوادي سوف سنة: 1931 قال الشيخ مفتخرا :

هبي يا قرية الرمال هبي

واجبات اللقا إلى خير ناد

هبي يا قرية الرمال وحي

أسد العلم والهدى والتحدي

هبي يا قرية الرمال ولبي

سادة ذادة وقادة رشد (6)

ثم يشيد بأعمالهم وذودهم عن الدين :

2.1. ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 53.

4.3. المصدر نفسه ج2.ص: 83- 84.

5. حنا الفاخوري: الفخر والحماسة. دار المعارف. ط5.س.1992.ص: 05.

6. ديوان الدموع السوداء ج.1.ص: 37.

علموا هذه الشعوب كرسل
كبحوا من جماح بعض أناس
فانظر الكون حادثا وقديما
هل ترى الجائرين في لوح حمد (1)

يتفق الشيخ مع مبادئ جمعية العلماء المسلمين ، فيدعمهم بنصحه قائلا :

وانشري بيننا صحائف ود
واتبعي الغور إن مررت بنجد
وارفعي راية الجزائر ——— إنا
قد سئمنا السباب من كل فرد (2)

كما نظم قصيدة استقبال لبعض زعماء الجزائر :

أهلا بكم من قائد أو مرشد
أهلا بكم فخر الجزائر كلها
شرفتم الوادي وتربة أرضه
ويستمر في تعداد مآثرهم قائلا :

يا من بكم فخرت شعوب جمعة
يا من بكم خفق اللواء مرفرفا
يا من بكم رفعت رؤوس طالما
وفخرتم بالشعب شعب أصيد
فوق الجزائر بالهلال الأسعد
ركعت لطاغ مستبد أبعد (4)

كما نظم قصيدة عندما علم بزيارة وفد جمعية العلماء بقيادة الشيخ إبراهيمي سنة 1962 لوادي سوف ،
لكن الزيارة ألغيت وألغي معها إلقاء القصيدة ، والشاعر بدا فيها شديد التحمس لاستقبال الوفد ، يقول :

وطن الرمال دس الحجره وافخرا
أو ما ترى هذي الجموع تقاطرت
وصفت له سوف فحلق قاصدا
أو ما ترى طير السعادة بشرا
تسعى لتسمع لحنه لما انبرى
أدواحها ليث فيها الجوهر (5)

وقد امتدح قادتها ، وأعمالهم الجليلة ، ودورهم في نشر الوعي بين أفراد الشعب الجزائري ، ووقوفهم
في وجه المستعمر :

ما هاب يوما قـوة من قاهر
أبدا ولا ولت يـداه القهقري (6)

2.1. ديوان الدموع السوداء ج.1 ص: 38.

6.5.4.3. المصدر نفسه ج.1 ص: 43- 45 - 86 - 87.

حماسة الشاعر أخذها من فرحته بقدوم الوفد ، وقد طلب من الناس الخروج للاستقبال :

يا أهل ذا البلد الموقر وقـفة
تحيي لكم ميت الفضائل والقرى
فتشاركوا الأخيـار في نهضاتها
وتعاونوا في البربراً أكبرا (1)

وهو في فخره صادق كل الصدق ، لأنه يتحدث عن واقع جديد ، وروح إيمانية صادقة بنصرة هؤلاء الأبطال الذين نفضوا غبار الذل والجهل. ولاشك في أن صدقه وراء تلك الحيوية التي تميز فخره ، وذلك لأنه يصور واقعا لا وهما من أوهام الخيال.

وانتقل الشيخ إلى الفخر بفتى الصحراء وأجداده ، فوجد مجالات الفخر واسعة أمامه :

فتى الصحراء يا ابن بني هلال
يذكرك الأوائـل من جـودود
وليد العـرب في ارض الرمال
أتوا كالشمس يتبعها ضياء
فتذكر سـادة في كل حال
وهكذا يستحق أجداده الفخار دون البشر ، وتشهد أعمالهم على ذلك ، فهم خلقوا للمجد :

حموا بالقضب مصحفهم زمانا
قد مزجوا دماءهم بتـرب
فرفرف فوقه علم الهـلال
جدودك يا ابن أرضهم أناس
عليه اليوم تخطر في اختيـال
حموا عز الأمانة بالنصـال (3)

وأراد أن يخلع شجاعة قومه وأجداده على أبناء البلدة ، فأخذ يحثهم على الإقتداء بهم :

فلا تك يا فتى الصحراء كلا
وسدد مثلما فعلوا سهامـا
وكن مثل الجدود ولا تبـال
تعالوا وانفضوا عنكم غبارا
إلى الأعداء مرهفة النبـال
نصحتك يا فتى الصحراء فاسمع
تعالوا وانفضوا نوم الخبـال
نصيحة والد ودع التقـالي (4)

والشاعر من خلال القصيدة جنح إلى الفخر العربي القديم ، الذي يخلد مآثر الأجداد ومفاخرهم ، والهدف منه ليس مجرد الفخر وإنما بث العزيمة في الشباب الجديد من عصره ، ليخلفوا تراثا وعلما ومجدا كما فعل الأولون .

وذكر الشيخ التليبي مجموعة من علماء قمار ، وافخر بأعمالهم لتكون مصباحا ينيـر صورهم الفوتوغرافية

التي أخذت لهم بالعاصمة الجزائرية سنة 1946 :

خمسة من شباب أهل الصحاري
هاك أسماءهم وهم عن يمين
واليجوري بعده وعلي
هم لزيتونة العلووم ثمار
وإن يكن شتت الزمان دماهم
هم بدور لأرضها و الدراري
التليلي والهالي والأنصار
بن سعد وقية عن يسار
وهم في الثمار خير ثمار
فلقد ضم ظلهم في إطار (1)

أما الفخر بالنفس فهو قليل عند الشيخ، ويستخرج من ثنايا القصائد فمن قصيدة (الجزء من جنس العمل) يقول :

أما أنا فالسبدر في كبد السماء علا وكن (2)

وقوله أيضا في رد على رسالة بعثها لمحمد بن سعد الوادي :

إن كنت من نسل الأولى نسلوا العلا
أو كنت من نسل الذين تقدموا
فأنا الذي أطفأت كل منارة
أو كنت من آباء صدق أسرجوا
فأنا الذي أجررت رمحي في الوغى
لا فخر بالعظم الرميم إذا أنا
فانا ومثلي من ردي الناسل
بمعالم ومناثر للسبابل
بيدي ورجلي واللسان القاتل
للفتح صهوة كل مهر صاهل
وكسرت رمحي طعمة للصائل
كنت الرميم ولم أكن بالنائل (3)

الغزل :

تناول الشيخ موضوع الغزل مرة واحدة في احتشام حين تغزل بزوجته المتوفاة ، ولفه في ظلمة الليل كما تلفها ظلمة القبر، إذ لا يرى إلا من ثقب المنام غير مصدقٍ، وقد طلبت من قدور (صديقه) أن يعتني بالشيخ :

بربك لغز لبعلي وشيخي
ولست أرى روحها عندكم
فروح القرينة ليست بـذاك
بأنك للعهد قد تلكز
بل إبليس في زيه يلمز
ولكنه الطهر والجرمز (4)

ثم يسميها باسمها (أم الخير) في أكثر من موقع من القصيدة، ويرد على عتابها، ويتبادل معها أطراف

1. ديوان الدموع السوداء ج.1 ص: 90- 125.

3. المصدر نفسه ج.2 ص: 41.

4. المصدر نفسه ج.1 ص: 94.

الحديث :

أذلك من أم خير تخـال
فروح القرينة بل ذاتها
يحدثني بخلاف الـذي
وينثر فوق بساط الـوداد
كلانا يقص ويفضي بـما
وأنت بمكـة لا تفرز
يلازمي أينما أجمـز
يحدث روح لكم أحمـز
نثار المحبة أو يطـرز
يكن من الوجد لا يوجـز(1)

المزح والقصص :

لقد عاش الشيخ التليلي ضغوطات كثيرة في ميادين عدة، أثرت على فكره وعمله، فكانت أعماله تتسم بالجدية المطلقة، وكانت له رغبة لا حدود لها في إصلاح أهل قريته، وبث العلم فيهم، ومحاولة حل مشاكلهم، فكان من الطبيعي أن يلجأ إلى الهزل والمزاح لينفس عن كربه، ويسلي نفسه، وإن كانت لا تخلو من نصح وإرشاد، حيث نأخذ منها مغزى يستفيد منه الكبار. ونبدأ بقصة اجتماعية لشيخ أراد الزواج، وهي على شكل مسرحية عمودها الحوار:

طرق الشيخ خاطبا باب جمع
قائلا من تريد منكن زوجا
وتتوالى الإجابات الساخرة من فئات متباينة من النساء، بدء بالصغيرة، والمرأة النصف، يقول :
عنسي ولا الشيخ العجوز الهارم
وينقل رأي أنواع النساء، حيث ترد المرأة العقيم :
الولد مفقود فما احتباسي
ويستمر حتى يصل إلى قمة الهرم وهي العجوز ، ثم ترد رهط من الفتيات بسخرية :
لا الدين نبغي ولا الحياء نراعي
لا بيوت الزواج نرضاها سجننا
في البساتين كـل نوع ولون
من نساء أقمن حفلة عرس
فتضاحكن من غباوة هرس (2)
ولو أنه الشيخ الوقور العالم (3)
والرزق موجود بلا مساس (4)
فلنا من الملاهية كل الدواعي
نحن طير إلى الـورود سواع
من شميم ولذة ومتـاع (5)

وقد أكمل الشيخ بقية القصيدة في الجزء الأول من الديوان على حرف الدال ، والقصيدة عنوانها(بعد

1. ديوان الدموع السوداء ج.1.ص:94.

2.3.4. المصدر نفسه ج.2.ص:14.

5.المصدر نفسه ج.2.ص:15.

الاستماع قلت بالتباع)، فبعد الحوار الذي جرى بين النسوة يرد الشيخ الخاطب، ويعلل سبب رغبته في الزواج، قائلا :

قلت بعد استماع كل جواب
ليس من يدلي للزواج حبالا
قد يكون الزواج تعمير بيت
إنما البيت الوحيد ضريح
ويبين أن الأبناء كل مهتم بشؤونه ، فيقول :

أبنات وللبنات اشتغال
أم بنوه وللبنين شؤون
لا تسلمي عن الحفيد فإنني
ببعول يدرن بيتا وولدا
لم تذر للأباء حبا وودا
لم أر في الوليد للخير ردا (2)

يبقى الشاعر في نفس الموضوع، ويعالجه من زاوية أخرى، لقد تزوج الشيخ، وأبدى رأيه قائلا في قصيدة (نعمة الزواج ونقمة بالنسبة للزوج) وهي من ثماني وأربعين بيتا:

قالوا الزواج هناء
قلت الزواج عناء
ونصف دين ملكته
وكل شيء أضعته (3)
يبدو أن الشيخ متشائم من زواجه، فقال :

كل النساء أفاعي
في وهدة أو يفاع
تزوجتني ضئيلة
بالرغم من كل حيلة
ويعطي أخيرا رأيه في الزواج قائلا :

هذا الزواج خببرته
ذرعته وشبرته
أنا الحخير فسلسني
فظاهر منه نعمته
وغبوره قد سبرته
فكان ما قد زبرته
عن الزواج وسره
يراه من لم يجرب
يدوق فيها من تقرب (5)
وباطن فيه نقمة

2.1. ديوان الدموع السوداء ج.1 ص: 52 - 53.

4.3. المصدر نفسه ج.1 ص: 11.

5. المصدر نفسه ج.1 ص: 13.

يغير الشيخ الموضوع إلى غرض نقيض وهو الرثاء، ففي مداعبة بينه وبين أحد أصدقائه الذين كان يدرس معهم أيام الشباب، يطلب منه صديقه أن يرثيه بقصيدة، لأنه يفترض قد مات قبله، فيقول الشيخ التليلي :

يا قريبا أراه مني بعيدا
كم قضينا السنين نطلب علما
وبعيدا أراه مني قريبا
ثم يذكر صداقتهما قائلا :

ما علمناك في الزمالة إلا
يا رفيق الحياة مذ غبت عني
رجلا صالحا وشهما ليبيا
لست أنساك ما حييت حنانا
صرت والله في الحياة غريبا
وقال بيتين يختار منهما واحدا يوضع على قبره :

هذا قبر المطوي قبر علي
يرجو من زائريه دعوة خير
قبر المطوي في هذا الثرى
كيف ينس الحبيب يوما حبيبا (2)

الرثاء :

الرثاء هو غرض قديم في الشعر العربي ، ويتفق مع المدح في كونهما يعتمدان على ذكر الخصال الحسنة ، لكن الشاعر (يبكي ويلحن بكاءه على قيثاره شعره تلحينا مشجيا كله آلام وحسرات) (4) تتميز المراثي الأربع التي قالها الشيخ التليلي بالحزن العميق نظرا لالتباس رثائه بحالته النفسية السيئة ، فكما كان صادقا في نصحه وإرشاده ، كان صادقا في مراثيه التي خص بها آله وأصحابه ، معبرا فيها عن مشاعر أسمى حقيقية ومخلصة .

فقد رثى أمه وأباه وأصدقاءه ، وكان الرثاء بالنسبة إليه مديحا للميت ، كما أنه موت مع الراحل المحبوب ، وبكاء عليه. فعندما رزئ بوفاة والده ، صور وقع المصاب فقال :

جل المصاب فجلت الأوصاب
وتراخت الأعضاء سكرى حيرة
وتمزقت في جسمنا أعصاب
وتبدل الحلو اللذيذ مذاقه
وتثاقلت فكأنها أنصاب
وتمنى أن يفديه بنفسه ، ويتبادلا مكانيهما :

لو كان يفدى ميت لفديته
بالروح لكن القضا غلاب

2.1. ديوان الدموع السوداء .ج.2.ص: 62.

3. المصدر نفسه ج.2.ص: 63.

4. شوقي ضيف : الرثاء. دار المعارف . ط4س 1987.ص: 05.

5 ديوان الدموع السوداء : ج.1.ص: 20.

لو كان يجدي ميت في قبره نوح عليه لكان لي إطناب(1)

وذهب عند رثائه لأمه شأوا بعيدا في التفجع الممزوج بالندم على عدم إيفائها لحقوقها فقال :

قضيت أمني وبيت الموت قد زرت وما قضيت من الحاجات أو نلت

قضيت والدتي حسرى فوا أسفي لم أقض حقك في الدنيا وما عبت (2)

إن موت الشيخ التليلي مع الفقيد الحبيب ظاهرة تتكرر في شعره، ولم نجد تصويرا يحمل من اللوعة فوق ما يحمل هذا التصوير، وهذا يدل على أن الشاعر لا يؤمن من فقد، وإنما يشعر بفقد نفسه مع من فقد، وبموته مع من مات .

وكان لوفاة الزوجة الأولى للشيخ التليلي الأثر البالغ على حياته، فقد كانت منارته التي يهتدي بها، وعصاه التي يتوكأ عليها، وقد أرخ ليوم وفاتها قائلا: (توفيت زوجتي الأولى يوم الجمعة لست خلت من شعبان سنة 1397هـ - 1977/7/22) والملفت للانتباه هو عنوان القصيدة (الزوجة الشهيدة) الذي يبين أثر وفاة زوجته في نفسه :

يا نفس لا تظهري حزنا لحادثة فالموت عن كارثات الدهر يلهيك

يا نفس بعضك مات اليوم فارتقبي تلك البقية في الموتى تلاقيك (3)

وبموت زوجته مات كل من حوله، ومن يعرفهم، حتى روحه دفنت معها :

سلام من أظلمت في عين مقلته كل الدنا عندما في النعش حطوك

سلام من روحه أمست بجانبكم في حفرة القبر حتى لا تجافيك

سلام من أبتت الأيام جثته بعد الفراق بلا روح تناديك (4)

وهكذا رثى الشيخ التليلي زوجته بحزن عميق، ولعل هذه المرثية هي أكثر مرثيه تفجعا. ومن مرثيه المتفجعة والمحنة، قصيدة كتبها في (أحمد بن علي)، تهاطلت دموعه غزارا :

حكم القضاء ففاضت الأرواح وتحطمت من أجلها أشباح

وتهاطلت تلك الدموع على اللحي فاخضلت الجنبات والألواح

من هول ما مس القلوب من الأسى بوفاة أحمد ليتهم ما باحوا(5)

ولولا تمسك الشيخ بالدين لعاد لخصال الجاهلية :

لولا الحياء وما يجرم شرعنا

لبدت لنا بمحدودنا أجراح (1)

الفلسفة :

إن التأمل حياة الشيخ التليلي بكل مجالاتها الدينية والاجتماعية والفكرية، يجد من الطبيعي عليه أن يلج باب الفلسفة، فزهده ومعرفته بالدنيا وتقلباتها، وشكته في كل الموجودات، هي موضوعات فلسفية توصل إلى اليقين بالذات الإلهية، يقول في قصيدة :

بحر التفلسف بحر لا قرار له
يا ويح من سبحت فيه عقائده
الشرك والشك و التشكيك لؤلؤة
والكفر والزيغ والإلحاد مورده (2)
ثم ينتقل إلى قادة الفلسفة وزعمائها ويبين جهلهم أمام الله تعالى :

دع عنك قولة يونان وما جلبت
من الشرور لذي دين يجده
فما أفلاطون بذني وحي فنتبعه
ولا أرسطو بذني رأي فننقده
حسبي وحسبك قرآن بيينه
لنا الرسول كورد أنت وارده (3)
يستقي الشيخ مبادئ فلسفته من التأمل في الوجود، وهذا المبدأ يذكره في أكثر من قصيدة، حيث يقول :

لا تعبد الله بالآراء تجمعها
من كل ذي شرك وبالقرآن نعبده
تأمل الكون وانظر في صحائفه
تر العجيب ون الله موجوده (4)
أما في قصيدة (قلت باحثا عن الحقيقة بين آراء الناس) التي نظمها في تسعة وستين بيتا، يثبت فكرته الأولى حول مبدأ التأمل في الكون، وجعلها حوارا بينه وبين الناس فقال :

قالوا الحقيقة ما ترى
قلت الحقيقة ما أرى
قالوا الحقيقة ما تعنا
رف في البرية والورى
قالوا الوجود حقيقة
لا ريب فيه ولا افترا
قلت الوجود مشكك
في نفسه أو ماترى (5)
ويصف الشيخ كل ما وقعت عليه عينه :

فانظر إلى الشمس المضي
ئة قد بدت في أحمررا
في حجم دف ثم بع
مد سويعة في أصفرا

1. 2. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 33- 56.

المصدر نفسه ج1.ص: 57.

5.المصدر نفسه ج1.ص: 63/63.

وانظر إلى رؤيا المنام
وترى المعبر للمنب
هذا يقول رأيت عم
والغير قال مكذبا
ويقول في الأخير :

إن الذي خلق الحقيـ
حتى تتم عمارة الدنـ
فإذا أراد خرابها
ويمتد الشك عند الشيخ ليصل إلى نفسه ، فيشك في وجودها ، ومستنكرا أعمال أعدائه .يقول :

هل أنا الآن أنا
ولقد كنت أنا
حل غيري في مكاني

تجد عظيمًا سيـرا
سام بصدق راء أخـبرا
ي في الجنان مدثـرا
بل في جهنم جـرا (1)

قـة أخفى منها المصدرا
يا بما قد عمـرا
رب الحقيقة أظهـرا (2)

وأنا غير أنا
وأنا اليوم أنا
فأنا لـست أنا(3)

الحكمة :

كانت حياة الشاعر زاخرة بالمعارف والعلوم الدينية والاجتماعية والعلمية، أكسبته رؤيا نافذة سبرت مكنونات الأشياء وعقلتها، وزاد على ذلك حياة الفقر وما صاحبها من ضغط ونكر اجتماعي ، فتكشفت له طباع الناس، ومعاملاتهم ما دفعه إلى الاعتماد على مبدأ الشك(ومذهب الشك الذي يدين به الشيخ التليلي جعله لا يسلم في قضية أو خير تسليما مطلقا)(4)

وقد نظم الشيخ التليلي حكمة تقول : ثلاثة تقوي الضعيف ، وثلاثة تضعف القوي :

قال الذين لهم بالناس معرفة
تقوي الضعاف بأوصاف مقدسة
وحسن خلق خصال كلها شرف
أما التي تضعف الأقوى وتجعله
تفرق واختلاف قاد أمتنا

وبالطباع وبالسلطان والأمم
عقد صحيح وعلم نافع أumm
لمن تتبع من عرب ومن عجم
كأمة هلكت في غابر القـدم
إلى التناحر بين الأهل والرحم (5)

2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 64/63 - 66.

3. المصدر نفسه ج2.ص: 16.

4/ أبو القاسم سعد الله : مجادلة الآخر.ص: 206 .

5.ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 46.

ومما لا يخفى على الشيخ أن الإنسان بطبعه يحب الاحترام واستعجال قضاياه، قال في ذلك :

لا تأنفن ولو كنت الأمير سنا
لا تخدم الضيف والأستاذ محترما
وأن تقول إذا لم تدر مسألة
وقد سئلت لا أدري بلا عجب (1)

ولمن يخاف الوقوع في الخطأ يقول الحكمة التالية :

إذا ما علمت الخطأ فابتعد
أما علمت الصواب اقترب
وما آفة الفقر إلا اللجاج
وفعلك ما قد جهلت اعتراف (2)

وقد نظم حكمة تحت عنوان (لا تفعل) في كتابه (منظومات تربوية للمدارس الابتدائية)، وأفكارها
صالحة للكبار والصغار :

قال أصحاب الكلم
لا ترم ما لــــم تطق
كلمة فيــــها حكم
حمله من كــــل هم
لا تثق بامــــرأة
كيف كانت واتهم (3)

وحسبنا أن الشيخ لا يظلم في حكمه أحدا (فحسب معرفتنا به وبهم، فإنه لا يحمل حقدا لأحد منهم
رغم أنه أودى كثيرا من بعضهم). (4) فيقول بروح رحيمة :

أحق الناس بالرحمة
وذو عزه وذو سطوة
وذو مال وذو ثروة
عليم بــــين جهال
ولكن ذل في الحال
فقيرا صار فــــي الآل (5)

كما تحدث عن فعل الخير وتركه، فقال :

الناس في الخير عند الناس أربعة
وتارك الخــــير من فقر أم به
من يفعل الخير بدء فهو ذا كرم
فهو الشقي وصفر الكف من نعم (6)

أما إذا توفرت سبعة أمور فإن العيش يطيب، كما يقول الشيخ في هذه المقطوعة :

طيب الحياة وطيب العيش مقرون

1. ديوان الدموع السوداء ج 1. ص: 24.

2. المصدر نفسه ج 2. ص: 48.

3. المصدر نفسه ج 1. ص: 120.

4. د/ أبو القاسم سعد الله: مجادلة الآخر. ص: 207.

5. ديوان الدموع السوداء ج 1. ص: 110.

6. المصدر نفسه ج 2. ص: 47.

بروز نجل وخل نافـع وكذا
وزوجة صلحت في البيت قابعة
ومن خلال تجاربه في الحياة يقول :

سبعة ليس لهم أمان
والبحر والصديق والسلطان

ومما يلاحظ على حكم الشيخ استخدامه للأرقام (سبعة ليس لهم أمان) (سبعة شروط يطيب بها العيش)
و(خمسة لا يفلحون أبدا) يقول فيها :

وقالت الحكمة إن خمساً
الجاهل الكذاب ذو الطغيان
وحاسد في قلبه التيساع
وقال أيضا :

أربعة لا يخفون أبدا
ومن أعد للحياة العدة

ومن خلال معرفته بالناس وطباعهم وجد أن (البشر ثلثاه شر) حيث بدأ بدلالة لفظ (البشر) إذا حذف
منها حرف الباء وضعف الحرف الأخير:

وقال قوم بشـر ثلثاه
والشر لفظ جامع القبائح

أما في آخر الديوان، وبعد أن بلغ الشيخ من الكبر عتيا، وسير أغوار الناس، جمع نصائحه في ثمانية
وعشرين بيتا وعنونها بـ(نصيحة مجرب) قال :

هذا الذي قد تـراه
فإن قنعت بعـلم
فالعـلم بالمـال عـز
والمال بالعـلم كـنز

أمن يعم جميع الأهل مضمون
وخادم عاقل إن كان مأمون (1)

المال والمرأة والزمان
وأعظم الجميع ذا السلطان (2)

ومن يلاحظ على حكم الشيخ استخدامه للأرقام (سبعة ليس لهم أمان) (سبعة شروط يطيب بها العيش)

لن يفلحوا ولو تعالوا نفسا
ومبتلى بشهوة النسيان
وزاهد وزهده مخداع (3)

مكافح وقصده قد حـدا
بالصبر والأناة طول المدة (4)

ومن خلال معرفته بالناس وطباعهم وجد أن (البشر ثلثاه شر) حيث بدأ بدلالة لفظ (البشر) إذا حذف
منها حرف الباء وضعف الحرف الأخير:

شـر إذا ما ضعفت أخراه
وجامع المساوي والفضائح (5)

أما في آخر الديوان، وبعد أن بلغ الشيخ من الكبر عتيا، وسير أغوار الناس، جمع نصائحه في ثمانية
وعشرين بيتا وعنونها بـ(نصيحة مجرب) قال :

بأكثر القوم قـما
تعش ذليلا ملامـا
يقيك في الناس ذامـا
يقيك فقـرا زواما

1. ديوان الدموع السوداء ج.1 ص: 128.

2. المصدر نفسه ج.2 ص: 81.

3.4. المصدر نفسه ج.2 ص: 51.

5. المصدر نفسه ج.2 ص: 52.

وحاذر الناس تسلم

وقل سلاما ســــلاما (1)

وهو في ذلك يتفق مع المتنبي حين يقول :

ذا عفة فلعلــــله لا يظلم(2)

والظلم من شيم النفوس فإن تجد

أو قوله :

وبالناس روى رحمه غير راحم

ومن عرف الأيام معرفتي بها

ولا في الردى الجاري عليكم بأثم (3)

فلا هو مرحوم إذا ظفروا به

ثانيا : الأغراض الموضوعية :

أدب الأطفال :

كان الشيخ التليلي منذ عودته من جامع الزيتونة يريد أن يعلم الناس ، ويرشدهم إلى الطريق الصواب ، فكان يدرس الأطفال في المدارس ، ويتنقل من أجل ذلك من منطقة إلى أخرى ، وانطلاقا من هذه المبادئ نظم الشيخ التليلي عشرات النصوص الشعرية الموجهة للأطفال ، وكلها تدور في فلك التربية والتعليم ولا تخرج عن نطاق المدرسة ، فهو يرى أن الشعر سلاح ضد الجهل ، وظهر ذلك في ديوانه (الدموع السوداء) وقد أعاد نظم الجزء الخاص بالأطفال في ديوانه الموسوم بـ"منظومات تربوية للمدارس الابتدائية" وهو يحمل بصمات الاتجاه الإصلاحية بشكل واضح وجلي ، ويحدد في مقدمته الدافع القوي إلى نظم هذه القصائد والأناشيد ، فيقول : "وبعد فهذا هو القسم الثاني من ديوان الدموع السوداء أو مرآة حياتي ، خصصته للمدرسيات أو القطع المنظومة الخاصة بالمدارس ، وطلبة المدارس ومن في مستواهم الابتدائي حتى مستواهم التكميلي ، تربية لهم على كريم الأخلاق وشريف الطباع ، وتوجيهها لهم إلى التدين بالدين الإسلامي الحنيف والتشبث بوطنهم العربي الشريف ، وتنشيطا لهم على الأعمال المثمرة ، والدراسات المفيدة النافعة ، والإقبال على دروسهم في كل الأحيان ، ولا سيما الدروس القرآنية ، وترويحاً على نفوسهم اللعوبة من عناء الدروس المتعبة المجهدة(4)

والمتصفح لديوان الشيخ محمد الطاهر التليلي يلحظ بروز هذا الاتجاه المدرسي الديني من خلال عناوين القصائد والمقطوعات مثل ، تلميذ يرحب بزائر ، أحفظ كتابك ، وقد حاول الشيخ الخروج من نطاق مخاطبة الكبار إلى التعبير عن قضايا الطفولة واهتماماتها . فجاءت القصائد التعليمية متنوعة حسب المواد التي كان

1. ديوان الدموع السوداء ج 2. ص: 77.

2. عبد الرحمن البرقوقي : شرح ديوان المتنبي. دار الكتاب العربي. د ط س 1986 ج 4. ص: 253.

3. المرجع نفسه. ص: 238.

4. محمد الطاهر التليلي: منظومات تربوية للمدارس الابتدائية ، دون ذكر الناشر ولا سنة النشر. ص: 01.

التلاميذ يدرسونها، وقد بث الشيخ من خلال القصائد والأناشيد الدينية والوطنية، سلوكا عمليا في فترات
الدرس، منها :

1- حث الطلبة على الدراسة المفيدة النافعة، وترغيبهم في التحصيل العلمي المفيد لاسيما حفظ القرآن

، حيث يقول في قصيدة (كتاب الله) :

وأجدر بالتلاوة من سواه
بكونك في الأولى قطفوا جناه(1)
فقم وأحفظ كتاب الله تحفظ
ويعطي نتيجة حفظ القرآن في قوله :

ومن يحفظ القرآن كان دليله
ونظم قصيدة يعلم فيها تلاميذ المدارس الفرق بين الأشهر المعدودات والمعلومات فقال :

لدينا أشهر ذكرت بحج
وفي القرآن أيام تسمت
وأيام تسمى المعلومات
بأيام لديهم معدودات (3)

ونظم أسماء الله الحسنى ليسهل على التلاميذ حفظها :

فلله ربي كل وصف مشرف
ومن دروس التاريخ الإسلامي يقول :

عشرون ألفا قدموا من يثرب
ويعرفهم بأبناء الأثير فيقول :

ألا إن أبناء الأثير ثلاثئة
علي ونصبر الله ثم المبارك (6)

كما يترجم ميلاد ووفاة الشيخ عبد الله بن المبارك قائلا :

ومن عجيب الصدف المواتيه
دلت على الوفاة والولاده
ثلاثئة من الأرقام الآتية
لبعضهم من دون ما زيادة(7)

أما في دروس النحو والصرف، يقول في إبدال الحروف :

قد يبدل السين صادًا قبل أربعة
من الحروف إذا ما السين قد وقعت

1. ديوان الدموع السوداء ج1 ص: 159.

2. المصدر نفسه ج2 ص: 27.

3. المصدر نفسه ج2 ص: 48.

4. المصدر نفسه ج1 ص: 24.

5. المصدر نفسه ج2 ص: 29.

الحاء والطاء ثم الغين قافهم فتلك فائدة من بعضهم سُمعت(1)

وقد يغير الشيخ التليلي طريقة النظم ، فيجعلها على شكل سؤال وجواب ، وهي طريقة استفادها من قراءته في كتاب الإمتاع للتوحيدي :

يا من له في صنوف اللفظ تصنيف
ومن الجواب قوله :

في سؤالكم يا سيدي علم وتشريف
جوابه عندنا لا شك معـروف(2)

ولم ينس الشيخ التليلي الجانب المعجمي ، فقال يشرح كلمة (طويل) :

إن الطويل جمـعه طوال
بكسـر والطويل قالوا (3)

وعُرف الشيخ التليلي بكثرة قراءاته في مختلف المجالات والعلوم ، ولم يبخل على طلبته بما قرأه في الكتب ، فنظم قصيدة جمع فيها ما قرأه من كتاب (زاد المعاد) :

قال الذين لهم بالطب معرفة وبالطباع وبالأمراض والداء
لا تقربن أموراً في تناولها مضرّة وانهدام في الأصحاء
الحزن والجوع ثم الهم كثرته وكثرة الشرب عند الريق للماء(4)

وطلب من التلاميذ المحافظة على الكتاب فقال :

احفظ كتابك في الخزانة محكما
وابخل به عن عالم أو جاهل
فمن السفاهة أن تعير وتشتري
ومن الحماقّة أن تطالب من نكر(5)

2- غرس قيم الدين الإسلامي الحنيف وتجسيده عمليا من خلال القصائد المحفزة على ذلك منها :

قصيدة للبنات تبين ضرورة ارتداء الحجاب :

إن التدين حلـية
أجمل بها عند الفتاة(6)

ويدعو التلاميذ إلى عدم الخوف إلا من الله تعالى قائلا :

لا تخش غير الله في كل الأمور ولا تقس
واحفظ عقيدتك التي كانت لفعلك كالأنس

4.3.2.1. ديوان الدموع السوداء .ج.2.ص: 49- 46 - 51 - 50.

6.5. المصدر نفسه ج.1.ص: 85- 31.

- واسجد لربك دائماً
كما مدح الرسول قائلاً :
- ميلاد أحمد طه
فلتحفظوا يا صغاري
- وتحدث عن راحة الإنسان ، استنبطها من حكم ثابت بن قره حيث يقول :
- أين تكون راحة الأنعام
قد ذكروا في راحة الأجسام
- 3- تربية التلاميذ على كريم الصفات وشريف الطباع ، يقول على لسان تلميذ في قصيدة (الترحيب بالضيف) :
- أيأزائر هذا المكان تكرماً
حللتهم ضيوفاً بين أهل وخلة
- ويقول في قصيدة (الترحيب بالشيخ) :
- أيها الشيخ الإمام
قد طلعت الآن بدرا
- ومن نشيد نظمه الشيخ يفيض حماساً وشحذاً لهمم أطفال مدرسة (كمبيطة) ببيجاية سنة 1935 :
- أيها النشء قم وحي الكراما
ويرد التلاميذ بعده :
- مرحبا يا مرحبا
هذا بيت النجبا
- ويحث التلاميذ على أداء الواجب في قصيدة (أنا لا أنسى الواجب) قائلاً :
- لست والله بناس
وإذ ملت براسي
- عند العشية والغلس (1)
نور أسماء الأمم
تاريخ هادي النسم (2)
في يقظة أو سنة الأحلام
تقليلها من كثرة الطعام (3)
- نزلتهم رحيباً أهلاً ومُدانياً
وإخوان صدق في حليك اللياليا (4)
أيها الحبر الهمام
بين هالات التمام (5)
- مرحبا بالزائرين
فادخلوه آمنين (6)
- هكذا فالقلب راسي (7)

1. 4.3.2 ديوان اللموع السوداء .ج.1.ص: 153 - 120 - 121 - 160.

5.المصدر نفسه .ج.2.ص: 28.

7.6.المصدر نفسه .ج.1.ص: 128 - 154.

ويحث تلاميذ مدرسة (كمبيطة) على طلب العلا قائلًا :

صغير الشعب هيا للمعالي
وحى المجد تحت ضياء الهلال
وأدرك من علوا نجم الكمال
فذاك النجم قد ناداك هيا (1)

3- غرس الروح الوطنية، وربط التلاميذ ببلادهم وذلك من خلال نشيد نظمه لتلاميذ مدرسة (كمبيطة) :

وطني العزيز ولا عزيز غيره
وأنا الذليل لعززه أفديه
قومي وإن جهلوا علي حقارة
وزهادة من عالم وسفيه
فلهم على مر الزمان فضائل
في كل عصر سائده ونبيه (2)

وفي 11 ديسمبر كانت السماء تعج بأزيز الطائرات ، فكتب الشيخ التليلي للتلاميذ ليلة الجمعة هذه الأبيات بالعنوان التالي (رؤيا صادقة فمن يعبرها) (3):

رأيت في النوم ليلا
رؤيا منام عميق
كأنني بين قـوم
هم تراب الطريق
مرت بهم سود طير
من الحديد الرقيق (4)

ونظم الشيخ التليلي قصصا للصغار منها قصة خيالية عن مؤتمر لبعض الحيوانات القوية فقال :

خرجت وطفيت بعيدا بعيداً
عن الغاب كي لا أفوت البلد
إذا بالوحوش على مهلها
تسير إلى مكن مرتصد
ولما لمحت على بعد
هزبرا تلفت ثم قصد (5)

ونظم قصة أخرى حول عراك بين قط وحمار وسماها (منظر عجيب) :

قد رأينا ما رأينا
لعبة فيها عجب
قطه فوق حمار
قد تولاها الطرب
وكلاب الحي ترنو
بعيون من ذهب (6)

وهي قصص هادفة يؤخذ منها مغزى .

1. ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 81.

2. المصدر نفسه ج1.ص: 159.

3. محمد الطاهر التليلي: منظومات تربوية للمدارس الابتدائية. ص: 14.

4. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 146.

5.6. المصدر نفسه ج1.ص: 59- 25.

النقد الاجتماعي :

تعرض الشاعر في الديوان لبعض القضايا الاجتماعية كالفقر، والشباب، وزواج الشيخ الكبير، وكذا التبذير في الأعراس وغيرها، وجاءت في خمس قصائد.

إن الشباب هي الشريحة الأكثر اهتماما في المجتمع، والشيخ حريص على نقل أفكارهم وآرائهم، يقول على لسان بعض الشباب :

أيا شهر الصيام إليك عنا
لأن عفنا الطعام بياض يوم
نقوم الليل لكن في الملاهي
وتصل درجة الجحود والنكران قولهم :

وقل لله يوم العرض إني رأيت شبابنا في الملحدينا (2)

وتحدث عن الشيخ الذي بلغ من الكبر عتيا وتزوج فتاة تحت الثلاثين، وهي بشكل قصة اجتماعية من ستة وسبعين بيتا، وبين تأثير الأيام والسنين فيه، فقل سمعه وبصره والعقل منه تعدى، وأخذ يشتكي وحدته، ثم تزوج فتاة تحت الثلاثين، يريد تجديد عمره، فكان من سوء حظه :

أتتني ربة بيت
فقلت ضيف خـجول
والقلب يحمل حقدًا
به الحياء تبـدى (3)

لكنه اعترف بخطئه، وأن لمقامه عجوزا لا تعيب عليه مشييه، وتطيعه بين الحين والآخر. ولا تخلو القصيدة من النصيحة، فهي تحمل مغزى مفادها أن الإنسان عليه أن يختار ما يناسبه :

إن عاكستك الليالي
ففي الكرامة شـيء
ففي الكرامة شـيء
ففي الكرامة شـيء
ففي الكرامة شـيء
ففي الكرامة شـيء

يتمتع الشاعر بقدرة فريدة على تصوير وتشخيص الشخصيات، والهدف منها تصوير الواقع وأخذ العبر. وتأمل الشيخ المناسبات والأفراح التي تقيمها العائلات في البلدة فوجد أنها تتلف مال صاحبها وترجعه صفر اليدين :

لكنما الأفراح وهي مآتم حسب العوائد بذرت تبذيرا

إن كان عرس فالحسارة جمعة
فإن نهيت وقلت أمر منكر
قالت وقالت ثم قالت أختها
والكل ينهب قاصدا تفقيرا
هذا الذي تأتيه محظورا
عادتنا أن نبذ التقصيرا (1)

وأكد على نبذ العادات القديمة السيئة والاهتمام بتطوير البلاد وإخراجها من ظلمة الجهل .
ولأن الناس تهمهم المظاهر ، وصاحب المال له مكانة مرموقة في نظرهم بينما من نقصه المال كان مطية
إذلال. فقد تطرق لآفة اجتماعية تقف حائلا أمام أداء الكثير من الواجبات وهي الفقر ومشاكله ، ما كان
منه إلا أن طلب التوجه إلى بيوت الشعوذة - التي يؤمن بها الناس - وعرض الفكرة على الدجالين
والمحتالين :

فأذهب لحاكم جن
وقل أيتك كيما
يقول للجن هيا
وأنت قرب إليّ
وادفع إليه إوزا
أزبل بالفهم عجزا
فإن أبيتهم فوكزا
أريك بالعلم طرزا (2)

ويطلب منه أن يذبح في بيته ، وعندما تأتيه الجن يطلب ما يريد ، فطلب تفسير اللغز :

لغزي تحسرت فيه
ما بال شيء حقير
من فاته منه شيء
ولو فهمت لأجزى
له العزاة تعزى
يظل في الناس كزا (3)

فهو يعالج قضية المال ، وأن من ملكه أثار اهتمام الناس وإن كان فقيرا ، ومن فقده أثار سخطهم وإن كان
عالما لكن الجن تعلم أثر المال في الناس :

أما وكفك صفر
أنت العدو لكـل
فأنت صفر مجزى
وأنت لم تجن خـرزا (4)

وبين له أثر ذلك على نفسه وعلى دينه و دنياه ، وفي الأخير تطلب الجن منه أن يسأل الله الرزق.
كما صور قصة رجل قروي غادر ربه إلى المدينة وأهوائها ، فوجد ما أدهشه :

فتحت عيني في المفاتن كلها
فوضعت كفي فوق حاجب مقلتي
فأصاب سهم قاتل مسنون
وغضضت طرفي كي تكف شؤون

وسألت قلبي هل أصبت فقال لي
فليشهد الله الجميل بأنني
لا تسأل المقتول كيف يكون
بجمال كل مليحة مفتون (1)
ويفر بنفسه إلى الله تعالى طلبا للمساعدة والحماية ، فهو بموقف سيدنا يوسف عليه السلام ، عندما يقول
الشيخ :

إن لم تكن لي يا إلهي فإنني
وفي جو مشحون بالسخرية من الحضارة والتمدن التي تبيح الانحلال والابتعاد عن الدين ، يقول :
واشرح هواك وكل ما أضمرتَه
لا تحش دينا داسه القانـون (3)
أصبوا وأخشى أن تكون فتون (2)

الموضوعات الوطنية :

كان الشيخ منذ عودته من تونس يرغب في خدمة وطنه ، فأخذ مبادئ جمعية العلماء المسلمين
الجزائريين ، وصال وجال في أقطار كثيرة مدرسا وموجها ، رغم ما لاقاه من عنت الناس ومكرهم ،
من ذلك ما قاله في توجيه بلاده :

يا بلادي تنبهي من سبـات
وانظري في سماء هذي الحياة
واغسلي العين من قذى الغفلات
تنظري النور حول كل الجهات
إنما اليوم مبدأ الغايات (4)

ثم ينتقل إلى زعماء الإصلاح ، ويبين قدرتهم على إنارة الطريق للناس ، والتذكير بأمجاد العرب قائلا :

يا رجال التاريخ أهل البصائر
وانشروا ما وجدتم من مفاخر
قلبوا الماضي وانظروا في الدفاتر
لجدود بنـوا صروح الحياة
إنما اليوم مبدأ الغايات (5)

أما قصيدة(قصة أم) فقد نظمها في خمسة وثلاثين بيتا ، على شكل مسرحية رمزية ، وهذا النوع من القصائد
ليس جديدا على الشاعر ، فقد استخدمه في الجانب الاجتماعي وأدب الأطفال .

ملخص المسرحية : شاب يمشي هائما على وجهه ، لا يعرف وجهته :

سلام عليكم سلام امـرئ
تقمص بالأمس ثوب الشباب

2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 132.

5.4.3. المصدر نفسه ج1.ص: 133 - 26 - 27.

ولم يدر أين وكيف الصواب (1)

إليّ بني فهشوا الذئباب
تئن أنين المريض المصّاب
وهذا الغراب وذاك العقاب
وتنعق والأم وسط العذاب (2)

أخذت نتاجي السماء والليل، وتبحث عن مغيث، فإذا بشاب يطمئنّها ويقف لمساعدتها، ويهب حياته
ضمانا لها :

إذا أنا هبت صعود الصعاب
يهد بها كل حصن وباب (3)
لترميم بيت عراه الخراب (4)

تحير لم يدر أين الطريق

لكنه سمع من بعيد صوتا متعبا ينادي :

ينادي هلم هلم إليّ
إذا بالجزائر أم الجمييع
فهاذي الكلاب وهاذي الذئاب
تدور عليه تهر وتعووي

وهاك حياتي ضمانا لديك
فحق على ابـن الجزائر أن
ويدعو الناس للتجند من أجل مساعدة الجزائر :
ألا يا شباب الجـزائر قم

الموضوعات الدينية :

حياة الشيخ كانت بين يدي الناس ناصحا ومرشدا وواعظا، ورغم أنه أفرد كتباً في مجال الديني،
إلا أن التربية الدينية تطل عليه أينما خط قلمه، وتظهر في ثنايا القصائد أو مستقلة في مقطوعات. يتحدث
الشيخ التليلي عن فرحته بالمولد النبوي الشريف :

لما بدا مرسل من أمة العرب
ونبه الناس حين الناس في صخب
من الأقارب واذكر سورة الغضب (5)

أكاد أعلو السها من فارط الطرب
أتى إلى الكون حين الكون في مرض
لا تذكرن ما رأى من أجل دعوته

ويزج الفخر بالعتاب، مفتخرا بشهامة وصبر الرسول، ومعاتباً الناس بعدهم عن الدين. ويحيي فتية العلم
قائلا :

حييت من ولد يا نشء فاقترب
واطلبه بالجد والإتقان والدأب (6)

يا نشء أنت الذي مازلت ماملنا
لا تسأم العلم واجلس في مجالسه

2.1. ديوان الدموع السوداء ج.1 ص: 12.

4.3. المصدر نفسه ج.1 ص: 13.

6.5. المصدر نفسه ج.1 ص: 14 - 16.

ونظم مقطوعات تحدث فيها عن الغيبة وجمعها في سبعة :

- | | |
|-----------------------------------|-------------------------------------|
| القدح في سبعة مباح | فما على قـادح جناح |
| في فاسق فسقه تجلـى | وجائر جوره صـراح (1) |
| أما الكذب فهو حرام إلا في مواضع : | |
| الكذب في الأصل لا يجوز | إذ ليس في كذبنا صلاح |
| إلا إذا الحال لزقـوما | في الحرب فالكذب قد يباح |
| وفي الذي قد سعى بظلم | ولم يكن غيره سـلاح |
| وفي حديث الزوجين جاءت | نصوص شرع به صحاح (2) |
| كما تحدث عن صرف الدينار الشرعي : | |
| نكاح زكاة ثم صرف بجزية | إليها دينار الشرع في الفقه ينسب (3) |

2.1. ديوان الدموع السوداء .ج.2.ص : 47.

3.المصدر نفسه ج.1.ص : 25.

الفصل الثالث

الظواهر الفنية في الديوان :

اللغة الشعرية

الصورة الفنية

الموسيقى

اللغة الشعرية :

إن معرفتنا بالكيفية التي تعامل بها الشيخ الطاهر التليلي مع أدوات التشكيل قصد إنشاء شعره في إطار السياق التاريخي والاجتماعي ، جعلنا نتعرف عن البنية التشكيلية الخاصة لشعره. واللغة هي وسيلة من وسائل التفاهم بين الناس ، وما وجد اللفظ المعجمي إلا ليدل على شيء محدد لا يتخطاه إلى شيء آخر أما في الشعر فالأمر مختلف ، لأن الألفاظ يمكن أن تتجاوز معناها المعجمي إلى معان أخرى أكثر اتساعا . واللغة في التعبير الشعري تختلف من عصر إلى عصر ، من خلال اختلاف الأطر والقيم والظروف التي تحيط بكل عصر من العصور وتكيف مع ما يحيط بها ، فتحمل الجديد من الشحنات التعبيرية كلما تجددت الأفعال والمواقف ، وهذا ما يضع بين أيدينا الوظيفة السحرية للكلمة ، وهي وظيفة ما زالت تمارس حتى الآن .

أولا : منزلة اللفظ في الصياغة الشعرية :

إن للكلمة المعبرة ، واللغة المتميزة دور كبير ، لذلك يجب على الشاعر أن يكون عالما بأسرار اللغة ، وأن يقف على معانيها ، ويستنفذ طاقتها لتلائم مشاعره ، وبذلك يكون قد وقف بين المناسبة والحالة الشعورية وحسن اختيار اللفظة .

ويلفت ابن طباطبا العلوي (ت322) أنظارنا لأهمية اللفظة و موقعها يقول : (قال أحد الفلاسفة إن للنفس كلمات روحانية من جنس ذاتها وجعل ذلك برهان على نفع الرُّقى ونجعها فيما تستعمل له). (1)

كما أن اللغة أداة هامة في توصيل المعاني ، ونقل الأفكار والعواطف فهي تكشف عن العالم الداخل لكل فرد ، فالحياة النفسية هي أهم الجوانب التي يجدر بنا التعرف عليها ، لأنها هي التي تسيّر حياة الفرد ، فاللغة إذا هي (رموز وحالات نفسية ، هي مادة للفكر ، فالصوت اللغوي وظيفه عقلية ، لها دلالاتها على الكلام النفسي الداخلي) (2) وتوصف لغة الشاعر بأنها متميزة ذات دلالات خاصة ، مصدرها تجربة شعورية لذلك فإن (ألفاظ الشعر أكثر حيوية من التحديدات التي يضمها المعجم). (3) هذا يعني أن الألفاظ تتغير في معناها بحيث تضيق دلالتها وتتسع حسب ما يبث الشاعر فيها من طاقة وما يشحنه من ذات نفسه.

وإذا ما طالعنا شعر الشيخ التليلي ، فسوف نجد ه ذا حسن مرهف في حسن اختيار ألفاظه ، وقد

1. ابن طباطبا : عيار الشعر .تحقيق عباس عبد الساتر . دار الكتب العلمية بيروت . ط1س 1982. ص : 22.

2. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث. دار النهضة مصر. س 1997. ص : 39.

3. عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي. دار الفكر العربي القاهرة س 2000. ص : 294.

أثرت عليه نشأته الدينية ، وحفظه للقرآن الكريم ، وتأثره بزعماء الإصلاح ، وكذلك بشعراء عصر القوة كالمثني والبحتري ، فجاءت لغته جزلة قوية. ويتضح لنا من مطالعة شعر الشيخ أن ألفاظه تميزت بـ:

(أ) _ اللفظ القرآني :

إذا طالعنا شعر الشيخ التليلي نجد أن النزعة الدينية طغت على شعره ، فقد كان الشيخ يعيش في بيئة محافظة ، كل ما فيها مصبوغ بصبغة دينية محضة ، ولما فتح عينيه على التعلم وجد نفسه في حلقات الدروس والوعظ في المسجد ينهل منها آيات القرآن والتفسير وغيرها ، وعندما كتب له مواصلة الدراسة انتقل إلى جامع الزيتونة ليتلقى آداب اللغة العربية وباقي الفنون الأخرى ، وهو ما وثق صلته بأمهات الكتب . (كان للقرآن الكريم أثره الكبير في نفوس الشعراء وكان له سحره وجاذبيته لهم) .(1) ويظهر تأثر الشيخ باللفظ القرآني من خلال اختيار ألفاظه . يقول الشيخ :

سوف أبقى في غربتي دون ياس شاربا في الكفاح كأسا دهاقا (2)

فكلمة (كأسا دهاقا) مأخوذة من قوله تعالى (وكواعب أترابا وكأسا دهاقا) (3) ، وكأسا (دهاقا) كأسا ملئ متتابعة على شاربها بكثرة أو امتلاء ، ومعنى الدهاق الممتلئة كأس الخمر الممتلئة الصافية .(4) ويقصد بها في البيت أنه مستمر في الكفاح دون توقف ، وقلبه ممتلئ بالرغبة و الحماس .
ويقول الشيخ :

لا تأمل الخــــير في زمان فالشر في الناقة البسوس (5)

وكلمة (الناقة) هي أنثى الجمل وتكنى ببنات الليل وبنات الفحل ، ومن النوق المشهورة في التاريخ .
ناقة الله لثمود - وناقة الرسول صلى الله عليه وسلم - وناقة البسوس ؛ والبسوس هي امرأة استجارت بشخص اسمه جصاص بن مرة ، وحين رأى ناقتها كليب بن ربيعة ترعى في حماه ، قتل فصيلها فثارت الحرب بسببها بين قبيلتي بكر وتغلب مدة أربعين عاما ، وسميت حرب البسوس ، وبذلك تكون هذه هي ناقة الشر ، وقد وردت في قوله تعالى : (إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر) (6).

1. محمد ناصر بوحجام : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث . المطبعة العربية ج1.س 1992.ص : 41.

2. ديوان الدموع السوداء ج.1 ص : 43.

3. سورة (النبا) الآية : 34.

4. الإمام المفر بن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري : مختصر تفسير الطبري . تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني و د/ صالح أحمد رضا. مكتبة رحاب س1991. . مجلد 2 ص : 514.

5. ديوان الدموع السوداء ج1 ص : 149.

6. سورة (القمر) . الآية 27.

يقول الشيخ :

بربك أيها الزباني قل لي
علام عن الكلام نذرت صوما (1)

وإذا نظرنا إلى قول الشيخ (نذرت صوما) نجد أنها مأخوذة من قصة مريم - عليها السلام - يقول تعالى : (فأما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما) (2) ، وهو في البيت يسأل صاحبه الزباني سبب توقفه عن إرسال الرسائل ، وانقطاع جبل الود بينهما ، فاستخدم كلمة (صوما) لما لها من إيحاء هائل في التعبير عن امتناع الرسائل .

وقال الشيخ واصفا شعره :

وقل متأسفا أنزلت رحلي
بواد غير ذي ماء معين (3)

نلاحظ جملة (واد غير ذي) المأخوذة من قصة إبراهيم _ عليه السلام _ ، يقول تعالى (قال ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع) (4) ، وكذلك كلمة (ماء معين) مأخوذة من قوله تعالى (قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتكم بماء معين) (5) ، وهو الماء الصافي ، حيث يرى الشاعر أن شعره ضعيف غائر لا يصل إلى مستوى شعر فحول الشعراء كالمتنبي والبحتري وغيرهم في الدقة و الجمال .
ويقول الشيخ :

ليتني كنت ترابا أو صفا
أو حمارا أو جهولا أحمقا (6)

فجملة (ليتني كنت ترابا) مأخوذة من قوله تعالى (ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا) (7).
ويقول الشيخ :

فمنها خمسة درت ومرت
وأنت أكلها من دون نكر (8)

مأخوذة من قوله تعالى (كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا) (9).
و يقول الشيخ :

وقد أخطأت في ظني وقولي
(وبعض الظن إثم) غير دار (10)

1. ديوان الدموع السوداء ج 1 ص : 67.

2. سورة (مريم). الآية 26.

3. ديوان الدموع السوداء ج 2 ص : 79.

4. سورة (إبراهيم) . الآية 37.

5. سورة (الملك). الآية 30.

6. ديوان الدموع السوداء ج 1 ص : 135.

7. سورة (النبا) . الآية 40.

8. ديوان الدموع السوداء ج 1 ص : 165..

9. سورة (الكهف). الآية 33.

مأخوذ من قوله تعالى (واجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم) (1).

(ب) _ اللفظ التراثي :

إن اللغة هي من أكبر الاهتمامات التي شغلت بال الشاعر والناقد على حد سواء ، علما بأن الأوضاع الاجتماعية و السياسية و التاريخية هي التي تفرز لغة الكتابة باعتبارها وسيلة تعبير عن المخزون المعرفي للأديب ، ومنه فإن المتبع للغة التي صاغ بها الشيخ التليلي بعض قصائده ، يجد أنها تكاد تكون بعيدة عن ملابسات الحياة والتغيرات التي عاش فيها ، بحيث نرى أن ألفاظه مرتبطة بواقع آخر وعصر آخر هو العصر الذهبي العباسي ، ويتضح أن الشيخ قد استقى ألفاظه وعباراته الشعرية أولا من اللفظ القرآني ثم المخزون الشعري ، أي ما حفظه من أشعار القدماء والمعاصرين له ونلاحظ ذلك في الألفاظ (الضراغم - يعرب - المجد - السيف - اليراع - النصال - السهام - النبال - العير - البرايا - الأسل - الأفنان - المجانق - القرطاس - صناديد - أوثنان) وغيرها كثير . يقول الشيخ :

به عرفنا صناديد الحروب ومن بهم زهت دولة القرطاس والقلم (2)

ويقول :

له من همة الجوزاء جزء يجشمه المشقة والضياعا (3)

ويقول في فخره بنفسه :

أنا الذي أجزرت رمحي في الوغى وكسرت سيفي طعمة للصائل (4)

ويستخدم الشيخ ألفاظا من التراث المحلي (القرداش - الغربال - الخطارة - سقيفة - الغوط - السيخاب - كوانين - قشكم - عبود - أفريك ...) يقول الشيخ في رسالة بعثها لصديقه :

وإن طلبوا فما طلبوا عزيزا كقرداش وغربال النساء

وعبود وأنشفة وفول وأفريك وخيطان العباء (5)

ويقول الشيخ عن حياة أهل قمار :

فخطارة تهوي وتصعد دائما من البئر أو في البئر دائمة الخطر

وخشبة منوال لنسج ثيابهم يحاك عليها خالص الصوف والوبر (6)

إن ثقافة الشيخ التليلي اللغوية الأصيلة ، جعلت لغته قوية جزلة إلا أنها لم تكن شاذة وحشية . فهو وإن

1. سورة (الحجرات). الآية 13.

3.2. ديوان الدموع السوداء ج 1 ص: 115 - 145

4. المصدر نفسه ج 2 ص: 41.

6.5. المصدر نفسه ج 1 ص: 04 - 80.

كان متأثراً بالتراث العربي ، تؤثر فيه البيئة الحديثة .
ونلمس من خلال الديوان أن الشيخ التليلي لم يكن يعمد للغريب من الألفاظ وإنما هو حريص على
جزالة اللغة وقوتها .

يقول الشيخ في المرح الأدبي :

بربك ألغز لبعلي وشيخي
فلا تكثرث برؤاك التسي
فضغت منامك فيه الذي
ولست إخالك إلا أخوا
فروح القرينة ليس بذاك
بأنك للعهد قد تلکز
تقض منامك أو تنغز
تقول عني الذي ترمز
يشير غبارا به يطعز
ولكنه الطهر والجمرمز

حتى يقول :

أتحسبها مثل من في الدنا
فشتان شتان ما بيننا
وتحسبني مثلها أحمرز
فذاك أريج وذا أخنز (1)

لقد قام الشيخ بشرح الكلمات الغامضة في الأبيات ليدل على عدم استخدامها في عصرنا، مثلا
يقول أن (اللكز) هو الدفع في الصدر (البونية) ، و(الغز) كالنزع بمعنى الإغراء والتحريرش ، (الطعز)
المراد به هنا اللام بلا روية ، و(الجرمز) هو الذكاء، و(الخنز) اللحم النتن .

ويقول الشيخ التليلي :

يا من بكم سكتت شقاشق غلما
لا تسكتوا عن خائن متغمد (2)

ففي القصيدة يفخر الشيخ بعمل الفتية الذين غيروا نهج الجزائر ونشروا العلم و الروح الوطنية فيها . كما
جاء في (لسان العرب) الشقشقة : لهاة البعير ولا تكون إلا للعربي من الإبل ، وشقشق الفحل : هدر
ومنه سمي الخطباء بالشقاشق . (3).

ويقول الشيخ :

شربنا من أنسه مداما
ألد من شرب خندريس (4)

وقد استعمل الشيخ أيضا كلمة (خندريس) والخندريس هي الخمر القديمة كما جاء في شرح الشيخ .

ويقول الشيخ :

1. 2.ديوان الدموع السوداء ج1. ص: 95/94 - 45.

3.ابن منظور: لسان العرب ج4. ص: 3474.

4.ديوان الدموع السوداء ج1. ص: 150.

أتيت كالبـرء في سقام

يزيل ما هد من رسييس (1)

استخدم الشيخ في البيت كلمة (رسييس) ، جاء في لسان العرب (الرس والرسييس) أول الحمى الذي يؤذن بها ويدل على ورودها ، و(الرسييس) : الشيء الثابت الذي قد لزم مكانه (2) .

(ج) _ ملائمة اللفظ للمعنى :

إن الشيخ التليلي كان على وعي صائب بلغة قومه ، وبتراثهم التشكيلي ، مما ساعده على بناء

قصائده بطريقة جمالية متفردة ، اتسمت بالوضوح والإبانة ، بعيدة عن التعقيد ، مسائرة لظروفه وطبعه ، فحينما تكون لغته عذبة بسيطة ، وحينما آخر تكون جزلة قوية خاصة عندما يجاري القدماء في بعض الأغراض كالفخر والحماسة ، ويمكننا أن نجد في شعره هذين المستويين اللغويين في أغراضه المختلفة ، فلكل معنى من معاني شعره لفظه الخاص به .

أما في الفخر ، فيتسم أسلوبه بالفخامة والقوة حتى لتحسبه عباسيا أو جاهليا .يقول الشيخ في فخره بقومه :

دياجي في المظالم والضلال

هم الإصباح حين ترى سواهم

هم في السلم حبات اللآلي

هم الأسد الضراغم في حروب

فررف فوقه علم الهلال

وقد حموا بالقضب مصحفهم زمانا

عليه اليوم تخطر في اختيال

وقد مزجوا دماءهم بترب

وكانوا في العوالم كالعوالي (3)

وكانوا كالمعالم للمعالي

وهي ألفاظ في تراكيبها تعبر عن فخر الشاعر بقومه وسيادتهم . يقول الشيخ التليلي عند زيارة الشيخ

البشير الإبراهيمي لوادي سوف سنة 1962 :

بناء أفنية النكال وما درى

هدام أبنية الضلال وغيره

أبدا ولا ولت يده القهقري (4)

ما هاب يوما قوة من قاهر

ويمكن أن نرجع هذا الأسلوب إلى دراسته في جامع الزيتونة التي تركز على الأدب من ناحية واتصاله بنماذج التراث الشعري من ناحية أخرى .

وفيما عدى قصائد الفخر والوصف ، فإن أسلوب الشيخ التليلي يميل إلى الرقة واليسر ، والسهولة

1. ديوان الدموع السوداء ج1 ص: 150

2. ابن منظور : لسان العرب ج.1 ص: 1164 .

3. ديوان الدموع السوداء ج1 ص: 101 - 87 .

والعدوابة والوضوح سواء في إخوانياته ، أو في رثائه وحنينه وعتابه وشكواه ، وسائر فنون الشعر الأخرى .
وقد اتسمت مرثيته بركة وأسى شجيين ، وبخاصة عند رثائه لوالده وزوجته ، وقد استطاع أن يعبر
عن فجيعة بتعبير جميل ، ملؤه العاطفة الصادقة . يقول الشيخ في رثاء والده بنبرة حزينة :

جل المصاب وجلت الأوصاب	وتمزقت في جسمنا أعصاب
وتطايرت منا الحلووم فغادرت	أجسامنا فكأنها أقصاب
وتراخت الأعضاء سكرى حيرة	وثاقلت فكأنها أنصاب
لو كان يفدى ميت لفديته	بالروح لكن القضا غلاب (1)

قد استخدم الشيخ ألفاظا سهلة تصل إلى القلوب مباشرة ، فلا غريب فيها ولا تعقيد ، نلاحظ
استخدامه للفعل (تمزقت) الذي يدل على التشتت والضعف ، لقد كان وقع وفاة والده عظيما في نفسه ،
ظهر ذلك من خلال الأفعال (تراخت - ثاقلت) ، أما كلمة (سكرى) فهي تدل على الحيرة والتهيه ،
وكذلك (أقصاب) التي تدل على فقدان التركيز وذهاب التفكير من هول الحادثة ، وتوحي مع كلمة (أنصاب)
بالتواجد الحسي ، وتشتت العقل .

ويقول الشيخ في قصيدة الغزل الوحيدة التي تفيض عدوية ورقة :

كلانا يقص ويفضي بما	يكن من الوجد لا يوجز
حديث الوداد وقول السداد	وبسط المراد به نقفز (2)

نلاحظ الكلمات الدالة على الشوق والفرح والحنين للقاء زوجته المتوفاة وإن كان في المنام (يقص -
يفضي - لا يوجز - الوداد - نقفز) .

وكذلك كان أسلوبه في شوقه لتونس وجامع الزيتونة ، فهو عذب سلس ، يذوب شوقا وولها به ويعلمه
أما عندما يخاطب الشيخ التليلي الأطفال ، تكون ألفاظه دقيقة بسيطة ، تصل إلى ذهن الطفل ، ويصبغها
بصبغة النصح والإرشاد ، كيف لا وهو المعلم وقائد مدرسة النجاح بقمار ، فيختلف أسلوبه بذلك بين
الشدّة واللين ، حيث يستخدم أسلوب الأمر بغرض بث روح الحماسة :

صغير الشعب هيا للمعالي	وحي المجد تحت ضيا الهلال
وأدرك من علو نجم الكمال	فذاك النجم قد ناداك هيا
فقف يا ابن الذين أراك منهم	على ساق العزيمة وانظرنهم
وصفح معجم التاريخ عنهم	تجدهم حلقوا فـوق الثرايا (3)

2.1. ديوان الدموع السوداء ج 1. ص: 20 - 94.

3. المصدر نفسه ج 2 ص: 81.

حيث يبعث الشيخ في الأطفال دفقة وجدانية تحيي فيهم روح المسؤولية ، خاصة أن كل قصائد الأطفال نظمها في فترة الاحتلال الفرنسي الجزائر ، (وبذلك يتشكل وجدانه بما فيه من انفعالات وعواطف ومشاعر) (1).

ونلاحظ الألفاظ التي استخدمها (المعالي - نجم الكمال - المجد - ساق العزيمة - حلقوا فوق الثريا) هي ألفاظ توسع مداركهم وتنمي الثروة اللغوية لديهم من خلال قصائد النشيد أو القصص و المسرحيات .(إن ازدياد حصيلة الطفل من الثروة اللغوية، يتناسب تناسباً طردياً مع تحصيله الثقافي والعلمي ومع خبرته، وإنما الثروة اللغوية تعني ارتقاء مستوى الطفل ثقافياً وعلمياً، وتطوره في مجال التذوق الجمالي ، واتساع دائرة استماعه وجدانياً وعقلياً) (2).

ويقول الشيخ في قصيدة مؤتمر الوحوش :

لأصطاد من دوحه ما أجد	خرجت إلى الغاب يوم الخميس
وكلبي صحبت ورمحي الأحد	حصاني علوت وقوسي معي
تسير إلى مكمن مرتصد	إذا بالوحوش على مهلها
	ثم يقول :

فقال اسمعوا كل باب يسد	وقد فتح الليث باب الكلام
من النمل يبغي قتال الأسد	وقد قال فيهم ألا تعجبون
بعوض صغير قتالي يود	كذا النمر قال ألا تضحكون
من الإبل قال المقال الأسد	وعقب قول الجميع عظيم
بقوى ضعيف إذا ما اتحد	فلا يهزأن قوي سليط
ظلوم تجبر ثم استبد(3)	ولا يفخرن بقوته

إن القصيدة التي بين أيدينا تتعدد فيها القراءات :

- القراءة الأولى : إن القراءة الأولية للنص تظهر حكاية مسلية للأطفال ، وقد أعطى الحيوانات تصرفات الإنسان ، لتدخل البهجة والفرح في النفوس اللعوب - كما قال الشيخ - ويعطي في الأخير موعظة تبين عاقبة الظلم والغرور .

- القراءة الثانية : إن القراءة الثانية أكثر عمقا بحيث تغوص في أفكار القصة ، وتبرز أحداثها المتعلقة بالقضية الجزائرية أثناء الثورة التحريرية . وما يعاينه الشعب من ظلم المستعمر ، مما أعمى بصيرته عن قوة الضعفاء

1.2.د/ نجيب الكيلاني : أدب الأطفال في ضوء الإسلام . مؤسسة الرسالة . ط4س1998 . ص: 108- 147.

3.ديوان الدموع السوداء ج 1 . ص: 60/59.

، إذا تمكنت منهم إرادة الشعب .(إن مثل هذا الأدب الذي يستغل قصص الحيوانات للتعبير عن هموم سياسية واجتماعية ليس جديدا في أدبنا العربي ..فقد برزت قراءات جادة ربطت بالأوضاع السياسية في عصر ابن المقفع ...) (1).

أما ما نلاحظه في قصيدة (قصة أم) ، حيث استخدم الرمز ، فالأم هي رمز الوطن ، والذئب رمز العدو الظالم ، وهي أيضا تتضمن أكثر من قراءة ،

- القراءة الأولى : هي قصة أم جريحة في الغابة تحيط بها الحيوانات من كلاب وذئب وغراب وعقاب .

- أما القراءة الثانية : هي قصة سياسية موضوعها الاحتلال الفرنسي للجزائر ، فالأم الجريح هي الجزائر ،

و الحيوانات هي المستعر الذي يريد افتراسها ، حيث يقول :

إذا بالجزائر — أم الجميع تئن أنين المريض المصاب

وهذا الغراب وذاك العقاب وهادي الكلاب وهادي الذئب

تدور عليها تهر وتعووي وتنق والأم وسط العذاب (2)

إن هذه الدراسة تكشف مدى قدرة الشيخ على استخدام أسرار اللغة والإيقاع بشكل متساوق بين المضامين والأفكار التي يحملها النص الأدبي ، كما تظهر تداخلا كبيرا بين عالم كتابة الطفل وعالم الكتابة السياسية للكبار . إن هذا كله يزيد القصيدة عمقا وجمالا . والشاعر لا يسمى شاعرا إلا لسبب بسيط وأساسي (وهو قدرته على خلق الألفاظ أي خلقها في مكانها) .(3)

ولا يقصد من ذلك التقليل من أهمية العاطفة أو الأفكار ولكن القصيد بيان دور الكلمة المهم في خلق الشعر .(فالناس جميعا ذوو فكر وعاطفة لكن القلة القليلة صاحبة القدرة على التعبير وصناعة الكلمات). (4).

(د) - التكرار :

التكرار هو وسيلة من الوسائل اللغوية التي يمكن أن تؤدي دورا تعبيريا واضحا في القصيدة ، (تكرار لفظة أو عبارة يؤدي بشكل أولي إلى سيطرة هذا العنصر المكرر وإحاحه على فكر الشاعر أو شعوره أو لا شعوره ، ومن ثم فهو لا يفتأ يخرج في رؤياه من لحظة لأخرى) .(5)

وللتكرار وظيفة إيحائية هامة تدل على الرغبة في تأكيد المعنى ، وقد استخدم الشيخ تكرار الكلمة

1. عادل محلو- أحمد زغب : دراسات في أدب الأطفال. من إصدارات رابطة الفكر والإبداع بالوادي .مطبعة مزوار. د ط ، س 2004.ص: 28.

2. ديوان الدموع السوداء. ج 1. ص : 12.

3. إبراهيم أمين الزرزموني : الصورة الفنية في شعر علي الجارم. دار قباء. س 2000. ص: 118 - 119.

5. النعمان القاضي : أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي. دار الثقافة س 1982 ص: 402 / 403.

أو العبارة في عدة أبيات متتالية ، كصنيعه في رثاء زوجته التي سماها (الزوجة الشهيدة) ، فقد كرر لفظة (يا نفس) أكثر من مرة :

يا نفس لا تظهرى حزنا لحادثة
فالموت عن كارثات الدهر يلهيك
يا نفس بعضك مات اليوم فارتقبي
تلك البقية في الموتى تلايك
فعنك يا نفس غابت شمس مجمعنا
وخلفت بعدها آثارها فيك
يا نفس لا تفرحي من بعد غيبتهم
فلن تري بعدهم خيرا يسليك (1)

فحزن الشيخ كبير على فقد زوجته ، وأظهرت الأبيات مدى انفعاله ، وقد أدى التكرار في أبيات متعاقبة من مرثيته هذه وظيفة إيحائية ، تمثلت في إظهار مدى تفجعه وتضعضه تحت هول المصاب ، ومدى ما عاناه من فقد زوجته التي كانت له ملاذاً ونصيراً. ويكرر جملة (بعتك اليوم) ثلاث مرات في نفس الجو الحزين من وداع يائس خلف وراء قلبا محطما فارغا بلا روح ، يقول في قصيدة (وداع كتاب) :

بعتك اليوم واشتريتك أمس
يا كتابي وأنت في الكل أنسي
بعتك اليوم خاضعا لظروف
وصروف من الزمان المنسي
بعتك اليوم والدموع جوار
عند بيعك يا كتابي بيخس (2)

ومن أمثلة التكرار في أبيات متتابعة أيضا ما جاء في استقباله لبعض زعماء الجزائر حينما زاروا وادي سوف :

أهلا بكم من قائد أو مرشد
أهلا بكم من فاتح ومجدد
أهلا بكم يا زائرين ومرحبا
زرتم رحيبا أهلا بالمسعد
أهلا بكم فخر الجزائر كلها
رغم الحقود ورغم أنف الحسد
أهلا بكم يا سادة يا قيادة
يا زادة يا قدوة للمقتد (3)

وهذا الترحيب المتلاحق يكشف عن فرحة الشاعر بقدوم قادة الجزائر فهو في حالة حماسية انفعالية ، وأحسب أن الشيخ لا يدرك أنه يكرر ألفاظه وحتى لو أدرك ذلك فإن المعنى في نفسه لم ينته بعد ، لذا يتجه مستمرا في تكراره حتى تمتلئ نفسه ، والتكرار قد يكون للربط بين الأبيات أو توكيدا لمعانيه .

ويكرر الشيخ كلمة (هو) في البيت الواحد أربع مرات ، يقول :

هو ريجانتي النديبة طيبا
وهو شربي موقا وهو كأسى
وهو نجمي المضيء وهو سمائي
وهو بدري المنير أو هو شمسي (4)

ف تكرار الضمير (هو) يدل على فرحته عند الاحتفال بتأسيس مدرسة بسكرة برئاسة الشيخ البشير الإبراهيمي ، فهذا اليوم هو يوم المنى بالنسبة إليه ، وكلما فتحت مدرسة جديدة كان النور يعم البلاد وتنقش غياهب الجهل والظلام .

(هـ) - ذكر أسماء الأعلام :

المطلع على ديوان الشيخ يجد أمامه أسماء أعلام بصورة ملحوظة ، منها : أسماء أعلام عربية وأجنبية وأشخاص وأقطار ومدن . من ذلك ذكر زعماء الحركة الإصلاحية في الجزائر : عبد الحميد بن باديس ، الإبراهيمي ، والطيب العقبي :

في ابن باديس الإمام الف	ذ شيخ البـدلا
في البشير الرائد الشـهـ	م الفصح المقـولا
في الخطيب الطيب العـقـ	بي داع مـبـتـلى (1)
ويذكر الشيخ (عمار بن لزعر) فيقول :	
ونسيت حزب المفسدين وفعلهم	ونسيت عمارا لنا أعلاما (2)
ويذكر الشاعر (أحمد شوقي) :	
قل لشوقي ومات أحمد شوقي	أين ما قلت في جزائر أسد (3)
ويذكر زعماء الفلسفة اليونان أرسطو وأفلاطون :	
فما أفلاطون بذى وحي فنتبعه	ولا أرسطو بذى رأي فننقده (4)
وعندما تحدث عن الحرب العالمية الثانية ذكر قادتها (هتلر)(وبنتروب) زعيم النازية(وهيس)(ومسيليني) :	
أو أين هتلر والفـخـ	ور ورائـش يزهى وبند
قل لي بربك بنتـرو	ب الغرب كيف النازي بعد
يا هيس نمت وما علمت	فقم ترياهيس قـيد
لزعيم رومة مسـيلـي	ني ذي القساوة دون حمد (5)

وأحسب أن ذكر الأعلام في الأبيات ، أمر لا يقدر عليه إلا ذوو القرائح من الفحول ، بحيث لا يمكن أن ينكسر البيت أو يضعف بناؤه ، و الشيخ التليلي ذكر الأسماء باقتدار .

1. ديوان الدموع السوداء ج 2. ص: 56 / 55.

2. 5.4.3.2. المصدر نفسه ج 1. ص: 122 - 39 - 57 - 41.

ولم ينس الشيخ ذكر اسمه في خاتمة بعض الرسائل الإخوانية ، منها قوله :

من طـاهـر نـسـبـه إلى التليـلي وصالـه

منشـؤه في بـلـدة تدعى قـمـارا مـرملـه (1)

إن ذكر أسماء الأعلام سمة مميزة لشعراء كثير ، فهي تبين مقدرتهم الشعرية ، وثقافتهم العريضة ، ومسايرتهم لأحداث وثقافات عصرهم .

و ذكر الشيخ عناوين الكتب بكثرة في الرسائل الإخوانية ، سواء التي يهديها إلى أصدقائه أو تلك التي تهدي إليه . حيث يقول :

فمورد الظمآن تطفي ظمأنا وإقامة البرهان حجة قائل

صفة الصلاة على النبي وآله وهي الوسيلة تحفة المتناول

تصوير قصب أو رسالة قبرص مجموعة الرد المصيب الحافل

وكتاب مسؤولية العلماء قد طمت وعمت كل واد سائل (2)

وننتقل إلى ذكر أسماء البلدان والمدن . فهو يذكر (تونس) التي لها مكان كبير في قلبه يقول :

فقلـبي لا يـلـذ له حـديـث سوى في تونس ذات الدلال (3)

ويذكر اسم (مكة المكرمة) :

بيـت بمـكة لا يعادله سوى دار الخلود بجنة الرضوان (4)

ويذكر (قمار) :

إلى كم يا قمار أعاني منك ومن أهليـك أشباه الصلال (5)

ويذكر بسكرة قائلا :

من نحو بسكرة النـخيـ ل إلى دُسيـكة رة بن برد (6)

ويذكر عنابة وأهلها :

والشـكـر إن نلت مبتغايا لكم يا أهل عنابة في السر والعلن (7)

ثانيا : سمات الأسلوب والنظم

إن قضية اللفظ والمعنى انتهت عند الإمام عبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم ، حيث ينفي أن

1.ديوان الدموع السوداء. ج.2. ص:66

2.المصدر نفسه. ج.1. ص:109 - 107

3.المصدر نفسه ج2 ص: 26 - 85.

4.المصدر نفسه ج1 ص: 39 - 139.

تكون مزية النظم تعود للفظ وحده أو المعنى وحده كما يجب توخي معاني النحو وملائمة كل منـها
للآخر يقول عبد القاهر : (أعلمك أن فضل الشعر بلفظه لا بمعناه ، وأنه إذا عدم الحسن في لفظه
ونظمه لم يستحق هذا الاسم بالحقيقة). (1)

والأسلوب في اللغة : (يقال للسطر من النخيل : أسلوب وكل طريق ممتد فهو أسلوب ، والأسلوب :
الطريق والوجه والمذهب ، ويجمع على أساليب ، و الأسلوب الفن). (2) من ذلك فالأسلوب هو الطريقة
التي ينتهجها الشعراء في النظم.

أما اصطلاحاً فيعرفه ابن خلدون قائلاً : (ولندكر هنا الأسلوب عند أهل الصناعة. صناعة الشعر،
وما يريدون بها في إطلاقهم ، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب ، أو القالب
الذي يفرغ فيه ، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب ... ، وإنما يرجع
إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص. وتلك الصورة ينتزعها الذهن
من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها كالقلب أو المنوال ...). (3)

وبعد الإطلاع على ديوان الدموع السوداء للشيخ التليلي ، فإنه يتوافر أمامنا عدد من السمات الأسلوبية
المميزة لشعره أهمها :

أ - طول القصائد الشعرية :

تتميز قصائد الشيخ التليلي بالتفاوت بين الطول والقصر ، والقصائد التي فاقت ثلاثين بيتا
بلغت ثلاثا وأربعين قصيدة من جزئي الديوان ، وبعض هذه القصائد يصل إلى مائة بيت .وهي أبيات
متماسكة البنيان قوية النسيج ، ولم يكن طولها باعثا على الملل .
لنأخذ مثلا قصيدة (في المرح الأدبي والهزل الطاهر) والتي بلغ عدد أبياتها ثلاثة وخمسين بيتا ، والمتأمل
لهذه القصيدة لا يمكنه أن يقف وسطها بل لابد من إكمالها لنهايتها . يقول الشيخ التليلي :

فيا من روى من حديث الرؤى	حديث منامك قد يرفز
فروح القرينة ليست بذاك	ولكنه الطهر والجـرمز
تقول وتزعم أنني لها	غدور تروك ولا أنجز
تفوه بما ليس فيه الرضا	وتأتي من اللوم ما يعجز
أذاك من أم خير تخال	وأنت بمكة لا تفـرز

1. عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز .صححه الشيخ الإمام محمد عبده .دار الكتب العلمية بيروت . ط1س1988.ص :198.

2. ابن منظور : لسان العرب مادة (سلب) .المجلد 2.ص :177.

3. ابن خلدون : المقدمة .دار الفكر .س 2004.ص :589.

فروح القريــــنة بل ذاتها	يرلازمني أينما أجمــــمز
يحدثني بجمــــلاف الذي	يحدث روح لكم أجمــــمز
وينثر فوق بســــاط الوداد	نثار المحبة أو يطــــرز
فلا هو في نثره مخمــــتش	ولا أنا في البسط مخمــــترز
كلانا يقص ويفــــضي بما	يكن من الوجد لا يوجــــمز (1)

فهو يحكي في القصيدة رؤيا منام حضرت إليه زوجته المتوفاة ، وتبادلا أطراف الحديث الشيق . والشيخ في المطولات مثله في المقطوعات ، وقصار القصائد ، لا يأخذ إعياء ، أو يعتربه نضوب ، خاصة في القصائد التعليمية لتلاميذ المدارس ، فهو دائما ينصحهم ويحثهم .

ب- التأثر بأساليب القرآن الكريم:

بحكم نشأة الشيخ التليلي الدينية ، وحفظه القرآن الكريم ، انتهج الطريق الإصلاحية ، فكان الشعر (أهدافه إصلاحية ترمي إلى إنماء الوعي الشعبي عن طريق الدين والمبادئ الخلقية ، وقد سبقت الإشارة إلى أن الشعر الجزائري عامة كان ينتسب إلى الحركة الإصلاحية ، ولذلك فقد كان على شعر المنابر أن يوضح أغراض هذه الحركة ويصوغها في أثواب دينية تستميل الشعب وتبعث فيه الحماسة واليقظة) .(2) وهذه الميزة نلمحها في قصائد الشيخ عندما استخدم الدين لأغراض إصلاحية توجيهية ، شأنه في ذلك شأن شعراء عصره ، لذلك توجهوا (إلى العناية بالقرآن الكريم وهو يعد الرافد القوي ، والمنبع الثري للثقافة العربية والاهتمام به حفظا وتدوقا ودراسة وتفسيرا ...) .(3) وجاءت أساليب الشيخ متأثرة بالقرآن الكريم ، حيث يقول :

فقال أقوامه -إلا القليل - له
إنا على عادة الآباء مندرجا (4)

فشاعرنا كتب هذه القصيدة عندما تذكر ماضيه القديم ، ودراسته في الزيتونة ، ورغبته في نشر الوعي ، ومبادئ الإسلام لدى شريحة كبيرة من المجتمع الجزائري أثناء الاحتلال عندما حاول طمس المقومات الشخصية للجزائريين ، فأخذ يصور ردة الفعل ، و نفور الشباب من الدين ونكرهم له ، وتمسكهم بأفكار آبائهم وأجدادهم ، ويظهر من خلال البيت الصلة الوثقى بين الأنبياء والعلماء ، فكلاهما داع ، وكلاهما يتعرض للنكران والعنت ، ولا شك أن الشيخ التليلي متأثر بقوله تعالى : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله

1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 94.

2.د/ أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث .ص: 36.

3.د/ محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925. 1975. دار الغرب الإسلامي ط1س 1985.ص: 43.

4.ديوان الدموع السوداء ج2ص: 37.

قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا (1).

يقول الشيخ التليلي بمناسبة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم :

وإن يكن لكم يا قوم من حجج فاتوا بها حجة معقولة النسب (2)

مأخوذ من قوله تعالى : (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) (3)

ومن مثل قوله :

فأنبت غصنه في أرض سوف فكننا الغصن يطره الغمام

فقد أحييتهم منا مواتا يكاد يطمهه عنا الرغام (4)

مأخوذ من قوله تعالى : (فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها). (5)

فجعل الشيخ زيارة الإمام التليلي شيخ زاوية سيدي أحمد التليلي في فريانة بتونس لوادي سوف انبعثا

من الموت ، أو تجديدا للحياة ، فكانها أرض ميتة أحيها الله بالماء .

وقوله :

الصبر أحسن حلية الإنسان في ساحة الأوصاب والأحزان (6)

وكان لوفاة صديقه عبد القادر الزياتي أثر كبير في نفسه ، لكن الإنسان لا يستطيع شيئا غير الصبر ، وقد

أخذ أسلوبها من قوله تعالى : (اصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) (7).

ويقول الشيخ :

وفيهما أن للأرحام حقا وقطع حقوقها أبدا حرام (8)

مأخوذ من قوله تعالى : (وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) (9).

ج - التأثر بأسلوب الشعر العربي :

كان الشعر العربي القديم من أغزر الروافد التي صببت في الشعر الجزائري الحديث ، وأضفت عليه

- 1..سورة (البقرة) الآية :170 .
2. ديوان الدموع السوداء ج1ص : 14 .
3. سورة (البقرة).الآية : 111 .
4. ديوان الدموع السوداء ج2ص : 69 .
5. سورة(فاطر).الآية :9 .
6. ديوان الدموع السوداء ج2ص : 53 .
7. سورة (لقمان).الآية : 17 .
8. ديوان الدموع السوداء ج2ص : 69 .
9. سورة (محمد) .الآية :23/22 .

طابع الجزالة والقوة ، حيث يرى محمد ناصر أن الأدباء التقليديين (يعنون بالأدب العربي القديم) (1).
وظهر ذلك من خلال قصائد الشيخ التليلي التي ضمنها أبياتا و أشطر من الشعر العربي القديم ، كما
كان منفتحا على الشعر الحديث ، و أدى ذلك إلى تمكنه من قاصية الشعر . ومن الجاهلين الذين تمثل
أساليبهم وظهرت أصداء صياغتهم في شعره واضحة عنتره بن شداد الشاعر الفارس ، وفي ديوان الشيخ
التليلي أبيات تشبه بأبيات عنتره عندما يقول :

وسيفي كان في الهيجا طيب
وقد ضمنه الشيخ قوله :

يداوي رأس من يشكو الصداعا (2)

وسيفي كان في الهيجا طيب

وقد ضمنه الشيخ قوله :

وفي كفه للعدي حربة
يداوي بها رأس كل مصاب (3)

ولم يقف تأثر الشيخ التليلي بالتراث عند عنتره ، ولكنه تجاوزهما إلى فحول صدر الإسلام ، فمن قصيدة
همزية يأخذ عن أبي الأسود الدولي قوله :

وجئت بمئها طورا طورا
أجـيـء بحمأة وقليل ماء (4)

وقد أخذ منه البيت كله ، ليبين به عدم يأس الإنسان ، وإنما عليه الاستمرار حتى يبلغ المرء غايته ،
والشاعر يقوم اعوجاجا في تفكير بعض الكسالى والمتواكلين.

ويبدو تأثر الشيخ التليلي واضحا بأساليب فحول الأمويين كالفرزدق ، وتبدو في شعره أصداء صياغته
من مثل قول الفرزدق :

والأكثرون إذا يعد حصادهم
ويقول الشيخ التليلي :

والأكرمون إذا يعد الأول (5).

والأكثرون إذا يعد حصادهم

ويقول الشيخ التليلي :

ونسـل الأكرمـين من الأناسـي
إذا ما عد خير في الزمان (6)

وفي شعره أصداء من الشعر العباسي كالمـتنبـي وأبي العلاء والإمام الشافعي ، وهي تكشف عن ثقافة
الشيخ ، وعن إحاطته بالتراث الشعري ، ولعل أكثر الشعراء الذين تأثر بهم الشيخ التليلي المتنبـي ، حين
يقول :

-
1. د / محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث . ص : 47.
 2. ديوان عنتره . دار بيروت . د ط س 1978 . ص : 171.
 3. ديوان الدموع السوداء ج 1 . ص : 13.
 4. ديوان أبي الأسود الدؤلي . صنعة أبي سعيد الحسن العسكري . تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين دار مكتبة الهلال . ط 2 س 1998 ص : 160.
 5. ديوان الفرزدق دار بيروت د ط س 1980 . ج 2 ص : 156.
 6. ديوان الدموع السوداء ج 1 ص : 130.

تكسرت النصال على النصال (1)	فصرت إذا ما أصابتني سهام يقول الشيخ :
لحطمت النصال على النصال (2)	ولولا اللدين أو خلق متين ويقول المتنبي :
فما لجرح إذا أرضاكم ألم (3)	إن كان سرکم ما قال حاسدنا يقول الشيخ :
رضينا بما ترضى وإن كنت في خسر (4)	وأن كان لا يرضيك إلا شقاوتي كما أخذ عن البحري قوله :
وترفعت عن جدا كل جبس (5)	صنت نفسي عما يدنس نفسي ويبدو تأثيره بالإمام الشافعي واضحا حين يقول :
أضاع العمر في طلب المحال (6)	ومن رام العـلا من غير كد وقد ضمنها شعره في أكثر من موقع ، فاقتبس الشطر الأول ، كما اقتبس البيت بأكمله مع تغيير بسيط حين قال :
أضاع العمر في طلب المحال (7)	فمن طلب العلوم بغير كد وأخذ من المتنبي قوله :
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم (8)	أعيذها نظرات منك صادقة يقول الشيخ :
من النوع المحبب والسمين (9)	وحسب ذات أورام ونفـخ وتجدر الإشارة إلى أن بيتا للمتنبي بتمامه قد ورد عقب بيت الشيخ في قصيدته اللامية التي مطلعها :
وأستأذ المعارف والمعالي (10)	أبا المكارم والنوال

1. ديوان المتنبي . دار بيروت . د ط .س 1983 .ص : 265.
2. ديوان الدموع السوداء ج1 ص : 108.
3. ديوان المتنبي .ص : 333.
4. ديوان الدموع السوداء ج1 ص : 79.
5. ديوان البحري مطبعة الجوائب قسطنطينية .ط1 س 1300 .ج1 ص : 108.
6. ديوان الإمام الشافعي .اعتنى به عبد الرحمن المصطفاوي . دار المعرفة بيروت ط3 .س 2005 .ص : 100.
7. ديوان الدموع السوداء ج1 ص : 103.
8. ديوان المتنبي .ص : 332.
9. ديوان الدموع السوداء ج2 .ص : 79.
10. المصدر نفسه .ج1 .ص : 106.

وفي نفس الوزن والقافية يقول الشيخ على لسان المتنبي :

فإن تقف الأنام وأنت منهم
فإن المسكك بعض دم الغزال (1)
ولم يقتصر تأثر الشيخ بالشعر العربي القديم ، بل تعداه إلى الشعر الحديث ، حيث أخذ عن إيليا أبي ماضي قوله :

أيها الشـاكي ما بك داء
وترى الشوك في الورود وتعمى
والذي نفسه بغير جمال
يقول الشيخ في ذات الموضوع :
ما أرى في الوجود إلا اشتياكا
إن رأى الناس في الوجود جمالا
وكذلك يقول حافظ إبراهيم :
الأم روض إن تعهده الحيا
يقول الشيخ :
ولا روضه روض تعهده الحيا

كيف تغدو وقد غدوت عليلا
أن ترى فوقها الندى إكليلا
لا يرى في الوجود شيئا جميلا (2)
لا أرى فوق وردتي إكليلا
فوجودي قد لا أراه جميلا (3)
بالرأي أورك أيما إيراك (4)
فكان له زهر أنيق ومنظر (5)

(د) - أسلوب الحوار والسرد والوصف :

يظهر أسلوب السرد والوصف والحوار بطريقة واضحة في أسلوب الشيخ التليلي ، حيث بلغ عدد القصائد التي بناها معتمدا وبشكل واضح على إمكانية مسرحتها إحدى عشرة قصيدة ، وهو عدد مهم يحسب للشيخ ، لأنه نظم بعض هذه النصوص خلال الثلاثينيات ، وهي فترة متقدمة جدا في الشعر المسرحي العربي ، ويوضح الدكتور عادل محلو أن البدايات الأولى للمسرحية (كان قد صاغها شوقي في بدايات القرن العشرين ، فإذا كان الفرق بين الشيخ التليلي وأحمد شوقي أقل من ثلاثين سنة من الحساسية الشعرية على كون شوقي في القاهرة ، والشيخ في مدارس بمناطق صغيرة ونائية فذلك مما

1. ديوان المتنبي. ص: 268.
2. ديوان إيليا أبي ماضي تقديم : جبران خليل جبران. دار العودة. ط1س1986..ص: 604.
3. ديوان الدموع السوداء ج2. ص: 40.
4. ديوان حافظ إبراهيم. الهيئة المصرية للكتاب. ط3. س 1987. ص: 282.
5. ديوان الدموع السوداء ج2 ص: 40.

يحسب للشيخ التليلي ، ويحله مكانة سامية في مسار الحساسية الشعرية الجزائرية.(1)
واستخدم الشيخ التليلي وسائل متنوعة في إظهار الشكل المسرحي لقصائده ، فأحيانا يصوغها في شكل
مناظرة واضحة كتلك التي نظمها بين التل والصحراء ، وهي تدخل في أدب الأطفال :
قال التل :

المجد مجدي فلا الإنسان ينكره
النهر من خدمي والبحر من حشمي
قالت الصحراء :

لا تفتخر أنت يا تل بغيرك إن
البحر ليس لكم والنهر منقسم

أو في شكل محاورة ساخرة بين شخصين أو أكثر في قصيدة بعنوان (الجزء من جنس العمل) :

قالوا هجاءك عصيفر
قلت الأخن بن الأخن
قالوا الذي خيشومه
متفرطح مثل الممجن
قلت الذي من أنفه
دود تدلى للذقن
قالوا نعم ذاك الذي
في نطقه خبث الخنن
قالوا الذي فيه القزا
حمة والدمامة والعفن (3)

ونفس الأسلوب يستخدمه عندما يعالج قضية اجتماعية ، فيقول في (نعمة الزواج ونقمته بالنسبة للزوج) :

قالوا الزواج هناء
قلت الزواج عناء
وكل شيء ملكته
قالوا تزوجت صغرى
وكل شيء أضعته
فلو ثت منك قـدرا
وأنت شيخ كـبير
والجاري أنت الغـرير (4)

أما الشعر القصصي فهو يعالج موضوعات متعددة ، منها قضية الزواج ، ففي حوار جرى بين مجموعة
مختلفة من النساء حول الزواج من شيخ ، تعرض لرأي الفتاة الصغيرة ، والعانس ، وذات الأولاد ،
والمطلقة ... تقول المرأة العانس :

1. عادل محلو : الشيخ الطاهر التليلي شاعر للأطفال . موضوع ألقى في الندوة الفكرية الرابعة تحت عنوان : العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي
قراءات في سيرته وفكره وآثاره. ص : 150.
2. ديوان الدموع السوداء ج2 ص : 52.
3. المصدر نفسه ج1 ص : 124 - 111.

ولو أنه الشيخ الوقور العالم

عنسي ولا الشيخ العجوز الهارم

والمطلقة تقول :

فدعوني من القساة قلوبا (1)

طلقوني وما فعلت ذنوبا

فالحوار هو الوسيلة الجمالية الوحيدة لإبراز هذه المواقف المتشابهة حول فكرة رفض الزواج من الشيخ. أما أسلوب الوصف فقد انتهجها الشيخ التليلي في شعره خاصة عندما يصف حاله عند الكبر ، حيث يقول :

حتى افتقدت القياما

عجزت عن كل شيء

أحس منه اضطراما

ففي الدماغ طننين

بين النخيل دواما

كأنه الريح تجري

رد الضياء ظلاما

وفي العيون غشاء

ترى به العيون غاما

لم يبق غير بصيص

سد الصمساخ رصاما

في الأذن مني استككاك

إلا صراخا تساميا (2)

لم تسمع الأذن منه

أما أسلوب السرد القصصي ، فقد اتبعه الشيخ التليلي وبشكل خاص في الرسائل التي بعثها إلى أصدقائه في مكة والمدينة ، حيث أخذ يسرد أحوال البلاد ، والتغيرات التي وقعت أثناء الاحتلال مثل خروج قادة الثورة من السجن وإجراء الانتخابات . كما سرد وقائع عودته من تونس إلى وادي سوف مسقط رأسه . وقد سلك الشيخ مسلك السرد القصصي الذي يعتمد على التتابع والتسلسل في عرض الأحداث ، كما يعتمد على الحوار المتبادل بين الإنس والجن ليتعرف على أسباب الفقر ومشاكله . يقول :

مذلا ومعزا

إن رمت تعرف لغزا

وادفع إليه إوزا

فاذهب لحاكم جن

أزيل بالفهم عجزا

وقل أتيتك كيما

فإن أبيتم فوكزا

يقول للجن هبوا

أريك بالعلم طرزا

وأنت قرب إلي

وإن قدرت فعنزنا (3)

فاذبح دجاجا وديكا

1. ديوان الدموع السوداء . ج.2. ص : 14 / 15 - 83 .

3. المصدر نفسه . ج.1. ص : 91/90 .

(هـ) - دراسة اللغة :

لقد سار الشيخ التليلي في شعره وفق المستوى اللغوي الحسن ، فحرص على سلامة الاستعمال اللغوي قدر طاقته ، إلا أن شعره لم يسلم من بعض الهنات التي وقع فيها اضطرارا أو تجاوزا ، وللحق فإن بعضا من هذه الهنات وقعت في الجزء الأول من الديوان اضطرارا و استجابة للضرورة الشعرية ، كما تعتبر اللغة إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر وسيلة لحث الشعب وتوعيته أكثر من كونها وسيلة لإبراز الجمال الفني .ومن أمثلة الضرورات الشعرية ، صرفه (ليثرب) وهي ممنوعة من الصرف :

عشرون ألفا قدموا من يثربِ في عهد ذي النورين صاحب النبي (1)

إن الوزن الشعري يتحكم في اللغة فيحيل الكلمات المهموزة إلى كلمات خالية من الهمز أو العكس ، وقد جاء في شعر الشيخ التليلي (الإسم) بدل (الاسم) حين يقول :

توحدوا في الإسم لا في اللقب فكلكم على اختلاف الرتب (2)

وكذلك قوله :

وهكذا اللئيم حين ياتي يخرب البيوت بالشتات (3)

أما قصر الممدود ، فمن أمثلته قوله :

فيقول ما قالــــــــت له كالبيغا بننت الصلب (4)

ورد في قوله (البيغا) أصلها (البيغاء) ، وكذلك قوله :

أنا هنــــــــا في عزلة وراحة وفي اخــــــــتبا (5)

كلمة (اختبا) التي أصلها (اختباء).

أما ما سقط فيه الشيخ التليلي من الأخطاء اللغوية ، فيمكن أن نورد منها :

إدخاله (ال) التعريف على (بعض) ، وهو غير مستحسن لدى النحاة ، حيث يقول :

وضاع البعض منا في الزوايا ومات البعض منا في السجون (6)

وكذلك استعماله كلمة (الزفاف) بدل (الزواج) ، لأن (الزفاف) إهداء العروس إلى زوجها (7) ، حيث

يقول :

1..ديوان الدموع السوداء . ج.1.ص : 24.

2.3.4.5. المصدر نفسه ج.1.ص : 24 - 30 - 17 - 21.

6..المصدر نفسه ج.2.ص : 79.

7..محمد العدناني: معجم الأغلط اللغوية المعاصرة . مكتبة لبنان ط.1.س.1984.ص : 287.

فذلك حتم يقتضيه شاني (1)

واعذر أخاك في الزفاف الثاني

وقوله (تذكار) وأصلها (تذكار) (2):

فاعتبرها لديك كالتذكار (3)

هذه صورتني على كل حال

واستخدم كلمة (المنام) ويقصد بها (الرؤيا) ، لأن المنام هو النوم وموضعه (4)، في قوله :

بصدق راء أخــــــــــــــــــــبرا (5)

وترى المعبر للمــــــــــــــــنام

كما توجد بعض الكلمات ثقيلة النطق لتكرار حرف الدال ثلاث مرات في العجز :

فهمت في فدــــــــــــــــــــد دريس (6)

فهمت من دهري كل هذا

ويمكن أن نجد للشيخ التليلي في مثل هذه السقطات عذرا فيما يتداوله النحاة ، ويعود ذلك إلى كون ابنته هي التي تكتب له ، فقد تقع في أخطاء رغم محاولات الشيخ تصويب بعضها .

1..ديوان الدموع السوداء ج.2.ص: 22.

2..محمد العدناني : معجم الأغلط اللغوية المعاصرة . ص: 240.

3.ديوان الدموع السوداء ج.1.ص: 89.

4.محمد العدناني : معجم الأغلط اللغوية المعاصرة . ص: 685.

5.6.ديوان الدموع السوداء ج.1.ص: 63 - 149.

الصورة الفنية :

إن الشاعر مبدع في اللغة ، حيث يعيد صياغة الألفاظ التي تستخدمها ، فتبدو في ثوب جديد كأن لم يكن . والشاعر يعمل فكره في الكون الكبير من حوله ، وفي ثقافته التي تربي عليها من تراث ، وحداثة ، ومن خبرات عاشها أو قرأها ، فيصهر ذلك كله - وغيره - في بوتقة خاصة يبدع من خلالها خياله الممزوج بعاطفته و نظرتة الخاصة للأشياء .

والخيال لازم للأدب عموما ، وللشعر بخاصة : (فبدونه تصبح الحياة علقما مر المذاق لا تطاق ؛ لسبب بسيط : وهو أنها تفقد روحها وتفقد ما يحرك فينا حبها ، إذ تصبح أكادسا وأكواما من الأحداث الزائلة التي لا تخلب لبا ، ولا تستهوي بصرا ، ولا سمعا) (1) .

ونحن نفصل الخيال الذي يأتي عفويا ، نابعا من العاطفة ، ملتحما مع السياق ، وبنفي ذلك عن الخيال الذي يكون متكلفا و يؤتى به على أنه زينة ووشي زائد عن العمل الأدبي .

والخيال : (هو العنصر الذي تلجأ إليه العاطفة لتعبر عن نفسها ، حين تعجز العبارات الأخرى دون تحقيق هذه الغاية الأدبية) (2) ،

إن الشاعر يزواج في شعره بين التعبير الحقيقي والتعبير المجازي . ودراسة الخيال هي الطريق الطبيعي لدراسة الصورة الفنية عند أي شاعر ، لأن الخيال أصل الصورة الذي لا يستغنى عنه . يقول أحد النقاد (فالخيال إذن أساس الصورة الأدبية مهما تكن درجته الفنية) (3) .

ويقول شوقي ضيف عن الخيال بأنه إحساسات سابقة مخزنة في الذاكرة حتى موعد استخدامها (الخيال هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم ، وهم لا يؤلفونها من الهواء ، وإنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها ، تحتزنها عقولهم ، وتظل كامنة في مخيلتهم متى يحين الوقت فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها) (4) .

ونستخلص من ذلك أن الخيال لا يكونه الأديب من الهواء ، وقد وضع النقاد شروطا للخيال ليحكم

1. شوقي ضيف : في النقد الأدبي . دار المعارف القاهرة ط6 . ص : 172 . - 173 .

2. أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي . مكتبة النهضة المصرية . ط10 س1994 . ص : 33 - 243 .

4. شوقي ضيف : في النقد الأدبي . ص : 167 .

عليه بالجودة ، منها أ لا يكون الخيال برهانا عقليا ، وأن ترتبط الصور الخيالية بالعاطفة ، وأن لا يتنافى الخيال مع العقل ، وأن يكون له دور في التشخيص والتجسيم ، وأن يكون قادرا على الخلق والابتكار. (1).
واللغة العربية لغة المجاز ، وهي لغة غنية ببلاغتها التي تناسب كل العصور ، فتزيد الصورة الفنية تأثيرا وتوضيحا وعمقا. يقول العقاد(إن اللغة العربية لغة المجاز ، والمجاز هو الأداة الكبرى من أدوات التعبير الشعري ، لأنه تشبيهات وأخيلة وصور مستعارة ، وإشارات ترمز إلى الحقيقة المجردة بالأشكال المحسوسة ، وهذه هي العبارة الشعرية في جوهرها الأصيل) (2).
والمجاز هو عكس الحقيقة ، وهو أهم أداة من أدوات التعبير الشعري ويشمل الصور البيانية : من تشبيهات واستعارات ، وكنيات
ولنتطلق لتتعرف على الأنواع البلاغية للصورة الفنية عند الشيخ التليلي :

الصورة التشبيهية

التشبيه في اللغة التمثيل ، يقال شبهت هذا بذلك أي مثلته به (3) ، ويعرفه علماء البيان بقولهم (هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى مشترك بينهما بإحدى أدوات التشبيه المذكورة أو المقدره المفهومة من سياق الكلام) (4). والتشبيه يعتمد على عدة أركان وله أنواع عديدة حيث يقول عبد القاهر الجرجاني : (اعلم أن الذي أوجب أن يكون في التشبيه هذا الانقسام أو الاشتراك في الصفة يقع مرة في نفسها وحقيقة جنسها ، و مرة في حكم لها ومقتضى) (5) ، وقد اعتنى القدماء بالتشبيه حتى أنهم (لم يجدوا بأسا من عد التشبيه علامة على الشاعرية ودليلا على براعة الشاعر) (6).
و استخدم الشيخ التليلي التشبيه لتوضيح كلامه ، فقال عن كتاباته المتناثرة في إرجاء الغرفة دون ترتيب أو عناية :

رأيت بنات فكري في لحاف	من الأوراق مسود دكين
مجدرة الوجوه ملطخات	كأن بثورها قطع العجين
مجرحة الحدود مقرحات	مدمعة المحاجر والجفون
مغبرة الملامح والثنايا	كان عليها أغبار السنين

1. راجع : محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث.ص: 361.
2. عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة . دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة. د ط س 1995. ص: 33.
3. د/عبد الرزاق عبد الرحمان السعدي : تنبيه الوسنان إلى علم البيان . دار الأنبار د ط .س 1997.ص: 06.
4. د/ شيخ أمين بكري : البلاغة العربية في ثوبها الجديد - علم البيان - دار العلم للملايين . بيروت. ط 7 .س 2001. ص: 13.
5. عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة في علم البيان . صححها الشيخ محمد عبده. دار الكتب العلمية - بيروت ط1.س 1988 . ص: 78.
6. جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب . المركز الثقافي العربي بيروت . ط3س 1992. ص : 113.

مشوهة الحواجب والذقون

فقيل لهن ما بال الصبايا

وأهملنا أطباء الجنين (1)

فقلن لقد ولدن ناقصات

رأى الشيخ أن كتاباته المبعثرة في الغرفة غير واضحة المعالم ، فأصابه الحزن واليأس ، وصاغ هذه الصورة التي يعتبر فيها التشبيه عنصرا مهما ، حيث شبه الأوراق المبعثرة وقد لطحها بالحبر عندما رسم فيها أفكاره (بقطع العجين) الذي يرسم به ملامح الأشياء ، فجعل الكتابة على الورق تشويها لنقائنها وجمالها . وعبر عن طول مكثها في زاوية الغرفة دون لمس ، وقد تكدس عليها الغبار بقوله (كأن عليها أغبار السنين) .

ومما يلاحظ على الصورة التشبيهية عند الشيخ هو البساطة والبعد عن التكلف ، ولعل ذلك يعود بالأساس إلى أسلوب الشيخ التوجيهية والإصلاحية . دون أن ننسى ضغط المستعمر على الشعب الجزائري أثناء الاحتلال ، عندما حرمه من التواصل الثقافي والفكري لإنجاز أعمال فنية متميزة ، فكان هدف الشعر إصلاحيا تعليميا أكثر من كونه جماليا فنيا ، وكذلك انزواء الشيخ التليلي في غرفته بعيدا عن الناس ، وقطع صلته بالثقافات المجاورة ، وآرائها ونقدها وعدم تواصله مع شعراء عصره .

وقد غلبت الصورة التراثية على مصادر صورته ، ففي الفخر تبدو أسوار المدرسة جبالا شاهقة متينة تحمي تلاميذ المدارس ، كما تحمي الجبال الثوار أثناء الحرب ، ويعطي خيارا آخر وهي البواخر الضخمة القادرة على تحمل أمواج البحر ، حيث يقول :

كالجبل أو كالبواخر ترسي (2)

كيف لا والحصون للعلم تعلق

وفي تصويره لأحدى الليالي التي ازداد فيها شوقه لتونس حتى جافاه النوم ، وتضجر من طول الليل حتى ظنه غير منته ، فهو ممتد إلى الحشر يقول :

بأن لها حبلا يطول إلى الحشر

وليلة سمري قد ظننت لطولها

ولكن طير النوم حلق كالنسر (3)

وما ذاك من طول الليالي حقيقة

لكن يبدو أن طول الليل عند الشيخ يتمثله (طير النوم حلق كالنسر) فهو يشبه النوم الذي جافاه بالنسر عندما حلق عاليا مبتعدا عن صاحبه مستمتعا بعلوه .

وفي قصيدة بعثها لصديقه في السجن جعله بدرا مضيئا بين خلانه فيقول :

وربما كنت ماء سائغا لصدي (4)

هم النجوم وأنت البدر بينهم

1. ديوان الدموع السوداء ج2. ص78.

4.3.2. المصدر نفسه ج1. ص148 - 78 - 36.

ويشتكي في آخر القصيدة من ظلم الدهر والناس ، فكانت رسالته مرآة صادقة تبين عذابه وحزنه ، شبهها بالجمر المتقد . يقول :

رسالة ملؤها شكوى وتبصره
وبعض أخبارها سلوى لمبتعد
ترى بها مثل مرآة أخاك وفي
أحشائه مثل جمر ساح منتقد (1)
ويرى في الدهر الذي يعاديه غولا مفزعا فيقول :

والدهر غول للخلائق كلها
وحوادث الأيام من أعوان (2)
وفي مجال الرثاء يبين أثر وفاة والده في نفسه ، فقد ذهب منه العقل والتركيز ، وانهارت أعضاء جسمه
مثل السكرى ، فهو يرى نفسه قصباً فارغاً جوفه ، أو نصبا لا يستطيع الحراك من هول الحادثة يقول :
جل المصاب فجلت الأوصاب
وتمزقت في جسمنا أعصاب
وتطائرات منا الحلوم فغادرت
أجسامنا وكأنها أقصاب
وتراخت الأعضاء سكرى حيرة
وتثاقلت فكأنها أنصاب (3)

وكانت أدوات الحرب التقليدية حاضرة في شعره رغم طول مدة ابتعاده عنها ، فقد كان حفظ القرآن الكريم سيفاً صارماً مدافعاً عن الحق ، وعن حمى صاحبه فقال :

وكان له سيفاً حساماً لمن له
وتصدى بإلقاء الشكوك من الهمج (4)
ويستعير السيف ليعبر عن شبابه ، وسرعته في الرد على الأعداء :
وقد كان عقلي فتياً نقياً
كسيف صقيل سريع الضراب (5)

وخصص الشيخ التليلي موضعاً عرض فيه جملة من أوصافه وتشبيهاته ، وهي جميعاً صور تشبيهية مستمدة من الواقع و من الطبيعة . وهذا يدل على أن صور الشيخ نابعة من ممارسات ومعايشات خبرها وعرفها ، واتخذ من الطبيعة والواقع مصدراً أصيلاً من مصادره ، إلى جانب استمداده من لتراث ، حيث أخذ من الطبيعة عظمة الجبال ، وقوة الأسود ليشكل صورة بديعية تعبر عن فخره بقيادة جمعية العلماء المسلمين حيث يقول :

أبناء يعرب يا أسود شمالنا
أنتم لنا ولأرضنا عز الغد
أرض الجزائر أنتم أشبالها
وجبالها ورجالها في سؤدد (6)

1. ديوان الدموع السوداء ج 1. ص 36.
2. المصدر نفسه ج 2. ص 53.
3. المصدر نفسه ج 1. ص 20.
4. المصدر نفسه ج 2. ص 27- 79
6. المصدر نفسه ج 1. ص 43.

ويذكر الشيخ أيام الصبا والدراسة في تونس فيقول :

ترانا فيه كالطيرانتعاشا تناغت وهو كالفص الرحيب (1)

فقد شبه شدوهم وفرحهم وانتعاشهم بالطيرالمرحة ، بينما جامع الزيتونة قفصهم الرحيب ، وأظهرت
القصيدة فرحه بالدراسة في الجامع الزيتوني مع أصدقائه وخلانه.

وعندما يتناول الشيخ موضوع المرأة ، يختار لها إحدى عناصر الطبيعة الصحراوية الخطرة والقاتلة ألا
وهي الأفعى بسمها الناقع فيقول :

كل النساء أفاع في سنها السـم نافع (2)

ويتناول سباق الخيل ليصور به حياة الناس المسرعة من أجل الوصول إلى مبتغاها ، وهي أحسن صورة
حسية معبرة عن المعنى ، مأخوذة من الواقع الصحراوي المعاش :

وأنا جميعا كخيل السباق فأسبقنا من تخطى العلم (3)

وعندما يتذكر الجدود يراهم شمسا منيرة وغيثا غزيرا ، ومصباحا ينير ظلمة الجهل ، ويتمثلهم أسودا
في الحروب ولؤلؤا منثورا في حالة السلم فيقول :

أتوا كالشمس يتبعها ضياء إلى أرض الجزائر والشمال

أتوا كالغيث تسبقه رعود وتعقبه البشارة بالنوال

هم الإصباح حين ترى سواهم دياجي في المظالم والضلال

هم الأسد الضراغم في حروب هم في السلم حبات اللآلي (4)

ولجأ الشيخ التليلي إلى التشبيه الضمني على قلته ، وهو (تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة
من صور التشبيه المعروفة ، بل يلمحان في التركيب) (5).

يقول الشيخ التليلي :

وجنبوا عنكم حمراء فتنكم فإنها النار لا تدنوا لها الخطبا (6)

فقد طلب من الناس الابتعاد عن الفتن التي تجلب الحروب ، وشبهها بالنار التي يذكيها الخطب . كما
صور نفاق العامة ، وإخفاء نواياهم وإظهار العكس في قوله :

1. ديوان الدموع السوداء . ج 1 . ص 18.

2. المصدر نفسه . ج 2 . ص 11 - 59.

3. المصدر نفسه . ج 1 . ص 101.

4. علي الجارم ومصطفى أمين : البلاغة الواضحة البيان والمعاني والبديع . دار المعارف بمصر . ص : 47.

5. ديوان الدموع السوداء . ج 1 . ص 10.

الصورة الإستعارية :

الاستعارة عند عبد القاهر الجرجاني هي : (أن تريد تشبيه الشيء بشيء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره ، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيده المشبه وتجريه عليه) (2). ومعنى ذلك أن الاستعارة فرع من التشبيه ، أو كما يقول البلاغيون (الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه) (3). فالاستعارة والتشبيه تشتركان في المشبه والمشبه به ، لكن أحدهما يكون محذوفا في الاستعارة. ويقول الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة : (هي أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلا غير لازم ، وهكذا يمكن القول بأنها ضرب من المجاز يتميز بنقل الاسم أو التعبير الوصفي إلى شيء لا يطابقه كل المطابقة ، والاستعارة بهذا المفهوم وسيلة تشكيلية أرقى من التشبيه وأعمق وأعقد صنعة. وإن كان التشبيه أساسها وعمادها وهو كالأصل لها) (4). يقول الشيخ التليبي في وصف ليلة قضاها مع بعض الشيوخ :

يا ليلة من بنات دهر	غراء في حلية العروس
وافت على غير ما ميعاد	والخوف في طرسها السدوسي
والنجم من خلفها رقيب	والبدر قد همم بالأنيس
والليل قد مل من سراه	والفجر في حمرة الغلوس
وافت وفي لونها اصفرار	من خشية الطالع الحريس
يا ويحها لو درى أبوها	بأنها تحفة الجليس (5)

وبعد أن نتأمل الأبيات السابقة ، ونحاول إدراك ما فعلته الاستعارات في الصورة . ففرح الشيخ بليلة الخميس التي قضاها مع أصدقائه شبهها بالعروس التي ينتظرها عريسها ، وقد خرجت تبحث عنه ليلا والخوف يملأ قلبها ، والنجم يراقبها ، والليل ملّ ظلمته ، ويستخدم اللون (وافت وفي لونها اصفرار) ليدل على خوفها وخشيتها مما ينتظرها ، وكلها استعارات مكنية (وافت على غير ما ميعاد) (النجم رقيب) (الليل

1. ديوان الدموع السوداء . ج 2 . ص 22.

2. عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز . ص : 53.

3. علي الجارم - مصطفى أمين : البلاغة الواضحة . ص : 77.

4. عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة . ص : 22.

5. ديوان الدموع السوداء . ج 1 . ص 150.

مل سراه) (لو درى أبوها) .

وإذا عدنا للصورة السابقة، وجدنا الاستعارات قد ولدت من قلب العاطفة الصادقة النابعة من فرحة الشيخ بتلك الليلة .

ويقول الشيخ التليبي واصفا كتاب (تاريخ الجزائر الثقافي) الذي أهده له الدكتور أبو القاسم سعد الله

نظرت إليه من بعد وقرب
فقلت البحر تستره الدفاتر
وعهدي بالسباحة من قديم
فخضت عبابه والبحر ثائر
وقلت أغوص ألتقط اللآلي
فبحر الشيخ معروف الجواهر
ولكن التصارع والتعالي
من الأمواج أكسبني المحاذر
فأمواج الأدلة والدعاوي
تردها الأئمة والأكابر (1)

إنها صورة بحر ثائر، مليء بالجواهر والالآلي ، وقد غاص الشيخ يلتقط من خيره ، لكن الأمواج عالية أخذت تجاذبه ، وسبح الشيخ باحثا عن شاطئ قريب يقيه ثورة البحر، وذلك هو جوهر الكتاب بأفكاره ، وفنه ، شكلها الشيخ استعارات تصريحية معبرة عن قيمة الكتاب وغناه بكل ما يحتاج إليه الباحث . والخيال في هذه الصورة حيوي، فالأفكار بحر أمواجه عالية، وتعمق الشيخ فيها سباحة، وأفكاره ومعانيه لآلى وجواهر .

وقد اعتمد الشيخ على التشخيص الذي هو وسيلة بنائية ، حيث صور الدهر رجلا قاسي القلب :

يا دهر مالك لا تئن تضجرا
أفأنت راض بالذي فينا جرى
فانظر بعينيك في ملامح أهلنا
ريب يفت بسيفه قتل العرى (2)
وشخص الدهر في عدة صور ، فجعله حيوانا مفترسا :

عظني الدهر يا كتابي بناب
كما جعله قاتلا :

واجنح إلى البعد ألف ميل
وقد شخص السيف والسكين إنسانا يهدي كل متمرّد ، والجزائر إنسانا مثقفا يوضح الحقائق :

والسيف والسكين قولهما هدى
في من تمرّد عاتيا لم يهتد
تلك الجزائر أفهمت من لم يرد
فهم الحقائق بالحديث المسند (5)

1. ديوان الدموع السوداء ج1 ص: 84.

5.4.3.2. المصدر نفسه ج1 ص: 77- 153 - 149 - 44.

. وفي شكواه من (قمار) وأهلها ، شخص الغدر نهرا يفيض :

ففاض الغدر منك على بنيك وغازى الفضل فيك إلى الزوال (1)

وعندما سئم الشيخ التليلي من حاضره ، تطلع إلى أن يكون الغد مبتسما له . فقال مخاطبا صديقه :

تعزّ أخى وانس ما قد مضى وكن في انتظار الغد المبتسم (2)

إن الشيخ قد عانى في حياته من قساوة الدهر ، وظلم الناس ، وضعف المعيشة ، فكان يبحث عما يمنحه

الأمل ليستمر في حياته متطلعا إلى غده ، ويأمل فيه خيرا ، فيراه مبتسما ينتظره .

ويتحدث عن كتاباته المبعثرة في زاوية الغرفة قائلا :

نشأنا هكذا لسواد حظ بسجن البيت نقنع بالأنين

وضاع البعض منا في الزوايا ومات البعض منا في السجون

تطالعنا المصائب والرزايا بأنواع الوسوس والظنون

فأحببنا التستر والتخفي وأخفينا الوجوه عن العيون

فيا من رام خطبتنا تباعد فنحن عوانس الشيخ الدفين

وليس لنا من الأوصاف وصف يحبينا إلى الرجل القرين (3)

تخبرنا الاستعارات الواردة في الأبيات عن عاطفة الشاعر الحزينة فهو منطو على نفسه ، حبس الغرفة ،

حاله من حال كتاباته ، فكانت بناته التي تخاف الظهور أمام الملاء توحى بالتشتت وعدم الثقة بالنفس ،

والخوف من المجهول ، فتفضل الظلام والهدوء والسكينة وظهر ذلك من خلال استخدامه للألفاظ الدالة

(نقنع - مات - ضاع - أخفينا - تباعد) ، وإظهار مشاعر الأديب وأحاسيسه هي أبرز ميزة للاستعارة ،

وقد وردت في (أحببنا التستر) (أخفينا الوجوه) (الرجل القرين) (مات البعض منا في السجون) ، وشبه

أفكاره بالإنسان الميت في السجن بعيدا عن أهله وذويه ، وهي تدل على أن كتاباته بقيت حبسة الغرفة

طيلة حياته تنتظر من يبعثها من جديد ، فيحيي مواتها ، كما شبه جموع القراء (بالرجل القرين) لأن

الكتابات اعتادت على الشيخ وهو أيضا اعتاد عليها ، وكلاهما يأبى البديل ، وقد تمكن الشـيـخ

من استحضار الصورة مشاهدة أمام العين .

وتلك بعض مزايا الاستعارة . يعددها عبد القاهر فيقول : (الاستعارة أمد ميدانا ، وأعظم أفتانا وأكثر

جريانا ، ... ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب

له بعد الفضل فضلا ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فوائد حتى تراها مكررة في مواضع ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ... ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثمر). (1)

وقد زواج الشيخ في صورته بين (الوصف والرمز)، وهما عماد الصورة الخيالية، وهذا ما قاله أحد النقاد (يستخدم التصوير لتحريك العاطفة وليفعل هذا ، فإنه يستخدم طريقتين مختلفتين الوصف والرمز)(2)

وإذا مدح الشيخ التليلي ، فإنه يصور مكانة ممدوحه بين الناس ، في ظل انتشار الجهل :

بلى إن اليقين بأن فيكم منار الجد يرفعه الإمام
يضيء بنوره تلك الضواحي فيذهب عن جميعكم الظلام
فأثبت غصنه في أرض سوف وكنا الغصن يطره الغمام (3) .

استعار الشيخ الفعل (يضيء) ليدل على زيارة الإمام أحمد التليلي من فريانة بتونس لقمار، بينما الناس في منطقة سوف تعيش في أمية وجهل، فكانت زيارة الإمام منارة تضيء دريهم، وتبعد عنهم الجهل ، لذلك استخدم الصورة الثانية (الظلام) وهي استعارة تصريحية تبين حالة الناس، ثم شبه الشاعر نفسه بالغصن الذي زرع في أرض سوف (فأثبت غصنه في أرض سوف). لكن بقاء الغصن حيا يعتمد على الماء، وكانت الصورة الرابعة (يطره الغمام)، حيث استعار مطر الغمام ليدل على غزارة علم الإمام أحمد التليلي الذي أتى ليسقي الشيخ بمختلف العلوم، فالفرع يحتاج إلى الأصل دائما .

والاستعارة جديدة بما أولاهها النقاد من اهتمام ، فلقد جعلها عبد القاهر جمره مضيئة في الشعر، يقول عن الاستعارة (إنك ترى الجماد ناطقا حيا... وإذا نظرت في أمر المقاييس، وجدتها ولانصر لها أعز منها، ولا رونق لها ما لم تزنها، وتجد التشبيهات - على الجملة - غير معجبة ما لم تكنها، إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد طمست حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت للأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية بها تنالها الظنون) (4).

إن الصورة الاستعمارية عند الشيخ متنوعة، وانتشرت في كل قصائده تقريبا، فكانت ثرية في إبداع معانيها، موضحة لأفكاره، مبرزة لعواطفه .

1. عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة . ص: 40.
2. اللغة الفنية . (تعريب وتقديم) محمد حسن عبد الله. دار المعارف . القاهرة. ص: 81. وسيأتي تفصيل الكلام عن (الرمز) عند الحديث عن الكناية.
3. ديوان الدموع السوداء . ج2. ص: 69/68 .
4. عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة . ص: 33.

الصورة الكنائية

جاء في (الصحاح): الكناية أن تتكلم بشيء وتريد به غيره وقد كُنت بكذا عن كذا وكنوت... غيره.(1) فهو إيراد اللفظ في غير معناه الأصلي، ويعرفها عبد القاهر: (الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه).(2)

يقول الشيخ التليلي في زوجته:

أشلوا عليك كلابا من مكائدهم	فمزقتك وما هموا فسلوك
صارعت أسقام كيد من نبالهم	وما استطعت لها ردا فزادوك
وسددوا كل سهم في كنانتهم	حتى رموا قلبك الباكي فسموك
لماذا لا أدري عل الأمر مكتتم	أو ذاك طبع لهم بالطبع ضاموك
أو ذاك يا شمسنا كرها لزيجتنا	فأعلنوا كلهم شرا ولاموك (3)

فالشاعر يتحدث عن زوجته والظلم الذي لاقته من الأهل والأصدقاء، وعندما نتأمل قوله (كلابا) (مزقتك) فإننا أمام معنيين أو مدلولين. أولهما: المعنى القريب بأنهم كلاب متوحشة أطلقت على زوجته فمزقت جسدها، وثانيهما: أنهم تركوها للأعداء الذين لم يتوانوا في إضعاف عزميتها و النيل منها، وفي البيت الثاني استخدم كلمة (نبالهم) لتدل على الكلام المؤذي والقاتل الذي صدر منهم، وكذلك كلمة (سهم) فهم يريدون تحطيمها والقضاء عليها، وكلمة (سموك) هي كناية عن القهر ونيل المراد. أما كلمة (شمس) هي كناية عن الجمال الدائم، والمكانة الرفيعة والتعالي عن كيد الحاقدين. إن الصورة الكنائية تجسد المعنى، ليزداد وضوحا وترسيخا في الأذهان.

وعندما يتعرض الشيخ التليلي لحياة الناس يرى تناقضا كبيرا. يقول:

الثوب أبيض والقلوب حليكة فاسلخ نهارا تكشف الديجورا(4)

حيث استخدم الشيخ لفظة (أبيض) لتدل على نقاء الثوب، واستخدم كلمة (حليكة) لتدل على الحقد البغيض الذي يكنه الناس لبعضهم، واستخدم الطباق (أبيض - حليكة) ليدل على التناقض التام بين الشكل والمضمون.

وتحدث الشيخ التليلي عن خيانة المستعمر وغدره بالشعب الجزائري فقال:

1. إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح. تحقيق أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين ط 4 س 1990. ج 5. ص: 2477.

2. عبد القاهر الجرجاني: دلالات الإعجاز. ص: 52.

3. ديوان الدموع السوداء ج 1. ص: 98- 81.

حتى أتى هذا الغراب فأنشَب أَظْفاره مستأسدا متمرا (1)

إن كلمة (غراب) دالة على التشاؤم ، لذلك وظف الشيخ سواد لونه للدلالة على ظلمة الاستعمار .
والبلاغيون يقسمون الصور الكنائية ليكنى بها عن صفة ، أو عن موصوف ، أو عن نسبة (2) ، والكناية
عن صفة (هي التي تطلب بها نفس الصفة) (3). وقد مر بنا من أمثلتها الكثير ، ونذكر قول الشاعر :

أقبل مكتوبي إليه لعله يلامسه بالكف منه أو الثغر (4)

فالشيخ يصف شوقه لصاحبه في تونس ، حيث أخذ يقبل الرسالة من كل أطرافها على صديقه يلامسه
بكفه أو فمه ، لذلك قال (يلامسه بالكف أو الثغر) لتدل على شدة الشوق ، وهي صورة حسية .
يقول الشيخ مفتخرا بقيادة جمعية العلماء عند زيارتهم لوادي سوف :

وطن الرمال دس المجرة وافخرا أو ما ترى طير السعادة بشرا (5)

من فرح الشيخ لزيارة البشير الإبراهيمي ، أخذ يحث أهلها في حماسة واندفاع فقال (دس المجرة) وعبر
عن زيارة الإبراهيمي ب(طير السعادة) وهي كناية عن الأمل القادم ، والحظ الحسن الذي تحضى به
المنطقة من هذه الزيارة .

وعندما يتحدث عن الفتن يكسبها اللون الأحمر فيقول :

وجنبوا عنكم حمراء فنتتكم فإنها النار لا تدنوا لها الخطبا (6)

الشيخ التليلي يتحدث عن الفتنة ، حيث أكسبها اللون الأحمر ، وهو لون الدماء ، لأن الفتنة لا تؤدي
إلا إلى القتل فيلوث الناس أيديهم بالدم .

أما عندما يخاطب الشيخ الدكتور أبو القاسم سعد الله فيقول :

أحسنت صنعا سيدي أدخلتني في قصرك (7)

نلاحظ كلمة (قصرك) التي هي البناء الفخم ، وما يحويه من أسرار ، فكان الشيخ ذا مكانة مرموقة
ليكون من اهتمامات الدكتور ليطلب رأيه .

ثم تأتي الكناية عن الموصوف : (ما كان المكنى عنه موصوفا ...) (8).

1. ديوان الدموع السوداء ج 1 ص: 88.

2. علي الجارم - مصطفى أمين : البلاغة الواضحة ص: 124.

3. د/ شيخ أمين بكري : البلاغة العربية في ثوبها الجديد ج 2 ص: 144.

4. 7.6.5.4 ديوان الدموع السوداء ج 1 ص: 79 - 86 - 10 - 86.

8. عبد الرزاق عبد الرحمان السعدي : تنبيه الوسنان إلى علم البيان ص: 43.

فالصورة الكنائية هنا تنبئ عن (صاحب الصفة) ، وذلك مثل قول الشيخ :

أنا الذي أجرت رحى في الوغى وكسرت سيفي طعمة للصائل (1)

فهو يريد أن يبين وقوفه في وجه الأعداء، فكنى عنها بكلمة (الوغى)، لذا كانت الكنائية عن موصوف.

ويكنى عن قتال العلماء قوله :

وفي كفه للعدى حربة يداوي بها رأس كل مصاب (2)

وكنى عن المناطق المعروفة في الجزائر بالنجد والصحراء بالغور :

وامسحي الأرض بالثقافة مسحاً واتبعي الغور إن مررت بنجد (3)

يقول في أهل المنطقة الجاهلين والظالمين :

مخافة لسع من صفراء عقربة وحية تذر الأحياء كالبرد (4)

حيث شبه الشيخ هؤلاء الرجال بالعقرب الصفراء مرة والحية مرة أخرى، وهي حشرات سامة وقاتلة، منتشرة في المنطقة الصحراوية كما ينتشر هؤلاء الجهلة، ويقتلون كل محاولة لنشر العلم والإصلاح.

ويكنى الشيخ عن الخمر بقوله :

وإذا به في نزلها وبكفه بنت العنب (5)

أما الكناية عن النسبة ، فقد يسميها بعض البلاغيين (تخصيص الصفة بالموصوف) (6) أو (هي التي يراد بها

نسبة أمر لآخر إثباتاً و نفيًا ، فيكون المكنى عنه نسبة أسندت إلى ما له اتصال به) .(7)

يقول الشيخ التليبي :

وتلصق جلدكم بثياب خصم شعار حديثه مثل الدثار (8)

فالشاعر ينسب الكذب والسفه لثياب الخصم ، والثوب يلبسه صاحبه . ويقول أيضا :

وأرى الحزن لا يفارق ظلي كأن بيني وبين حزني وفاقا (9)

1. ديوان الدموع السوداء ج 2. ص: 54.

2. 5.4.3.2. المصدر نفسه ج 1. ص: 13- 38 - 35 - 17.

3. 7.6. رابع بوحوش : اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري. دار العلوم د. ط. س 2006. ص: 194 - 194.

4. ديوان الدموع السوداء ج 1. ص: 69.

5. المصدر نفسه ج 2. ص: 43.

وقد يتخطى الشيخ التليلي الصورة الكنائية إلى (الرمز) كأن يذكر اسما له صلة بموضوع الصورة، ويشير إلى قصة أو حادثة مشهورة يريد أن يحيلنا إليها .

والرمز هو (الصوت الخفي ، ويكون الرمز : الإيماء بالحاجب بلا كلام ، ومثله الهمس ، ويقال الرمز تحريك الشفتين) (1).

و الزمخشري يذهب إلى أنها تكون (بالشفتين والحاجبين) وضرب لذلك مثلا حين قال (دخلت عليهم فتغامزوا وترامزوا) (2). أي أن (تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية) (3).

أما الرمز في معناه الاصطلاحي الحديث هو : (الإيحاء أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالتها الوضعية) (4).

وعندما نعود إلى ديوان الشيخ نجده يستخدم (الخمر) رمز اللذة عند الاستمتاع بحلق الدروس والعلم يقول :

شربنا من أنسه مداما ألد من شرب خندريس

ثملنا في خلقه فملنا للأدب الغض بالرؤوس (5)

ويستخدم (الحمام) رمزا للسلام والود في آخر رسالة شكر بعثها لصديقه :

وفي الختام فالسلام الدائم عليكم ما غردت حمام (6)

وعندما يتحدث الشيخ عن المرأة يرمز لها ب(الأفعى) :

تزوجتني ضئيلة من رقص تلك الأفاعي (7)

وهي تدل على الغدر ، وسرعة القتل في صمت .

ومما يلاحظ في ديوان الشيخ طغيان اللون الأسود على شعره بدء من عنوان الديوان (الدموع السوداء)

وهي نظرة متشائمة ناجمة عن كره الشيخ المتعلم والمثقف والمصلح ورجل الدين للمضايقات والظلم

وافتراء الناس . كما ظهرت ألفاظ أخرى (سود طير) (مسود دكين) (أنا في ظلام) (عصا الظلوم) (القلوب

حليكة) وغيرها كثير ، وهي توحى بحزن الشيخ وانكساره ، فبعدها كان مفعما بالحماس والرغبة في تغيير

1. الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب العين .تحقيق مهدي المخزومي - إبراهيم السامرائي . ج 7 . ص : 366.

2. الزمخشري : أساس البلاغة .تحقيق محمد باسل عيون السود .دار الكتب العلمية بيروت . ط 1 .س 1998 .ج 1 .ص : 385.

3. يوسف السكاكي : مفتاح العلوم .ضبطه نعيم زرزور . دار الكتب العلمية بيروت ط 2 س 1987 .ص : 411.

4. محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن .نهضة مصر للطباعة والنشر . ط 3 .س 2003 .ص : 351.

5. ديوان الدموع السوداء ج 1 .ص : 150.

7.6 .المصدر نفسه . ج 2 .ص : 23- 12

المجتمع وتنويره بما تعلمه في تونس، قوبل بالعتن والرفض والسخرية، وزرع الشوك في طريقه قصد إحجامه والنيل منه، وهذا يؤكد قول محمد مندور في وظيفة الرمز (وظيفة الرمز بعد ذلك تختلف عن أوجه المجازات والاستعارات والتشبيهات التي عرفها علماءنا في أنها وسيلة للتجسيد أو التصوير، بل وسيلة للإيحاء بالمضمون العاطفي أو الفكري الكامن خلف اللفظ المستعمل كرمز) (1).

ونورد بعض الكلمات التي استخدمها الشيخ رموزا:

المنارة : رمز الهداية والأمل في الوصول إلى بر الأمان بعد ظلمة الاحتلال .

الشمس : رمز الأمل وبث الحياة والجمال .

القمر والبدر : رمز العلو والنور والمرشد .

الفجر : رمز الأمل المقرب .

الجبل : رمز الشموخ والعلو ، والقوة والصلابة .

الورود : رمز الأمل والخير .

الحمام : رمز الخير والسلام .

الليل : رمز المحتل وزمن الاحتلال .

الأوثان : رمز الخضوع .

السواد : رمز الحزن .

المدام : رمز لذة العلم .

العقارب : رمز الأهل والأقارب .

الأفاعي : رمز المرأة .

الغراب : رمز التشاؤم .

الذئب : رمز العدو الغادر .

الشیطان : رمز الاستعمار الغربي .

الصورة الكلية :

عرفت القصيدة العربية الحديثة تطورا كبيرا جعلنا نعتبرها كيانا عضويا، بحيث تتراكم الصور مترابطة متفاعلة كأنها سلسلة متصلة ببعضها البعض، لذلك نستطيع القول أن الوحدة العضوية للقصيدة ما هي إلا وحدة الصور، ومدى تماسكها لتقدم لنا الصورة المتكونة من مجموعة متماسكة من الصور تنفي وجود صور غير جوهرية أو زيادة على العمل الأدبي، وقد ترقى القصيدة إلى الصورة الكلية التي تتجمع فيها أعداد من الصور الجزئية ويعني ذلك أن الشاعر (لا يعتمد في إبراز الفكرة أو الحالة الشعورية على صورة واحدة، بل يعتمد إلى إثراء الصورة بصور أخرى ماثلة...ويمكن أن نشبه هذه الصورة باللوحة).⁽¹⁾

وتحتوي الصورة الجزئية على عناصر الحركة والصوت واللون والانفعال، وترتبط الصور ببعضها ارتباطا حسيا من خلال قص الأحداث وحكاية المواقف مما يزيد إحساسنا بتكامل الصورة، وتكشف عن فنية مبدعها،

وذلك مما نلاحظه في (قصة أم) للشيخ التليلي :

سلام عليكم سلام امرئ	تقمص بالأمس ثوب الشباب
تحير لم يدر أين الطريق	ولم يدر أين وكيف الصواب
ولكنه من بعيد بعيد	تسمع صوتا بأقصى الشعاب
ينادي هلم هلم إلي	إلي بني فهشوا الذئاب
إذا بالجزائر أم الجميع	تئن أنين المريض المصاب
فهاذي الكلاب وهاذي الذئاب	وهذا الغراب وذاك العقاب
تدور عليها تهر وتعوي	وتنقق والأم وسط العذاب
تناجي السماء وشمس الضحى	وفي الليل تهمس أين الصحاب
ولما مضى في التناجي الكثير	تعالى الجواب بصوت أهاب
أماه بحقك لا تجزعي	فها أنا ذا قد سمعت الخطاب
وجئتك لما سمعت النداء	لأحمي حماك وكنت الجواب ⁽²⁾

نلاحظ في الأبيات سيلا من الصور التي حشدتها الشيخ، اجتمعت لترسم صورة كلية، بل لوحة حزينة

1 . عبد الحميد هيمة : الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري. مطبعة دار هومة. ط1 س 2003. ص: 129.

2 . ديوان الدموع السوداء ج 1. ص: 13/12.

ملينة بالعواطف الصادقة والمؤثرة ابتداء من صورة الأم الجريحة والخائفة وهي تمثل الجزائر ، مروراً باشتام الحيوانات لرائحة الدم ، واجتماعهم حول الفريسة ، وهي صورة المستعمر الذي يريد قتلها واستنزاف ثرواتها ، وانتهاءً بسماع الاستغاثة وتلبية النداء . وإذا ازداد تعمقنا للصورة فسوف نسمع الصوت (هلم - تئن - تهر - تعوي - تنعق تناجي - يسمع - تهمس - النداء - الجواب) كما تظهر الحركة في (أين الطريق - تدور - جئتك - هشوا) ويبرز الانفعال في (أنين المريض - العذاب - بني). وجاءت القصيدة بشكل قصة تعتمد على الحوار .

كما ظهرت الصورة الكلية في قصيدة (الشمس) حيث يقول :

إني خرجت بليلة	عمياء ليس لها بصر
وفتحت عيني في الوجد	ود فماعترت على أثر
فطفقت أبحث في السما	ء عليك يا شمس الوجود
قلبت طرفي في الدجى	وأجلت قلبي في الغيوب
فلمحت في الأفق البعيد	مد بصيص نور في الرسوب
قلت الضياء هناك أح	سب لاح في أفق الجنوب
فتلفت نحو الضياء	ساء بصيرتي كيما تراه
والغيم يحجب تارة	ذاك الضياء إذا عراه
فعلمت يا شمس الحقي	قة أنه وهم الجدود (1)

لقد مزج الشيخ بين عناصر الصورة الكلية المتمثلة في الحركة والصوت واللون من خلال العاطفة القوية ، فقد صور الأمل في انتشار العلم بـ(الشمس) وكذلك (الضياء) ، وصور وقوف الأعداء في وجهه بـ (الغيم) الذي يحجب الشمس ، وصور الجهل المسيطر على المنطقة بـ(الدجى) ، ودلت كلمة (وهم) على التأكد من استحالة تنوير العقول في ضل هذه العوائق . وظهرت عناصر الصورة منها اللون (الدجى - الشمس - الضياء - الغيم - نور - عمياء) والحركة تظهر في (خرجت - أبحث - لمحت - أجلت - تلفتت) والصوت يظهر في (قلت) أما الانفعال فكان في حزن الشيخ ويأسه (وهم الجدود) ، والأمل والفرحة في (بصيص نور) .

ثم نلمح المحسنات البديعية ، وهي ظاهرة ملفتة للانتباه في شعر الشيخ ، حيث ظهر التضاد في البيت الأخير من القصيدة الأولى (الليل - الضحى) ، ورد العجز على الصدر في البيت الثاني من نفس القصيدة ،

وكذلك حسن التقسيم في البيت السادس :

هاذي الكلاب وهاذي الذئاب وهذا الغراب وذاك العقاب

كما ظهر الطباق في قصيدة (وداع كتاب) :

أنت في ظلّمة الطريق مناري لإيماني الصحيح بل أنت شمسي

أنت حضني من كل تلك البرايا أنت سعدي وغيرك اليوم نحسي

بعتك اليوم يا ضحيّة فقر نال مولاك في أوائل عرس

فكتمت الأمرين فقرا وضرا عن صديق وعن عدو أخس (1)

حيث نلاحظ (ظلّمة - شمس) ، (سعد - نحس) ، (صديق - عدو) ، وكلها تزيد في توضيح المعنى وتوكيده .

وورد الطباق عند معاتبته للزمان .يقول :

أسأت إليّ في سرّ وجهر وأغرّيت اللئام على احتقاري (2)

وهو طباق الإيجاب (سر - جهر) . ووردت المقابلة والطباق في موقع آخر من القصيدة :

وحسّنت الفضيلة في شباب وقبحت الرذيلة في صغار

وقاومت العدو ولم أبال بما لاقيت من نور ونار (3)

حيث وردت المقابلة في (حسنت الفضيلة - قبحت الرذيلة) وكذلك الطباق في (نور - نار) ، وكلها تزيد في توضيح المعنى وتثبيته في الذهن .

الموسيقى

إن موسيقى الشعر لها دور كبير في خلق الجو النفسي الذي يرسم البناء الفني للقصيدة ، ويعبر عما تحمله التجربة الشعرية وما تفرزه من انفعالات وخواطر تحدد مقاطع البيت ، وتنظم ضروب الوقفات والسكنات ، وتقرر مدى الحاجة إلى القافية ونوعها ، وهو الذي يساعد الشاعر - إذا اقتضى الأمر - أن ينتقل من وزن إلى آخر في القصيدة الواحدة . لذلك فالشعر (هو موسيقى ينظمها الوزن والتفعيلة ، ويحضنها الإيقاع الذي يتشكل ليس فقط من الوزن ، بل من الطبيعة الفيزيائية النوعية للأصوات التي تنتظم في المقاطع والكلمات).⁽¹⁾

وبذلك يعتبر نقاد الأدب ودارسوه أن الموسيقى من أهم العناصر في الشعر، ولعل الوزن والقافية هما أكثر عناصر الموسيقى أهمية، وقد تعددت عناصر هذه الموسيقى، إلا أنه يظل للوزن والقافية أهميتهما الكبيرة . فالموسيقى مجموعة من الوحدات الزمنية المنتظمة التي يمكن من خلالها تحديد وزن معين تفرضه التجربة الشعرية والحالة النفسية للشاعر و بهذا تبرز القيمة الحقيقية للموسيقى من زاوية أخرى ، باعتبارها وسيلة إيحائية أكبر منها حلية خارجية .

والموسيقى هي قالب بالغ الإحكام والدقة من مجموع القواعد التي يقوم على أساسها بناء القصيدة ، فهي قادرة على محاكاة اللغة من داخلها، من خلال الأوزان الشعرية المعروفة ببحور الشعر والقوافي، وكذلك التمييز بينها من خلال اللفظ والمعنى، والبيت الشعري وما يليه.

وإذا كانت الموسيقى تركز على الحالة النفسية التي تعترى وجدان الشاعر، فعلينا أن ننبه بعدمية الفصل بين الموسيقى والمشاعر، لكونهما من أساسيات البناء الشعري والشعوري، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن تبنى القصيدة إلا من خلال هذا النسيج الموسيقي الذي تتحول فيه الفكرة إلى لغة شعرية، ثم إلى جمل، ثم أبيات منتظمة ، وأخيرا إلى قصيدة كاملة البنیان .

وموسيقى الشعر نوعان هما : الموسيقى الداخلية والخارجية ؛ أما الخارجية فتتمثل في الوزن والقافية ؛ وهي بمثابة الإطار الفني الذي يجسد تجربة الشاعر ، ويوافق طبيعتها من حزن وفرح . وسوف نستتبع عناصر الموسيقى من خلال دراستنا لديوان الشيخ التليلي ونبدأ بالموسيقى الداخلية .

الوزن:

يعرف الناقد غنيمي هلال الوزن قائلًا(هو مجموع التفعيلات التي يتألف منها البيت ، وقد كان

1. قاسم برسيم : منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري . ط 1 س 2000.ص : 43.

البيت هو الوحدة الموسيقية للقصيد العربية(1)، ونلاحظ ذلك من خلال اختيار موضوعين من موضوعات شعر الشيخ ألا وهما: الوصف والشكوى. حيث نجد أنه لم يختار وزنا واحدا لكل غرض ، وإنما صاغ الغرض الواحد في أوزان وبحور مختلفة .

ففي باب الشكوى نجد الشيخ التليلي يستخدم البحور الطويلة و القصيرة والمجزوءة ، يقول الشيخ قلنا متضجرا في (الطويل):

كرهت حديث الناس في آخر العمر	وعفت حديث الكتب في باطن الأمر
وعفت حديث النفس من أجل أنه	سراب تظن الماء في أرضه يجري
فملت إلى النوم الثقيل لعلمي أرى	في حديث النوم شيئا من الخير
فلم أر في الأحلام يوما لذة	ولكنها الأضغاث تنذر بالشر(2)

فلقد استخدم بحر الطويل وتفعيلاته في أصلها :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن
تقطيع البيت الأول :

كرهت حديث الناس في آخر العمر	وعفت حديث الكتب في باطن الأمر
0/0/0//0/0//0/0/0///0//	0/0/0//0/0//0/0/0///0//
فعول مفاعيلن فعولن مفاعيلن	فعول مفاعيلن فعولن مفاعيلن

و سمي الطويل طويلا لمعنيين أحدهما أنه أطول الشعر فقد بلغ عدد حروفه ثمانية وأربعين حرفا ، والثاني أن الطويل يقع في أوائل أبياته الأوتاد والأسباب بعد ذلك ، والوتد أطول من السبب (3). ويشتكى في قصيدة (الوحدة خير من جليس سوء) من (مجزوء الرجز) قائلا :

يا لائمي تفننا	وعاذلي تحننا
فلا تلم مقيدا	ملجما مرسنا
لقد تعبت زمننا	داريت فيه الزمننا (4)

في الوصف ينوع الشيخ التليلي بحوره أيضا ويستخدم (تام الرمل ومجزوءه) قائلا :

حبذا لو دام عيشي هكذا	نأثلا مني رضا قلبي له
لكن الوخز من القلب هذى	قائلا للنفس هيا انتبهي

1. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي . ص : 436.

2. ديوان الدموع السوداء ج 2. ص : 25.

3. الخطيب التبريزي . الوافي في العروض والقوافي تحقيق فخر الدين قباوة . دار الفكر دمشق ط 4 س 1986 . ص : 37.

4. ديوان الدموع السوداء ج 1. ص : 126.

إن هذا العيش موبوء دني (1)

ثم يستخدم الشيخ التليلي (المجتث) وهو بحر قصير ، فيقول واصفا حاله عند الكبير :

فتلك حال حياتي	بعد الثمانين عاما
قد خلفتني وراء	وكنت قبل أماما
وحطمتني وجودا	وحطمتني مقاماما
إن لام من لام شخصي	فالعمر أولى ملاما
سترت بالبيت عيبي	عمن يجب اجتراما (2)

فعلى الرغم من أن المجتث بحر قصير ، ويتكون من التفعيلات (مستفعلن فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) إلا أن الشيخ أحسن استخدامه وأوفى معانيه .

وقد قمت بإحصاء البحور التي استخدمها الشيخ التليلي ، وأذكر نسبة استخدام كل منها ، ففي الديوان المقسم إلى جزأين قرابة أربعة آلاف وستمئة بيت موزعة كالتالي : (الرجز) إحدى و ثلاثون قصيدة وعشر مقطوعات أي 22،40٪ ، و(الكامل) إحدى و ثلاثون قصيدة وخمس مقطوعات أي 67، 19٪ (البسيط) تسع عشرة قصيدة وإحدى عشرة مقطوعة أي بنسبة 39، 16٪ ، (الوافر) عشرون قصيدة و ثلاث مقطوعات أي 12،56٪ ، و (المجتث) ست عشرة قصيدة ومقطوعتان أي 9،83٪ ، (والطويل) سبع قصائد وإحدى عشرة مقطوعة ، أي 9،09٪ ، و(الخفيف) اثنتا عشرة قصيدة وأربع مقطوعات أي 8،08٪ ، و(الرمل) إحدى عشرة قصيدة و خمس مقطوعات أي 08،08٪ ، و(المتقارب) سبع قصائد ومقطوعتان أي 4،54٪ ، و(الهمزج) قصيدتان ومقطوعة واحدة أي 1،51٪ .

والشيخ التليلي يستخدم بحر (الرجز) و(الكامل) أكثر من البحور الأخرى ، وكل منهما بحر صاف بثلاث تفعيلات ، وتفعيلات الرجزي هي :

مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن

وقال عنه التبريزي : (سمي رجزا ، لأنه يقع فيه ما يكون على ثلاثة أجزاء ... هو مأخوذ من قولهم : ناقة رجزاء ، إذا ارتعشت عند قيامها ، لضعف يلحقها أو داء ، فلما كان هذا الوزن فيه اضطراب سمي رجزا ، تشبيها بذلك) (3)

أما أجزاء الكامل :

متفاعل متفاعل متفاعل متفاعل متفاعل متفاعل

1.ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 124

2. المصدر نفسه.ج.2.ص: 75.

3. الخطيب التبريزي : الوافي في العروض والقوافي .ص: 102 .

قال التبريزي في الكامل : (سمي كاملاً لتكامل حركاته ، وهي ثلاثون حركة . ليس في الشعر شيء له ثلاثون حركة غيره).⁽¹⁾

لقد كان نصف النظم في بحر (الرجز) مجزوءاً ، واستعمله في المجال التعليمي للأطفال ، حيث يقول في قصيدة (أين تكون راحة الإنسان) :

أين تكون راحة الأنام	في يقظة أو سنة الأحلام
قد ذكروا في راحة الأجسام	تقليلها من كثرة الطعام
وراحة الأرواح في السلام	من كثرة الذنوب والآثام
وراحة اللسان في الكلام	قلته وتم بانتظام
وراحة العقول في النظام	وراحة الجهول في الحمام ⁽²⁾

وإذا ما قمنا بتقطيع البيت الأول ، فسوف نجد :

أين تكون راحة الأنام	في يقظة أو سنة الأحلام
0/0 / /0 //0//0//0/	0/0/ 0/0 ///0/0//0/0/
متفعلن متفعلن متفعل	متفعلن متفعلن مستفعل

نلاحظ أن الشيخ التليلي استعمل (الطي) ⁽³⁾ في التفعيلة الأولى [الطي هو حذف رابع الجزء ساكناً من التفعيلة] ، و(خبن) التفعيلة الثانية ، والثالثة فيها (خبن) و(قطع) ⁽⁴⁾ حذف آخر الوند المجموع ، وإسكان ما قبله [جاءت التفعيلة (متفعل) ، أما عجز البيت جاءت التفعيلة الأولى فيه صحيحة ، والثاني به (طي) ، والضرب (مقطوع) . وما يمكن ملاحظته أن الشيخ قد استغل ما تبيحه الزحافات والعلل في الأبيات .

وقد جعل الشيخ التليلي (بحر الكامل) يسيل رقة وعضوبة ، حيث يقول في رسالة كتبها لصديقه :

بلغ الدواء بحسبه وبمائه	وتكسرت أقراصه بإنائه
وانساح من ماء الزجاجه جلّه	ولكن في الباقي كمال شفائه
وكذا الرسالة بلغتني لومكم	متقمصاً في طيها بكسائه
الماء يشفي الأخت من علاتها	واللوم يشفي الخل من أدوائه
فلك الجزيل من الثواب وشكرنا	ولنا الدوا من نطسنا ونثائه ⁽⁵⁾

و إذا ما تأملنا الأبيات السابقة نجد الشيخ استعمل فيها حروف اللين ، لأنه يهمس في أذن صاحبه وخله ،

1. الخطيب التبريزي : الوافي في العروض والقوافي . ص : 78 .

2. ديوان الدموع السوداء . ج 1 . ص : 121 .

3. موسى بن محمد بن الملياني الأحمدى : المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي . ط 2 س 1969 . ص : 25 - 36 .

5. ديوان الدموع السوداء . ج 1 . ص : 154 .

فيلتمس عذره في نغم هادئ رزين ، ونجده يستخدم حروف المد (الياء والواو والألف). وإذا ما قمنا بتقطيع البيتين الثاني والأخير في القصيدة السابقة نجدها :

وانساح من ماء الزجاجة جله
O//O///O//O/O/O//O/O/
متفاعلن متفاعلن متفاعلن

لكن في الباقي كمال شفائه
O//O///O//O/O/O//O/O/
متفاعلن متفاعلن متفاعلن

واسمح لخلك إن أساء إجابة
O//O///O//O///O//O/O/
متفاعلن متفاعلن متفاعلن

فهو المريمي ض فناؤه بفنائه
O//O///O//O///O//O///
متفاعلن متفاعلن متفاعلن

فالشاعر يستغل ما تبيحه الزحافات والعلل ، وذلك لإغناء النغم الموسيقي ، ففي البيت الأول (خبن) التفعيلتين الأولى والثانية ، وكانت الثالثة صحيحة ، ومثل ذلك فعله في عجز البيت ، أما البيت الثاني كانت التفعيلة الأولى فيها (خبن) والثانية والثالثة صحيحة ، وكذلك في العجز .
وإذا تركنا بحر (الرجز) و(الكامل) ، وهما أكثر البحور استخداما عند الشيخ التليلي ، وذلك لننظر في بحر (الطويل) ، فإننا نجد الشيخ ينوع أغراضه ولا يقصرها على غرض واحد ، يقول الشيخ التليلي متشوقا لتونس :

أنت زماني غادرا ومخادعا
ويا تاركي وحدي وتونس أنسه
أيرضيك أن القلب يبكي كآبة
إذا ما انقضى يومي وزاد تهوسي
ويقول موضحا عقيدته عندما مرض فقال :

وأعلم أنني لا محالة صائر
وأوقن أن الله سوف يعيدينني
وسوف أوفى يوم عرض صحائف
ورحماءه إن أقلت علي جناحها
ويبين للتلاميذ أولوا العزم فقال :

مصير الناس للفناء وللفك
وتعرض أعمالي علي بلا شك
صنيعي من فعل فعلت ومن ترك
نجوت وإلا فالمصير إلى الهلك⁽²⁾

أولوا العزم في القرآن من رسل ربنا
 وهم نوح إبراهيم موسى محمد
 يعدون خمسا في صحيح المذاهب
 وعيسى وقول الغير غير مناسب (1)
 ومن البحور التي استخدمها بقلّة بحر (الهزج) حيث يقول في الحكمة :
 أحق الناس بالرحمة
 ومن كانت له حظوة
 فأقصاه ذوو القوة
 وتقطيع البيت الأخير :

فأقصاه ذوو القوة
 0/0/0// /0/0//
 مفاعيلن مفاعيلن
 إلى منحدر خال
 0/0/0/// 0/0//
 مفاعل مفاعيلن

نلاحظ أن كل التفعيلات صحيحة عدا التفعيلة الأولى من العجز التي فيها (كف) (3) -حذف سابع الجزء ساكنا I.

وكذلك يستخدم الشيخ مجزوءات البحور ، وأكثرها (مجزوء الرجز) و(مجزوء الكامل) و(مجزوء الرمل).

حيث يقول في رسالة بعثها إلى الدكتور بالقاسم سعد الله من (مجزوء الرجز) :

يا مهدي لي جواهرها
 أهديت لي ثقافة
 أهديت لي مؤلفا
 قد احتوى كل الذي
 ويقول من (مجزوء الكامل) :

سرح جفونك يا فتى
 قد جادها غيث الحيا
 وكساها من نبت الربا
 وتقطيع البيت الأول :

في روضة الحسن البهي
 وقت البكور وفي العشي
 مطر تعزز بالسولي (5)

1. ديوان الدموع السوداء ج2 ص: 39.

2. المصدر نفسه ج1 ص: 110.

3. موسى بن محمد بن الملياني الأحمدى : المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي. ص: 25.

4. ديوان الدموع السوداء ج2 ص: 86.

5. المصدر نفسه ج1 ص: 160.

في روضة الحسن البهي

0//0/0/0//0/0/

متفاعلن متفاعلن

سرح جفونك يا فتى

0//0//0//0/0/0/

متفاعلن متفاعلن

ومن هنا نلاحظ أن الشيخ التليلي قد استفاد من الأوزان الشعرية بأقصى ما يستطيع، فلقد استخدم البحور الطويلة والقصيرة، واستخدم مجزوءات البحور، ومزج الشيخ موسيقاه بعواطفه فأعطت للنغمة الموسيقية صدقا وتأثيرا وخلودا .

الإيقاع

إن الإيقاع في الدرس العربي القديم لا يكاد يخرج كله عن مفهوم مطابقتة للوزن، ذلك أن العلماء القدامى لم يتعمقوا الإيقاع، ولم يدركوا جوهره، مما أدى إلى إهمال الحركة الإيقاعية . إن الدرس القديم للإيقاع الشعري ظل مرتبطا بالإيقاع الموسيقي لما بينهما من تناسب في زمن الحروف وتتابعها وترتيبها، وتكرارها بنسب محدودة، فحصروا الإيقاع الشعري في إطار زمن النطق، ولم يتعدوه إلى عناصر أخرى .

أما الإيقاع من وجهة نظر حديثة، فهو مصطلح إنجليزي، انشق أصلا من اليونانية (بمعنى الجريان) و(التدفق)، وتطور فيما بعد ليصبح مرادفا للكلمة الفرنسية (Mesure) المعبرة عن المسافة الجمالية. (1) ويتناول (حركة الأصوات الداخلية التي لا تعتمد على تقطيعات البحر أو التفعيلات العروضية) (2) وبالعودة إلى ديوان الدموع السوداء للشيخ التليلي نجد أن الإيقاع في القصيدة قد يبدو هادئا حيناً، وحيناً آخر يكون قويا وذلك حسب الحالة الشعورية التي تقود المبدع.

يقول الشيخ التليلي في وصية للناس :

وحنجته يوم التكلم بالحجج	ومن يحفظ القرآن كان دليله
تصدى بإلقاء الشكوك من الهمج	وكان له سيفاً حساماً لمن له
وموعظة تهديه للطيب الأرج	وكان له عند التفكير عبرة
وذكرها به تحيي الموات من المهج (3)	وكان له وقت المشيب عبادة

1. Paul Robert Dictionnaire de langue française(Tomes), Société du nouveau lettre Paris,1975,p213.

2. عز الدين إسماعيل :الأسس الجمالية في النقد العربي . 315.

3. ديوان الدموع السوداء.ج.2.ص: 27.

فهذه الأبيات يدعو الشاعر الناس فيها لحفظ القرآن وبين آثاره وإذا تأملنا إيقاعها، نجد هادئا ممتزجا بعاطفة المعلم و المربي الناصح، ورجل الدين الحريص على توجيه الناس، وإذا كان النصح يتطلب الإقناع ويحتاج إلى الهدوء، فإن الإيقاع هنا جاء كذلك هادئا، وقد استخدم الشاعر فيه بحرا رزينا هادئا يصلح للإغراض الجدية الجليلة الشأن، فكان الطويل لطول نفس المصلح والمربي، واستفاد مما يعتربه من مباحات الموسيقى الشعرية، فنجد تقطيع البيت الأول:

ومن يحفظ القرآن كان دليله	وحجته يوم التكلم بالحجيج
0//0///0//0/0/0//0/0//	0/0//0///0//0/0/0//0//
فعولن مفاعيلن فعول مفاعيلن	فعول مفاعيلن فعول مفاعيلن

وتقطيع البيت الرابع:

وكان له وقت المشيب عبادة	وذكرابه تحي الموات من المهج
0//0///0//0/0/0//0/0//	0//0///0//0/0/0//0/0//
فعول مفاعيلن فعول مفاعيلن	فعول مفاعيلن فعول مفاعيلن

فلقد استخدم (القطع) في صدر البيت الأول مرتين في التفعيلة الثالثة والرابعة، بينما جاء نفس الزحاف في عجز البيت في التفعيلة الأولى والثالثة والرابعة، وفي البيت الرابع جاء (القطع) نفسه في صدر البيت في التفعيلتين الأولى والثالثة والرابعة، وجاء في العجز في التفعيلة الأولى والثالثة أيضا، فالزحاف وقع في الأشطر الأربعة، ثلاثة منها في نفس المكان (التفعيلة الأولى و الثالثة والرابعة) وهذا ما أضفى صورة إيقاعية على المقطوعة. وقد يكون الإيقاع هادرا شديدا وذلك عند استقبال وفد جمعية العلماء

برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس

إيه جمعية الجزائر سيـري	وانشري بيننا صحائف ود
وجدودا هم الأسـود بلاء	في لباس من مهـابة ورد
وامسحي الأرض بالثقافة مسحا	واتبعي الغور إن مررت بنجد
وارفعي راية الجـزائر إنا	قد سئنا السباب من كل فرد
واقطعي دابر الذين رمـونا	بسمات وكذبي كل وغد(1)

فالإيقاع بدا هادئا، ثم ما لبثت أن سيطرت الحماسة على الشيخ، وارتفعت حدة الإيقاع ملونة بعاطفة الفرحة لزيارة الشيخ ابن باديس (فهو حركة شعورية تمتد بامتداد الخيال والعاطفة، فتعلو وتنخفض،

وتعنف وتلين ، وتشتد وترق ...). (1) و استخدم الشيخ التليلي (البحر الخفيف) وتقطيع البيت الأول :

إيه جمعية الجـزائر سيرى وانشري بيننا صحائف ود

0/0///0//0//0/0//0/ 0/0///0//0//0/0//0/

فاعلاتن / مستفعلن / فعلاتن فاعلاتن / متفعلن / فعلاتن

حيث دخل (الحنن) على التفعيلة الثانية و الثالثة من صدر البيت و عجزه. إذا فالإيقاع هو موجة صوتية :
(تسير سير الشاعر وتتردد صدى أنفاسه وتلون رؤيته بجمال أصداها فترسم من خلال نغمها أجمل لوحة). (2) والإيقاع لا يتكون من ميزان عروضي وموسيقي فحسب ، بل هو عنصر متلاحم ومنسجم مع بقية العناصر الموسيقية الأخرى .

(أ) - التلوين الموسيقي والنغمي

يقول الشيخ التليلي مبينا نعمة الزواج ونقمة :

وكان في العرس بخت إذا تزوجت صاح

وما لعرسك أخت فأنت لاشك صاح

من قول رب عليم في الذكر نص شريف

وكيدهن عظيم (3) كيد اللعين ضعيف

فلو تأملنا هذا المرح لوجدناه من (بحر مجتث) وكانت تفعيلات البيت الأخير :

وكيدهن عظيم كيد اللعين ضعيف

00// /0 // 0// 0/0 // /0 //0/0/

متفعلن فعلاتن

فنجده ينوع في القوافي داخليا ، وخارجيا تنوعا يتلاءم مع المرح الذي يحتاج إلى التغيير ، فتكون هناك الحركة في كسر الحاء ثم ضم التاء ، وفي العجز ثم تتكرر الحركات بنفس الترتيب في البيت الثاني وفي البيت الثالث نفاجا بموسيقى جديدة ، فتتوقف عند تنوين الضم في الفاء ثم هناك سكتة أو وقفة عند الميم الساكنة ، ويتكرر هذا في البيت الرابع ، فيكون الترتيب بيتان يتفق الشطر الأول فيهما بنفس الحرف ، ويتفق عجز البيتين في حرف آخر ، وكذلك هو الحال في كل القصيدة .
فهو يلون موسيقاه وينغمها بتطويل البحور ، أو تقصيرها ، باستخدام المساحات من الزحافات والعلل ،

2.1. عبد الرحمن الوجي : الإيقاع في الشعر العربي . دار الحصاد للنشر والتوزيع . ط 1 س 1989 ص : 79 - 80

3. ديوان الدموع السوداء ج 2. ص : 13.

ومثل هذا التنوع نجده في قصيدة (احتضار الأمل المريض في البلد البغيض) :

صاحت النفس الطموح ويلتا ما لعيشي لم يكن يوما رغيد
حيثما يمت ألق العنتا فكأنني لست من هذا العبيد
أو أتوا بي بعد قسّم المنن
ليتني كنت ترابا أو صفا أو حمارا أو جهولا أحمقا
عل هذا الدهر يحبني الصفا فيجازيني على ذلك الشقا
بجميل ولذيد وهني (1)

فوجد الشيخ استخدم (تام الرمل – ومشطوره). ولو قمنا بتقطيع الأبيات : الأول والخامس نجد:

صاحت النفس الطموح ويلتا ما لعيشي لم يكن يوما رغيد
0//0//0//0/0/0//0/ 00//0/0/0//0/0/0//0/
فاعلاتن فاعلات فاعلن فاعلاتن فاعلاتن فاعلات

عل هذا الدهر يحبوني الصبا فيجازيني على ذلك الشقا
0//0/0/0//0/0/0//0/ 0//0/0/0//0/0/0//0/
فاعلاتن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلاتن فاعلن

فالشاعر يستخدم (تام الرمل) وحشو البيت الخامس (مخبون) (2) والخبن هو [حذف الثاني الساكن من التفعيلة] فتتحول (فاعلاتن) إلى فاعلاتن (بينما الضرب والعروض (محذوف) (3) وهو إسقاط السبب الخفيف من آخر التفعيلة] فتتحول (فاعلاتن) إلى (فاعلن) أما البيت الأول فالحشو سالم والعروض (محذوفة) مع الضرب (المقصور) والقصر (4) هو حذف ساكن السبب الخفيف ، وإسكان ما قبله [فتحولت (فاعلاتن) إلى (فاعلات) .

وتقطيع البيتين الثالث والخامس (المشطور) :

أو أتوا بي بعد قسّم المنن
0///0/0//0/0/0//0/
فاعلاتن فاعلاتن فعلمن

1. ديوان الدموع السوداء ج1 ص 134/135.

2. محمود بن حسن بن عثمان: المرشد الوافي في العروض والقوافي. دار الكتاب العلمية لبنان ط1 س 2004 ص: 28.

3. المرجع نفسه 33- 34.

بجميل ولذيذ وهني :

0///0/0///0/0///

فعلاتن فعلاتن فعلن

حيث (خبن) البيت الثاني إضافة إلى دخول (الخبن) و (الحذف) على التفعيلتين الأخيرتين.

(ب) - التقفية الداخلية والترصيع

يقول الهاشمي (الترصيع هو توازن الألفاظ مع توافق الأعجاز أو تقاربها) (1) وهو يحدث نغما موسيقيا في القصيدة ، كما يعرفه أحد النقاد على أنه وسيلة (من وسائل التوقع الذي يتنوع بين الإشباع والإخفاق) (2).

يقول الشيخ التليبي عند إتمام بناء مسجد الطلبة :

لاغرو لاغرو إن كانت عقائدنا

كما علمت وكنا مثل ذا النعم

فالجهل قائدنا والخبن رائدنا

والحقد عائدنا والحسد لم ينم (3)

ففي البيت الثاني نسمع إيقاعا واضحا متوافقا مع الجو النفسي ؛ فالجو النفسي فيه سرعة لذا جاء الإيقاع سريعا ، والشاعر (يستخدم الأصوات التي تتلاءم بصورة ما مع الجو النفسي والشعوري للقصيدة ، كما يستخدم هذه الأصوات ليعبر من خلالها عن فكرة أو معنى) (4).

ويقول الشيخ وصفا حاله عند العجز :

فقلبي عليل وجسمي نحيل

وطرفي كحيل بداء الذهاب

وعقلي دخيل وفكري كليل

وفهمي قليل ومائي سراب

إذا كان علمي وسيلة ذمي

بمجلس قومي فما الجهل عاب

وفيم السرور بأرض الشرور

وسب الحضور ولا من حساب

أقضي نهاري بباحة داري

وأستر عاري وأتلو الكتاب (5)

وهنا نلمح الهدوء الموسيقي الرزين النابع من شيخ أنهكته حوادث الدهر وجراح الزمان ، ونرى الكلمات صحيحة في أغلبها خالية من حروف اللين ، وهذا يتوافق مع آرائه الدينية في ذم بعض العادات ، وتحتوي الأبيات على الكثير من حروف المد التي يحتاج إليها عند وصف حاله .

1. أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة . ضبط يوسف الصميلي . المكتبة العصرية . بيروت . ص 332.
2. د/ مصطفى السعدني : التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل . منشأة المعارف بالإسكندرية . ص 186
3. ديوان الدموع السوداء ج 1 . ص 116 .
4. حسني عبد الجليل يوسف : التمثيل الصوتي للمعاني دار الثقافة للنشر . القاهرة . ط 1 س 1998 . ص : 60.
5. ديوان الدموع السوداء ج 2 . ص : 80.

(فالإيقاع يضبط حركة النفس ، فإذا كانت سريعة جاء مثلها ، وإذا كانت هادئة جاء هادئا).(1)وقد ظهر التنوع في شعر الشيخ التليلي بصورة واضحة .

يقول الدكتور رابح بوحوش أن : (إيقاعات الشعر تتحقق من خلال الكلمة سواء أكان ذلك في وظيفتها أم في معناها أم في أصواتها وجرسها وتصريفها وإيحاءاتها ودلالاتها ومكانتها في السياق).(2)

(ج) التوزيع الصوتي في التعجب والنداء والإثبات والنفي والنهي والطلب بأقسامه :

(فالتعجب) في قول الشيخ التليلي :

بل عجب عجاب(3)

أليس ذا عجيب

ومن (النداء) قوله :

يا ذاة يا قدوة للمقتد(4)

أهلا بكم يا سادة يا قادة

وقوله في الزوجة الشهيدة :

والدهر لا يرعوي واللحد داعيك

يا نفس لا تجزعي فالموت ناعيك

فالموت عن كارثات الدهر يلهيك

يا نفس لا تظهرى حزنا لحادثة

تلك البقية في الموتى تلاقيك

يا نفس بعضك مات اليوم فارتقبي

وخلفت بعدها آثارها فـيك (5)

فعنك يا نفس غابت شمس مجمعنا

ومن (النفي) قوله :

عن حوضه لا مسمع إن أخبرا(6)

لا قائم بشؤونـه لا ذائد

ومن النهي :

تفتي بقتلك عمدا

ولا تداعب فتاة

أمست لرأيك ضدا

ولا تخاطب عجوزا

يهدمن مالا و مجدا (7)

ولا تقارب نساء

ومن (الأمر) :

وانهضوا نهضة الطيب المؤسي (8)

أيها القوم شمروا واستعدوا

1. إبراهيم أمين الزرزموني : الصورة الفنية في شعر علي الجارم ، ص 288

2. رابح بوحوش : اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري . ص 29.

3. ديوان الدموع السوداء ج 2. ص : 31 .

4.5.6.7.8..المصدر نفسه ج.1. ص : 43 - 79 - 77 - 51 - 148.

وقوله :

فحدث عن حضور أو هضور
وسرح من لسانك أو فصرح
ولاتكن الحديث ولا تكن
ومن (الاستفهام) في جفاء الزمان و الإخوان يقول :

إلي والعين حمرا
أم سائل لي أجرا (2)

وقوله أيضا :

ألم يعلم بأن الغرب خلو
ألم يعلم بأن الغرب أولى
ومن (الإثبات) في جفوة الزمان يقول :

ألا يا دهر مالك لا تداري
جرحت كرامتي وأهنت عرضي
أسأت إلي في سر وجهه
وأقمت علي في سوق المخازي

ومالك لا تساعد أو تجاري
وأخلاقي وملت إلى عثاري
وأغریت اللثام على احتقاري
بأبناء السفاهة سوق عار(4)

القافية :

نستتبع الحديث عن الوزن بالحديث عن القافية ، لأنهما عنصران متلازمان في الشعر العربي التقليدي ، بحيث لا تكتمل عناصر العمل الفني إلا بهما مجتمعين . وقد عرف موسى بن أحمد بن الملياني القافية فقال : (القافية هي عبارة عن الساكنين اللذين في آخر البيت مع ما بينهما من الحروف المتحركة ، ومع المحرك الأب قبل الساكن الأول). (5) وقد سميت القافية باسمها لكونها (مأخوذة من قولك قفوت فلانا إذا تبعته). (6) فهي اشتراك الأبيات في حرف القافية ، ويقول الدكتور حسني عبد الجليل يوسف : (هي ذلك النسق من الأصوات والحركات والسكنات الذي يتكرر في نهاية الأبيات من القصيدة العمودية) (7)

1.2.3.4. ديوان الدموع السوداء ج 1. ص : - 142 - 73 - 05 - 66.

5. موسى بن محمد بن الملياني الأحمدى : المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي. ص : 353.

6. أبو يعلى التنوخي : القوافي . تحقيق عوني عبد الرؤوف .. مكتبة الخانجي . مصر. ط 2. س 1978. ص 59.

7. حسني عبد الجليل يوسف : التمثيل الصوتي للمعاني . ص : 37.

يقول الشيخ التليلي في رثاء والده :

جل المصاب فجلت الأوصاب
لما نعى الناعي المكرم والدي
كل أصاب عزاءه ببيانه
ماذا أقول وفي اعتقادي أنه
لو كان يفدى ميت لفديته
وتمزقت في جسمنا أعصاب
وتساقطت لعزائنا أصحاب
وأنا الذي المفقود منه صواب
لا يبلغ التحقيق منه خطاب
بالروح لكن القضا غلاب(1)

إن الشيخ التليلي لم يعتمد على الحرف الواحد في القافية ، وحتى يكون الأثر أكبر اعتمد على مقطعين

، فنلاحظ قافية الأبيات : صا- بو، حا- بو، وا- بو، طا- بو، لا- بو .

نلاحظ من خلال الأبيات تكرار حرف الروي الذي أشاع نغما موسيقيا تطرب له الأذن ، وهذه هي
ميزة القصيدة العمودية التي تلتزم القافية الموحدة . وبالعودة إلى الديوان ، نجد أن الشيخ التليلي ركز
على بعض الحروف دون غيرها ، حيث نظم في قافية (الميم) ثلاثا وعشرين مرة بين قصيدة ومقطوعة ،
و حرف (الباء) و(الراء) إحدى وعشرين مرة ، ثم (النون) سبع عشرة مرة و(اللام) أربع عشرة مرة .
وهو بذلك يتفق مع الشعراء العرب الذين ركزوا في قصائدهم على حروف (اللام ، الميم ، النون ،
الباء ، الراء) .

إن القافية تؤثر في النفس لأنها نابعة من روح الشاعر(وتجتمع كل العناصر في الشعر من عواطف ومشاعر
وأفكار وأخيلة فهي تعبر عن الصدق في الإحساس والأصالة في الفن)(2).

يقول الشيخ التليلي في رثاء أحد أصدقائه :

إن المصائب جمّة وأجلها
كم نال قلبي من فراق أحبتي
واليوم أقرأ في رسالة صادق
فتألم القلب الجريح لموته
فقد الحبيب وفرقة الخلان
سهم أصاب وطعنة بسنان
موت الصديق صديقنا الزياني
فبدت دموع القلب في الأجفان (3)

لقد اختار الشيخ التليلي حرف(النون) قافية له ، ليشعرنا بمدى ما أصابه من حزن وأسى ، حيث امتزجت
النون المكسورة بانكسار عاطفة الشيخ ، وتعمق جرحه الذي لم يندمل بعد . وهكذا يتأكد ارتباط القافية
بعاطفة الشاعر ، وقد مسحت هذه الميزة على الكثير من قصائد الشيخ ، حيث نظم سبعا وستين قصيدة
بكسر الروي .

1. ديوان الدموع السوداء ج 1 . ص :20.

2. محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث . ص : 197.

3. ديوان الدموع السوداء ج 2 . ص : 53.

ويشير رنيه ويملك إلى وظيفة أخرى للقافية ، فيقول (وأهم من ذلك كله أن للقافية معنى ، وهي بالتالي عنصر أساسي في قوام العمل الشعري)(1).

وينحى غنيمي هلال نفس المنحى عندما يرى أن القافية ركن أساسي في موسيقى الشعر (فكلماتها في الشعر الجيد ذات معان متصلة بموضوع القصيدة ، بحيث لا يشعر المرء أن البيت مجلوب من أجل القافية ، بل تكون هي مجلوبة من أجله ولا ينبغي أن يؤتى بها تنمة للبيت بل يكون معنى البيت مبنيًا عليها)(2).
ونعرض نماذج من الشعر ، اتفقت فيها القافية مع عاطفة الشيخ التليلي ، فهو عندما تذكر دراسته في جامع الزيتونة ، ورغبته الجارحة في نشر العلم بين الناس وإصلاح أحوالهم ، يختار قافية مناسبة مع غرض الحماسة وهي قافية (الجيم) ، من الحروف الشديدة ذات القلقة ، يقول الشيخ :

وبالعالمية في أقرانه درجا	شيخ من الجامع الزيتوني قد خرجا
يدعو إلى الله بالتوحيد مبتهجا	أتى إلى قومه بالعلم ينصحهم
أن تعبدوه وان لا تبتغوا عوجا	فقال يا قوم إن الله يأمركم
لو استقمتم عليها نلتم الأرجا	طريقة الله في القرآن واضحة
عن السبيل سبيل الله منتهجا	دعوا الطرائق والسبل التي ابتعدت
فمن تجنبها في فعله فلجأ(3)	و جانبوا ما استطعتم كل محدثة

والشيخ التليلي يستخدم قافية (الهاء) وهي قليلة الشيوع في الشعر العربي ، يقول في كتاب الله :

وأجدر بالتلاوة من سواه	كتاب الله أفضل ما قرأنا
بكونك في الأولى قطفوا جناه	فقم وأحفظ كتاب الله تحفظ
فطوبى للذين به تباهاوا	ففيه الدين والدنيا جميعا
كتاب الله يحفظ من صباه	وزينة مدرسي لودعي
تصدر في المجالس واصطفاه(4)	وحلية عالم فطن لبيب

وحسبي أن الشيخ التليلي كان اهتمامه البالغ بالإصلاح والتعليم مثل كثير من المثقفين في المجتمع الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي ، لذلك لم يكن اهتمامه كبيرا بالعلاقة القائمة بين القافية و العاطفة ، وظهر ذلك من خلال بعض قصائده ، يقول الشيخ في ساعة تضجر وتوجع :

وكان الذكاء وكان الصفاء لعقلي وفكري وكان الشباب

1. رنيه ويملك : نظرية الأدب : تعريب د/عادل سلامة . دار المريح المملكة العربية السعودية . ص : 216.

2. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث . ص 442.

3. ديوان الدموع السوداء ج 2 . ص : 37.

4. المصدر نفسه . ج 1 ، ص : 159.

أرى كل شيء بعين ارتياب

فها أنا ذا اليوم عند المشيب

أمر عليه كمر السحاب(1)

وعدت إذا ما قرأت كتابا

حيث يستخدم قافية (الباء) وهو حرف شديد مجهور، وكما هو معلوم فإنه أحد حروف القلقله، وذلك لما فيه من القوة والشدة، في حين أن عاطفته حزينة يائسة لضعف وتبدل الأحوال .

ويستخدم غرض الحماسة بعاطفة تفيض اندفاعا في حرف قافية رخو مهموس، وهو حرف (السين) .يقول الشيخ في احتفال بتأسيس مدرسة بسكرة :

وانهضوا نهضة الطبيب المؤسي

أيها القوم شمروا واستعدوا

أكلته الأمراض من كل جنس(2)

إنما شعبكم مريض مسجى

تنوع القوافي :

لم يلتزم الشيخ التليلي في الكثير من شعره وحدة القافية، كما نوعها في القصيدة الواحدة يقول الدكتور محمد ناصر في محاولات الشعراء التقليديين(إذا كان من خروج على عمود الشعر عند الشعراء الإصلاحيين فإنه ظل مقتصرًا على محاولات نادرة للخروج من إطار القصيدة ذات القوافي المطردة الموحدة إلى نظام الموشحات أو الحماسيات، وما أشبهه مما هو معروف من الشعر الأندلسي، ومما هو رائج عن شعر النهضة)(3).

وقد بلغت القصائد متغيرة الروي في ديوان الشيخ التليلي ستا وعشرين قصيدة، منها ثلاث عشرة في أدب الأطفال. من ذلك قوله في نعمة الزواج ونقمته من بحر(المجتث)، التي بناها على أساس مقطعي، وجاءت القوافي متقابلة بالتخالف، أي أنه قابل بين قافيتي الصدرين في البيتين الأول والثاني وبين قافيتي العجزين في البيتين المذكورين أيضا :

و غوره قد سبرته	هذا الزواج خبرته
فكان ما قد زبرته	ذرعته وشبرته
يراها من لم يجرب	فظاهر منه نعمة
يذوقها من تقرب	وباطن فيه نقمة
وكان في العرس بخت	إذا تزوجت صاح
وما لعرسك أخت(4)	فأنت لاشك صاح

1. ديوان الدموع السوداء ج 2. ص: 80.

2. المصدر نفسه . ج 1، ص: 148.

3. محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث . ص: 199.

4. ديوان الدموع السوداء ج 2 ص : 13.

وهكذا إلى آخر القصيدة التي اشتملت على أربعة وعشرين مقطعا ، وأتبع هذا المنهج في العديـد من القصائد حيث يراوح بين القوافي . وينوع القافية بطريقة أخرى ، فيقول في قصيدة ناصحا :

ثوب دين وقضوا	ساء قوم قد نضوا
مُثلة للغابرين	بغرور ومضوا
كلمة فيها حكم	قال أصحاب الكلم
حكمت في كل دين	وهي في الحق الحكم
من عليك قد تعلى	ما هلاك الناس إلا
أو عليم لا يدين (1)	أو صوفي قد تخلى

فقد التزم الشيخ التليلي في الأشطر الثلاثة الأولى من القصيدة حرف (الواو) والشطر الرابع كان حرف (النون) ، والثلاث أشطر الثانية التزم حرف (الميم) ، والشطر الرابع حرف (النون) . وتتفق القافية مع معنى البيت فيما يسمى (التوشيح) (وهو أن يكون مبتدأ الكلام ينبئ عن مقطعه ، وأوله يخبر بآخره ، وصدوره يشهد بعجزه) .(2)

من مثل قول الشاعر :

فرفعه أليق منه دفعه	إن اللئيم مهما كان نفعه
في هذه البلاد أو صديق	أما أنا فليس لي رفيق
مع كتب ألفها الرجال (3)	فحالتني في مسكني اعتزال
وينوع القافية والبحر في القصيدة الواحدة ، وذلك في نظمه للقصة الخيالية :	طرق الشيخ خاطبا باب جمع
من نساء أقمن حفلة عرس	قائلا من تريد منكن زوجا
فتضحكن من غباوة هرس	الصغيرة الساخرة :

هذا العجوز أتى إلينا يخطب	قالت وقد سمعت بأني أشيب
	والأيم تقول :

ولن يعود فالقعود أولى (4)	إن الذي أحببته تولى
---------------------------	---------------------

1. ديوان الدموع السوداء ج 1 . ص: 137.

2. نقلا عن حسني عبد الجليل يوسف : موسيقى الشعر العربي دراسة فنية وعروضية . الهيئة المصرية العامة للكتاب.س 1989.ج 1 ص: 177.

3. ديوان الدموع السوداء : ج 2 ص: 21- 14.

مما يلاحظ على القصيدة أن الشيخ التليلي استخدم بحر (الخفيف) و(الكامل) و(الرجز) ، والبحران الأخيران صافيان ، أما بحر (الخفيف) فتكرر تفعيله (فاعلاتن) مرتين .ونفس الطريقة من تنويع البحر والقافية نلاحظه في قصيدة (الترحيب) وهي موجهة للأطفال .

الموسيقى الداخلية :

الشاعر يحاول أن يتوافق مع نفسه ومع المتلقي ، ومع العالم الخارجي عن طريق الموسيقى التي تضيء له الطريق ، ليكشف أسرار نفسه ، ولا يقتصر العمل الموسيقي في الشعر على الموسيقى الخارجية فقط ، بل هناك جانب آخر هام لموسيقى الشعر ألا وهو الموسيقى الداخلية . يقول الدكتور شوقي ضيف (وراء هذه الموسيقى الظاهرة موسيقى خفية تنبع من اختيار الشاعر لكلماته ، وما بينها من تلاؤم في الحروف و الحركات . وكان للشاعر أذنا داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة ، وكل حرف ، وكل حركة بوضوح تام وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء)(1) ويضيف الناقد شوقي ضيف إلى أن خلف الموسيقى الخارجية ، موسيقى داخلية خفية ، تكون في حسن اختيار الألفاظ وتلاؤم حروفها . نقول من ذلك أن الكلمة هي أساس من أسس الموسيقى من ناحية ، وتنوع صورها وأشكالها من ناحية أخرى ، فهي (الإيقاع الهامس الذي يصدر عن كلمة واحدة بما تحمله في تأليفها من صدى ووقع حسن) (2) .

هناك عدة مصادر تنبع منها الموسيقى الداخلية ، وبتألفها مع الموسيقى الخارجية ، تتشكل الموسيقى التي هي جوهر الشعر ، ونأخذ منها :

أولا : التشخيص والتجسيم :

التجسيم تصوير المعنوي بصورة محسوسة ، والتشخيص منح الصفة الإنسانية لما ليس كذلك . وكل من التشخيص والتجسيم يعطي جرسا خفيا داخليا تزداد به الموسيقى ثراء ، وتنجذب إليه النفس الإنسانية . ومثل الصورة المشخصة المجسمة قول الشيخ التليلي في ليلة الخميس :

يا ليلة من بنات دهر	غراء في حلية العروس
وافت من غير ما ميعاد	والخوف في طرسها السدوسي
والنجم من خلفها رقيب	والبدر قد هم بالأنيـس
والليل قد مل من سراه	والفجر في حمرة الغلوس

1.شوقي ضيف : في النقد الأدبي دار المعارف . ص : 97.

2.عبد الرحمان الوجي : الإيقاع في الشعر العربي . ص : 74.

وافت وفي لونها اصفرار

من خشية الطالع الحريس

يا ويحها لو درى أبوها

بأنها تحفة الجليس (1)

ثانيا : ملائمة اللفظ للمعنى :

من منابع الموسيقى الداخلية ، أن يتلاءم اللفظ ومعناه ، وينسجم الغرض مع شكله ، فيبدو الإيقاع واضحا ؛ لأن تلاؤم الألفاظ والمعاني هو روح القصيدة ، يقول الشيخ التليبي :

فهدم أركاني وأضعف من صبري	خليلي ما غير الفراق أصابني
أقلب جنبي في أحر من الجمر	أبيت وليل النائمين براحة
بأن لها حبلا يطول إلى الحشر	وليلة سمري قد ظننت لطولها
ولكن طير النوم حلق كالنسر	وما ذاك من طول الليالي حقيقة
فبلغ سلامي إن وصلت إلى فجري	فيا فجر خالي الهم مولاك نائم
وحيدا كأنني الميت في ظلمة القبر(2)	ويا ساعة بعد الوداع وقفها

يظهر الشيخ من خلال الأبيات شديد الشوق لتونس متألم لفراقها ، وإذا ما لاحظنا الأصوات الدالة على الألم تظهر في مد (الفراق) الذي تدل على حزن الشيخ وعذابه ، وكذلك (أصابني) (أركاني) فهي كلمات متوالية تدل على استمرار الألم فترة زمنية طويلة دون توقف ، وكذلك في البيت الثالث (طولها) و(يطول) التي توحى باستمرار الألم . أما كلمة (الحشر) فتوحى بطول مدة معاناة الشاعر التي تأخذ عمره بأكمله ، وهذا يدل على عدم نسيانها ، وأن تذكرها مبعث للألم . ونلاحظ البيت الخامس الذي يدل على تجدد الشوق ، وإرسال السلام عبر الفجر فيكون هناك أمل ، ليعود من جديد فيبث آلامه من خلال النداء (يا ساعة) (الوداع) (وحيدا) التي توحى بالتمزق ، ليكتمل الإحساس بالخوف والشوق والحزن عند كلمة (ظلمة القبر) ، وتظهر الكلمات الدالة على أثر الفراق والبعد (هدم - أضعف - أقلب - الجمر - النسر - الميت - ظلمة القبر).

وعاطفة الشاعر حزينة لذا رأينا الألفاظ ملائمة لها ، فالكلمات أنغام وشعور ، وعلى الشاعر (أن يكون على وعي تام بدلالة الألفاظ ، فالدلالة تقوده للموسيقى وإيقاعاتها ، والشاعر الجيد أيضا يتمتع بحس رهيف لموسيقى الكلمات ، ولأصوات اللغة ليتمكن من الملائمة بين الصوت اللغوي والمعنى المراد). (3)

2.1. ديوان الدموع السوداء: ج 1 ص: 150 - 78.

3. إبراهيم أمين الزرزموني: الصورة الفنية في شعر علي الجارم. ص: 300.

يقول الدكتور محمد ناصر (والشاعر المبدع حقا هو الذي يحس بفطرته الفنية عند جريان الموسيقى في أبياته حيث يختار اللفظة والكلمة والوزن والروي المنسجم مع موضوعه) (1).

ثالثا: السيوالة والتدفق في تناسب الإيقاع :

ما يلاحظ على قصائد الشيخ التليلي وجود نوع من التدفق والسيولة في الموسيقى ، بحيث اختار اللفظ واختار تتابع النغمات و مناسبتها للمعنى ، يقول معاتبا الزمان :

ألا يا دهر مالك لا تـداري	ومالك لا تساعد أو تجاري
جرحت كرامتي وأهنت عرضي	وأخلاقي وملت إلى عثاري
أسأت إلي في سر وجـهر	وأغريت اللئام على احتقاري
أقمت علي في سوق المخازي	بأبناء السفاهة سوق عاري
شنت على لم تفتـر حروبا	وكأنك آخذ مني بثـار
زعمت بأني يا دهر جـان	فعاقتب المسيء على اجترار(2)

ونلاحظ هنا تراحم معاني الحزن على الشيخ التليلي في تتابع دون عائق أو تكلف ، وظهرت في (أسأت ، جرحت ، عاقبت ...) .وقد استخدم بحر (الوافر) وتقطيع البيت الأول :

ألا يا دهر مالك لا تـداري	ومالك لا تساعد أو تجاري
0/0//0///0//0///0//	0/0//0///0//0/0/0//
مفاعلتن مفاعلتن فعول	مفاعلتن مفاعلتن فعول

والشيخ التليلي استفاد من الزحافات والعلل ، ليثري الجانب الموسيقي ، فالعروض والضرب سليم وحشو الصدر أصابه (عصب) (3) [تسكين الخامس المتحرك] ، أما حشو العجز فهو سليم . يقول محمد ناصر : (إن إيقاع الحروف والتراكيب يشيع جوا موسيقيا مطربا يملأ النفس غبطة وفرحا وذلك ما يتماشي مع الموضوع الذي كتبت من أجله المقطوعة) (4).

رابعا: التكرار :

إن التكرار هو عنصر موسيقي ووسيلة من وسائل الموسيقى ، يقصد به التأثير والتعميق ، (وله

1. محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث .ص: 192/193.

2. ديوان الدموع السوداء : ج 1 .ص: 66.

3. محمود بن حسن بن عثمان : المرشد الوافي في العروض والقوافي.ص: 28.

4. محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث .ص: 195.

مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها ، فأكثر ما يقع في الألفاظ دون المعاني ، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل ، فإذا تكرر في اللفظ والمعنى جميعا فذلك الخذلان بعينه ، ولا يجب للشاعر أن يكرر اسما إلا من جهة التشوق والاستغراب إذا كان في تغزل أو نسيب (1).

والتكرار اللفظي (2) هو ما يهمننا لصلته بالموسيقى الداخلية ، ونبدأ منه بتكرار الحروف ، فقد تشترك الألفاظ في حرف واحد سواء أكان في أول الكلمة أم في وسطها أم في نهايتها ، ولأصوات الحروف المكررة منبعان : أحدهما من روي القافية ، حيث يفرض هذا الحرف سيطرته على تشكيل البيت ، أما المنبع الآخر ، فينبع من حشو البيت أو من قراره ولا يشكل حرف الروي.

وفي شعر الشيخ التليلي صور عديدة لتكرار بعض الأصوات سواء أكانت نابعة من روي القافية أو من باقي البيت .يقول على لسان بعض الشباب :

وكف البؤس يضعفنا رنينا	بذلنا المال لكن في الملاهي
ولكن ما تذوقت الحنينا	وأشبعنا البطون بكل لون
يحرم فيك خبزا أو معينا (3)	أتأتينا وتزعم أن دينا

وقد بنى الشيخ البيت على أصوات حرف الروي الذي وزعه على الأبيات توزيعا إيقاعيا منسجما ، حيث تكرر ثلاث عشرة مرة .

وقوله في تكرر حرف (التاء) سبع مرات في البيت الواحد :

وما قضيت من الحاجات أو نلت (4)	قضيت أمني وبيت الموت قد زرت
--------------------------------	-----------------------------

وعندما يشتكي من جفوة الزمان على روي (الراء) ، أشاعه بنسب متفاوتة خلال أبياته حيث تكرر إحدى عشرة مرة . يقول :

ومالك لا تساعد أو تجاري	ألا يا دهر مالك لا تداري
وأخلاقي وملت إلى عثاري	جرحت كرامتي وأهنت عرضي
وأغريت اللئام على احتقاري (5)	أسأت إلي في سر وجهر

أما الموسيقى الداخلية للأصوات النابعة من قاع البيت فمن أمثلتها شيوع حرف (التاء) الذي تكرر ست عشرة مرة . حيث يقول :

تمشي أمامي والفتى مغبون	وجلت في الطرقات فتية آدم
-------------------------	--------------------------

1. ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . ص : 73/73.

2. المصدر نفسه . ص : 74 وما بعده.

3. 4. 5. ديوان الدموع السوداء ج 1. ص : 124-28-66.

فتحت عيني في المفاتن كلها
فوضعت كفي فوق حاجب مقلتي
وسألت قلبي هل أصبت فقال لي
فأصاب سهم قاتل مسنونون
وغضضت طرفي كي تكف شؤون
لا تسأل المقتول كيف يكون (1)

وقد غلب حرفا (اللام) (والياء) والأخير هو (حرف مد)، فجاءت حروفها متجانسة، مزجها مع حرف
الروي (الباء) فتشكل نغم موسيقي. حيث يقول :

وطني كحيل كحيل بداء الذهاب
وعقلي دخيل وفكري كليل
إذا كان علمي وسيلة ذمي
وفهمي قليل ومائي سراب
بمجلس قومي فما الجهل عاب (2)

أما تكرار الكلمات – وقد تناولناه عند الحديث عن البناء اللغوي – فمن شأنه أن يولد انسجاما صوتيا
طالما وفق الشاعر في اختيارها ، فظهر حزنه الشديد على تونس من خلال تكرار كلمة (وداعا) في رسالة
بعثها إلى أحد أصدقائه يقول :

وداعا سادتي مني وداعا
وداعا جامع الزيتون مني
وداعا تونس الخضرا وداعا
إلى يوم القيامة في القريب
وأشياخي وكل فتى حبيب
أيا دار الحضارة والعريب (3)

ويعاتب صديقه مكررا لفظة (عجب) ومشتقاتها :

إلى متى التمامادي
أليس ذا عجيب
وكلنا غضباب
بل عجب عجاب (4)
ولما رأى الشيخ التليلي الأذى والظلم في الناس قد كثر، أخذ يطلب الابتعاد عنهم :
أما البعيد فبعده لك حاجب
عن شره إما بعدت كثيرا (5)

ومن ألوان التكرار الموسيقي ، رد العجز عن الصدر ؛ أي رد أعجاز البيوت على صدورها . وذلك أن
ترد كلمة من الشطر الأول في الشطر الثاني (6). ويعرف ذلك بالتصدير ، وهو الذي يستطيع أن
يضيف على النص جمالا موسيقيا ، فهو أشبه بوثاق رقيق أو نغمة موحدة تربط بين شطري البيت)

1. ديوان الدموع السوداء ج 1 ص : 132.

2. المصدر نفسه ج 2 ص : 80.

3. المصدر نفسه ج 1 ص : 19.

4. المصدر نفسه ج 2 ص 31.

5. المصدر نفسه ج 1 ص 82.

6. ابن أبي الأصبغ المصري : تحرير التعبير. تحقيق حفني محمد شرف ج 1 ص : 116

و أفضل هذه الأنواع إذا كان اللفظان متجانسان ، وأحدهما في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول (1).

وقد استعمله الشيخ التليلي في شعره ، فبنى البيت برمته على التصدير :

شبابهم الموقر مثل شيخ
ويقول في مطلع قصيدة بعثها إلى صديقه :

خطابكم كتاب
وردنا خطاب (3)

وقوله :

إن سعى في اكتساب عز
سعى به الدهر للرموس (4)

فقد حرص الشيخ أن توافق آخر كلمة في البيت أول كلمة فيه ، كما حرص على أن توافق آخر كلمة الشطر في الأول أول كلمة في الشطر الثاني ، وقد وافق بين آخر كلمة في البيت وآخر كلمة في الشطر الأول ، حيث يقول :

هم لزيتونة العلوم ثمارا
وهم في الثمار خير ثمار (5)

خامسا : اللفظ بين الجزالة والعدوية :

من خلال تتبعنا لقصائد الديوان ، لاحظنا أن أسلوب الشيخ يتنوع بين الرقة والجزالة حسب الموضوعات التي يتناولها ، وكان للظروف السياسية والاجتماعية القاسية الدور الكبير في اكتسابه القوة والصلابة ، وانعكس ذلك على ألفاظه وعباراته ، واختياره للموضوعات التي يعالجها ، حيث يقول بمناسبة مولد الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

الدين منّ عليكم بالأخوة إذ
وأنتم اليوم ترون الغير مرشدة
وجدتموه ثقيلًا في كواهلكم
لولا عصابة خير قام قائمها
كانت شهابا يريك الحق منبلجا
وملة المصطفى الغراء شرعتها
كنتم عدوا وقبل الدين في رهب
كأنكم في غنى عن ديننا الرحب
فكان من حظه أن ديس بالركب
لم يبق في الدين من لحم ولا عصب
ويطعن الجهل في العرنيين واللبب
تدعو بها الناس للعلياء والقرب (6)

1. عبد القادر حسين : فن البديع . دار الشروق . ط1س1983.ص : 126.

3.2.ديوان الدموع السوداء ج 2.ص 61 - 31.

6.5.4.المصدر نفسه . ج 1.ص 149 - 90 - 15.

نلاحظ ألفاظ الأبيات جاءت قوية جزلة تحدث جلبة وقعقة عند الإنشاد ، حيث يرى الدكتور محمد ناصر أن الموضوع في الشعر التقليدي المحافظ إذا كان يستوجب الصرامة والجد ويتطلب لهجة حاسمة ، فإن جرس الألفاظ والكلمات يستطيع أن يشيع هذه المعاني ، فهي تفرع السمع وتملأ النفس بمعاني القوة والجزالة (1). ويتنوع الشعر حسب الظروف التي دعت إلى نظمه حيث يقول الدكتور شوقي ضيف (وبعض الشعر يحسن أن ينشد في جلبة و قعقة كشعر الحماسة ، وبعضه يحسن أن ينشد في هدوء وبدون جلبة كشعر الرثاء) (2) . أما اللفظة العذبة فقد ساقها الشيخ التليلي في أغراض معينة مثل الرثاء والاعتذار والشوق . حيث يقول الشيخ من رسالة بعثها لصديقه :

أبوء بحاجتي عند الطلاب	وإخوان الصفاء ومن إليهم
وحبات الجمال من السيخاب	يتامى العقد في الأخلاق حسنا
لذكر الله مجتمع الثواب	ومجمعهم إذا اجتمعوا بناد
وءايات تفسر في كتاب	مجالسهم مذاكرة وذكر
من الروضات طيبا كالملااب	رياض جنانهم أركى وأذكى
بأجنحة تصون وفي إياب (3)	تحفهم الملائك في ذهاب

ويقول في رثاء أحمد بن علي :

وتحطمت من أجلها أشباح	حكم القضاء وفاضت الأرواح
فاخضلت الجنبات والألواح	وتهاطلت منا الدموع على اللحى
بوفاة أحمد لیتهم ما باحوا	من هول ما مس القلوب من الأسى
يبكين أحمد ما لهن رواح (4)	فالمسعدات من النساء سوافر

سادسا: المحسنات البديعية

لقد اهتم الشيخ التليلي بالمحسنات البديعية وظهرت جلبة في قصائده بأنواعها المختلفة ، خاصة الجناس الذي يتميز بتكرار حروف بعينها ، مما يولد موسيقى داخل القصيدة ، وقد عرفه النقاد بأن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتهما في تأليف حروفها ، ولكنهما مختلفان في المعنى (5). وقد عد الجناس أقوى وسائل الزخرفة لما يجتمع فيه من قوى التأثير على الوزن عن طريق الجرس.

1. محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث ص: 195.

2. شوقي ضيف : في النقد الأدبي ص: 97.

3. ديوان الدموع السوداء ج2. ص: 61.

4. المصدر نفسه. ج 1. ص: 32.

5. أبو هلال العسكري : الصناعتين . تحقيق د/ مفيد قميحة . دار الكتب العلمية . بيروت . ط1 س 1981. ص: 353.

يقول الشيخ التليلي .

وكانوا كالمعالم للمعالي
وكانوا في العوالم كال العوالي (1)
ويعد الجناس بصفة خاصة ميزة الشيخ التليلي في ديوانه . يقول :

وتخوفوا فتخلفوا
عن ركب من وطئ السحب (2).
ويقول :

فهمت من دهري كل هذا
فهمت في فدفد دريس (3).
وقوله أيضا :

فحدث عن حصور أو هصور
تمنع أو تمتنع ما استطاعا
وسرح من لسانك أو فسرح
صريح القول أطييه استماعا
ولا تكن الحديث ولا تكن
فإن الهم فرقني شعاعا (4)
ومن جناس العكس قوله :

وإن سال واديه من سعده
فسعد ابن واد به أميــــز (5)

ويبرز التصريح دعامة موسيقية أساسية في شعر الشيخ التليلي بشكل واضح ، فكثيرة قصائده المصرعة عند الافتتاح ، وقد عرف القدماء التصريح بأنه (أن يكون للبيت فما فوق قافيتان مع وزنين مختلفين من أوزان العروض) .(6)فهو جانب جمالي في الشعر ، ويحسن أن يكون التصريح عفويا غير متكلف . كما عرفه ابن رشيق (بأنه ما كانت عروض البيت تابعة لضربه ، وتنقص بنقصه وتزيد بزيادته) (7)وله قيمة موسيقية كبيرة بحيث أنها تحدث نغما موسيقيا تطرب لها الأذن. ويرى ابن الأثير في التصريح (وفائدته في الشعر أنه قبل كمال البيت الأول في القصيدة تعرف قافيتها) .(8)
وقد صرع الشيخ جل قصائده ومقطوعاته ، وهذا ما أشاع في قصائده منذ بدايتها ألحانا مميزة في مثل قوله
عن الشعر والشعور :

بالشعر أشرح صدري المغمورا
أم بالشعور أوضح المستورا (9)

1.2.3.4.5..ديوان الدموع السوداء ج1. ص 101 - 18 - 149 - 142 - 96.

6. أحمد الهاشمي : ميزان الذهب . تحقيق حسني عبد الجليل يوسف . مكتبة الآداب القاهرة . ط1س1997.ص: 137.

7. ابن رشيق القيرواني: العمدة ج1.ص: 173.

8. ضياء الدين الموصلي - ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . دون معلومات. ص : 151

9. ديوان الدموع السوداء ج1. ص: 90.

أما المجموعة (غير المصرفة في أول الأبيات) في شعر الشيخ كانت في المقطوعات والقصائد الموجهة لتعليم الأطفال في أغلبها ، ونلاحظ أنه لم يحرص على تصريعها نظرا لقصرها ، وتركيزه على الفكرة أكثر من الموسيقى .

ويقول أيضا :

لست أنس الأحباب ما دمت حيا يا صديقي ولو أساؤا إليا (1)
وقد يعمد أحيانا إلى تصريع القصيدة بأكملها ، كما فعل في قصيدة (نفثة مصدر بين السطور) :

تالله لولا الدين يا فتاتي قد لزني لهده الزيجات
لما خطبت في النسا حياي موبوءة الطباع والصفات
مثل الذي رأيت في الغداة من طبعك الموسوم بالعاهات
دخلت بيتي كالعدو العاتي لتهدمي بنيانه المواتي
وتقذف السموم في القنائة وتعبثي في البيت بالأداة (2)

ويظهر حرص الشيخ التليلي على إغناء قصائده بمزيد من التنغيم وبث الموسيقى في عمق أبياتها بالتصريع داخل الأشطر ذاتها ، وهو ما يسمى بحسن التقسيم.

يقول الشيخ :

هدام أبنية الضلال وغيره بناء أفنية النكال وما درى (3)
نلاحظ أن الشيخ قسم حشو الشطرين (هدام أبنية الضلال) (بناء أفنية النكال) بطريقة متناغمة تعطي نغما موسيقيا .

وقوله أيضا :

إيمانه وجنانه ولساناه لم تبق من نبت المظالم أخضرا
فتخاله في علمه أو حلمه أو عزمه أو حزمه الاسكندرا (4)

فقد ناغم الشطر الأول من البيت الأول وإن لم يصرعه ، وكذلك فعل بالشطر الأول من البيت الثاني وامتد إلى العجز (علمه - حلمه - عزمه - حزمه) حيث أحدث بذلك نغما موسيقيا .

ويقول واصفا صورة له :

فالوجه جهم وعين الوجه غائرة والخذ عظم وذقني شيبة ساري (5)

2.1 ديوان الدموع السوداء ج 1. ص : 162 - 29.

4.3 المصدر نفسه ج 1. ص 87.

5. المصدر نفسه . ج 1. ص 89.

من كل ما سبق نقول أن جزالة اللفظة ووزانتها مع فصاحة العبارة ، كل ذلك ائتلف مع حس الشيخ الموسيقي الذي هداه إلى البحور المناسبة لمضمون شعره ، فكانت هذه البحور التي اختارها لتكون مسرحاً لعرض أغراضه المختلفة ، هذا إلى جانب ثقافته التي استمدها من ينابيع القرآن والشعر العربي ، مع احتفاظه بشخصيته الفنية فيما نظم مما يفصح عن أصالته الشعرية ومقدرته الأدبية .

الختامة

الخاتمة

رحلة العطاء عند الشيخ الطاهر التليلي طويلة ، لكنها توقفت مع وفاته سنة 2003 ، فنهلنا من ينابيعها الشهيء القليل ، وعشنا مع الشيخ في سكناته وحركاته ، في وحدته وعزله ، في شكه ويقينه ، ثقافته ومعاناته ، و تعرفنا على أعماله وانشغالاته ، و اشتممنا رائحة احتراق آماله وفرحته بالنهوض . لقد أخذ الشيخ من التراث المجيد ، ووظفه في توعية الناس من أجل التصدي للاستعمار الدخيل ، واستعان بالدين الحنيف ليجلي به ظلمة المستعمر ، كما استفاد من الموروث الديني والتاريخي للأمم السابقة .

ووجدت أن إيمانه ينبع من طبيعة متأصلة ، وثقة تامة في الله عز وجل ، وأن شكه ناتج عن ظروف قاهرة ، وعداء مستمر من أهل بلده ، فكان شعره يجمع بين الشك واليقين .

كان الشيخ الطاهر التليلي شاعراً من الشعراء الذين أثروا الجزائر بنتاجهم الفني المتنوع والضخم ، ولكنه صدف عن خدمة شعره والاهتمام بنشره وذيوعه ، فأهمل الدارسون ذكره في ثنايا دراساتهم الأدبية ، فضلاً عن تخصيصه بدراسة فنية مستقلة تضع شعره في ميدان التقويم ، وتعرضه في ميزان العدل والإنصاف .

وهذه الدراسة محاولة جادة لتحقيق ذلك ، وقد انتهت إلى بعض النقاط التي لاحظتها من خلال هذا البحث ، وهذا عرض لأهمها :

1- ظهر من خلال دراستي العلاقة التي رأيتها وثيقة بين الأحداث التي عاشها الشيخ التليلي وبين موضوعات شعره التي غلبت عليها رنة الحزن والحرمات ، وسيطر عليها الألم والتشكي ، في الوصف و الشكوى والعتاب واللوم .

2- أن الشيخ استفاد من تجارب الشعراء السابقين من أمثال البحري والمنتبي ، والشافعي وهذا ما ترجمته قصائده .

3- لاحظت من خلال الدراسة تقدم النصح والإرشاد ، سواء للكبار أو لطلبة المدارس ، على بقية الموضوعات التي تناولها الشيخ ولم تفرد لها قصائد إلا نادرا ، فمعظمها يستخلص من ثنايا القصائد .

4- مما يلاحظ على اللغة الشعرية للشيخ التليلي ، تنوعها بين اللغة البسيطة التي تكاد تكون عامية ، وبين اللغة القوية الجزلة ، التي لها صدى وأثر في النفس ، كما ظهر تمكنه من خلال قدرته على تطويع اللغة بين مخاطبة الصغار و الكبار.

5- تنوع الصورة الشعرية عند الشيخ التليلي وتعددتها بين صور بلاغية قديمة ، وأخرى حديثة معتمدة على التجسيم والخيال .

6- التزام الشيخ مجافاة أساليب التجديد التي تمس وحدة التفعيلة ، فقصاصه كلها في الاتجاه التقليدي ، الذي يعتمد على قوة اللفظة و جزالتها ، والاهتمام بالبيان والبيدع.

7- قدمت من خلال شعر الشيخ التليلي مقارنة تحليلية لقضية الصلة بين الوزن والموضوع ، وقامت بالتفريق بين الحالات المتعددة للوزن الواحد ، وتوضيح دور القافية في تشكيل النغم الشعري ، وتغيير اتجاهاته وإيحاءاته ، كما بينت درجات العاطفة وبواعثها وما يناسب ذلك من المعاني من حيث علاقتها بالموسيقى الخارجية.

8- مما يلاحظ في ديوان الشيخ التليلي استخدامه الكبير لبحر(الرجز) ، وهو بحر قصير أكثر من البحور الأخرى .

ولما كان البحث محدوداً بشعر الشيخ التليلي فقد بقيت جوانب مهمة من أدب الشيخ لم تتعرض لها يد الدراسة - بعد - ، فثمة أدب يشكل مادة ثرية أراها خليفة بالبحث والدراسة.

وبعد هذا فإني لا أزعم أنني وفيت الموضوع من كافة جوانبه ، وحسبي أنني وجدت شاعراً أغفلته العيون فأعطيته جهدي ومتابعتي ، وأني حاولت أن أقدم كل ما أستطيعه في دراسة فنه وأدبه.

وختاماً أكرر خالص شكري وتقديري إلى أساتذتي الكرام الذين مدوا لي يد العون ليخرج هذا العمل بهذا الشكل ، كما أكرر شكري إلى كل من ساهم بمساعدة في إنجازهم.

كما أدعو الله أن يتقبل منا صالح الأعمال ، وأصلي وأسلم على خير الأنام ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

— القرآن الكريم.

أولا : المصادر :

1. ابن رشيق القيرواني : العمدة في صناعة الشعر. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . ط5 س1981.ج.2.
2. ابن منظور: لسان العرب .
3. أبو القاسم سعد الله : الزمن الأخضر. المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر ط س1985.
4. أبو بكر مراد: أوراق الهزيمة. دار الشهاب باتنة.
5. أبو هلال العسكري : الصناعتين . تحقيق د/ مفيد قميحة . دار الكتب العلمية . بيروت . ط1 س1981.
6. إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق أحمد عبد الغفور عطار . دار العلم للملايين ط 4 س1990. ج.5.
7. الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب العين . تحقيق مهدي المخزومي - إبراهيم السامرائي . ج.7.
8. ديوان أبي الأسود الدؤلي. صنعة أبي سعيد الحسن العسكري . تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين. دار مكتبة الهلال . ط2 س 1998.
9. ديوان الإمام الشافعي . اعتنى به عبد الرحمن المصطفاوي . دار المعرفة بيروت ط3.س2005.
10. ديوان البحتري. مطبعة الجوائب قسطنطينية 1300. ط1.ج.1.
11. ديوان الفرزدق. دار بيروت س1980. ج.2.
12. ديوان المتنبي . دار بيروت . س 1983.
13. ديوان إيليا أبي ماضي . تقديم : جبران خليل جبران . دار العودة . ط1 س1986.
14. ديوان حافظ إبراهيم . الهيئة المصرية للكتاب . ط3. س 1987.
15. ديوان عنتره . دار بيروت طبعة س1978.
16. الزمخشري : أساس البلاغة . تحقيق محمد باسل عيون السود . دار الكتب العلمية بيروت . ط1.س1998. ج.1.
17. عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة في علم البيان . صححها الشيخ محمد عبده. دار الكتب العلمية - بيروت ط1. س1988.

18. محمد الطاهر التليلي : الدرر الملكية في الدراري الفلكية.مخطوط.
19. محمد الطاهر التليلي : ديوان الدموع السوداء.
20. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي .مخطوط.
21. محمد العدناني : معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة . مكتبة لبنان . ط1. س1984

ثانيا : المراجع :

1. إبراهيم العوامر : الصروف في تاريخ الصحراء وسوف.تعليق الجيلالي عوامر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .س1977.
2. إبراهيم أمين الزرزموني : الصورة الفنية في شعر علي الجارم.دار قباء.2000.
3. ابن أبي الأصبع المصري.: تحرير التحبير. تحقيق حفني محمد شرف .ج1.
4. ابن خلدون : المقدمة .دار الفكر . س 2004.
5. ابن طباطبا : عيار الشعر .تحقيق عباس عبد الساتر . دار الكتب العلمية بيروت . ط1س1982.
6. أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي .دار الغرب الإسلامي .بيروت . ط1 س1998. ج2.
7. أبو القاسم سعد الله : أفكار جامعة. المؤسسة الوطنية للكتاب
8. أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية .دار الآداب . بيروت . ط س1967.
9. أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث . ط2س1977.
10. أبو القاسم سعد الله : مجادلة الآخر . دار الغرب الإسلامي . ط1 س2006.
11. أبو يعلي التنوخي : القوافي .تحقيق عوني عبد الرؤوف ..مكتبة الخانجي .مصر. ط2 .س 1978
12. أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي. مكتبة النهضة المصرية . ط10س1994.
13. أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة . ضبط يوسف الصميلي . المكتبة العصرية ..بيروت.
14. أحمد الهاشمي : ميزان الذهب . تحقيق حسني عبد الجليل يوسف . مكتبة الآداب. القاهرة . ط1س1997.
15. الإمام المقر بن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري : مختصر تفسير الطبري . تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني و د/صالح أحمد رضا . مكتبة رحاب س1991. مجلد 2 .
16. أنس يعقوب إبراهيم : أعلام من أرض النبوة. ط1. س1514هـ. ج 2
17. أنور الجندي : الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا . مطابع الدار القومية . القاهرة د ط س1975.

18. جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب . المركز الثقافي العربي بيروت . ط3س 1992.
19. حسن فتح الباب : شعر الشباب في الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر .س 1987.
20. حسني عبد الجليل يوسف : التمثيل الصوتي للمعاني . دار الثقافة للنشر . القاهرة . ط1س 1998.
21. حسني عبد الجليل يوسف : موسيقى الشعر العربي دراسة فنية وعروضية . الهيئة المصرية العامة للكتاب د ط .س : 1989 ج.1.
22. حنا الفاخوري : الفخر والحماسة . دار المعارف . ط5س 1992.
23. الخطيب التبريزي . الوافي في العروض والقوافي . تحقيق فخر الدين قباوة . دار الفكر دمشق ط4 س 1986.
24. رابع بوحوش : اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري . دار العلوم د ط س 2006.
25. سعد بن البشير - أحمد بن الطاهر منصوري : أعلام من سوف في الفقه والثقافة والأدب . جمعية الجماعة السوفية .
26. شوقي ضيف : الرثاء . دار المعارف . ط4س 1987.
27. شوقي ضيف : في النقد الأدبي . دار المعارف القاهرة . ط6.
28. شيخ أمين بكري : البلاغة العربية في ثوبها الجديد - علم البيان - دار العلم للملايين . بيروت . ط 7 . س 2001.
29. ضياء الدين الموصللي - ابن الأثير- : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . دون معلومات
30. عادل محلو - أحمد زغب : دراسات في أدب الأطفال . مطبعة مزوار
31. عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة . دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة د ط .س 1995.
32. عبد الحميد هيمة : الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري . مطبعة دار هومة . ط1س 2003.
33. عبد الرحمن البرقوقي : شرح ديوان المتنبي . دار الكتاب العربي د ط .س 1986 ج 4.
34. عبد الرحمن الوجي : الإيقاع في الشعر العربي . دار الحصاد للنشر والتوزيع . ط1س 1989.
35. عبد الرزاق عبد الرحمان السعدي : تنبيه الوسنان إلى علم البيان . دار الأنبار للطباعة س 1997.
36. عبد القادر حسين : فن البديع . دار الشروق . ط1س 1983.
37. عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز . صححه الشيخ الإمام محمد عبده . دار الكتب العلمية بيروت ط1س 1988.

38. عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر ط1س1981.
39. عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي . دار الفكر العربي القاهرة س 2000.
40. علي الجارم ومصطفى أمين : البلاغة الواضحة البيان والمعاني والبديع . دار المعارف بمصر.
41. قاسم برسيم : منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري . ط 1 س 2000.
42. محمد الطاهر التليلي : رسالة المقتطفات النظمية من مؤلفاتي المعلومة . مخطوطة س 2001.
43. محمد الطاهر التليلي : زهرات لغوية مقتطفة من كتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني . مخطوط.
44. محمد الطاهر التليلي : مجموع مسائل تاريخية متفرقة تختص بسوف وأهلها في القديم والحديث وما يتعلق بصحراء سوف من قريب أو بعيد . مخطوط
45. محمد الطاهر التليلي : منظومات تربوية للمدارس الابتدائية ، دون ذكر الناشر ولا سنة النشر.
46. محمد بن سمينة : في الأدب الجزائري الحديث . النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر مؤثراتها - بدايتها - مراحلها . مطبعة الكاهنة . الجزائر سنة 2003.
47. محمد بن سمينة : محمد العيد آل خليفة . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر . د ط . س 1989.
48. محمد صالح الجابري : النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900 . 1962 الشركة الوطنية للنشر و التوزيع س 1983.
49. محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن . نهضة مصر للطباعة والنشر . ط 3 . س 2003.
50. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث . دار النهضة مصر . س 1997.
51. محمد مندور : الأدب وفنونه . نهضة مصر للطباعة والنشر . ط 2 س 2002.
52. محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925 . 1975 . دار الغرب الإسلامي ط 1 س 1985.
53. محمد ناصر بوحجام : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث . المطبعة العربية . ج 1 . س 1992.
54. مصطفى السعدني : التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل . منشأة المعارف بالإسكندرية .
55. موسى بن محمد بن الملياني الأحمدي : المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي . ط 2 س 1969.
56. نجيب الكيلاني : أدب الأطفال في ضوء الإسلام . مؤسسة الرسالة . ط 4 س 1998.
57. نعمان القاضي : أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي . دار الثقافة س 1982.
58. يوسف السكاكي : مفتاح العلوم . ضبطه نعيم زرزور . دار الكتب العلمية بيروت ط 2 س 1987.

المجلات والوثائق :

1. أبو القاسم سعد الله (فقيه العلم والجزائر الشيخ محمد الطاهر التليلي (2003.1910) جريدة (الشروق) العدد 950. (2003/12/16).
2. أعلام سوف .إعداد مديرية دار الثقافة لولاية الوادي . شركة مزوار . ط1.س2006.
3. العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي 1910-2003. قراءة في سيرته وفكره وآثاره. مجموعة من المختصين.
4. عادل محلو : الحركة الأدبية بولاية الوادي . ألقى في الأسبوع الثقافي لولاية الوادي جوان 2007.
5. قبل أن تنفذ الكلمات (شعر) . من إصدارات دار الثقافة لولاية الوادي . مجموعة من الشعراء . مطبعة مزوار .س 2007.
6. قانون الوثام المدني 16 سبتمبر 1999م. الصادر عن وثائق مجلس الأمة.
7. مجلة العرب. ج11 و12.. س 40. الجماديان . المملكة العربية السعودية . سنة 2006.
8. مجلة القباب : تصدر عن دار الثقافة بالوادي . العدد 1.س2004.
9. مجلة القباب : . العدد 2.س2004.
10. مجلة القباب : . العدد 6.س2007.

الرسائل الجامعية :

1. عبد الكريم شبروا : التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعد الله مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث. إشراف د/ سعيد لراوي. جامعة باتنة سنة 2006/2007.
2. علي غنابزية : مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ-19م .رسالة ماجستير جامعة الجزائر 2001. قسم التاريخ .
3. موسى بن موسى : الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1939) رسالة ماجستير إشراف د/ أحمد صاري . جامعة قسنطينة. قسم التاريخ سنة 2004-2005.

الكتب الأجنبية :

1. Paul Robert Dictionnaire de langue française (Tomes), Société du nouveau lettre Paris, 1975.

الكتب المترجمة :

1. اللغة الفنية . (تعريب وتقديم) محمد حسن عبد الله. دار المعارف . القاهرة.
2. رنيه ويلك : نظرية الأدب : تعريب د/ عادل سلامة . دار المريح المملكة العربية السعودية.

الفهرس

2	الإهداء
3	المقدمة
47 - 7	الفصل الأول
8	- عصر الشيخ وبيئته
24	- حياة الشيخ العلمية والعملية
37	- أخلاقه وأقوال العلماء فيه
41	- آثاره
103 - 48	الفصل الثاني: (الظواهر المعنوية)
51	الأغراض الذاتية
94	الأغراض الموضوعية
170 - 104	الفصل الثالث: (الظواهر الفنية)
105	- اللغة الشعرية
105	1- منزلة اللفظ في الصياغة
116	2- سمات الأسلوب و النظم
127	الصور الفنية: (أنواع الصورة)...
128	1 - الصورة التشبيهية
132	2 - الصورة الاستعارية
136	3 - الصورة الكنائية
141	4 - الصورة الكلية
144	الموسيقى (ألوان وأشكال الموسيقى في ديوان الشيخ)
144	1- الوزن
150	2- الإيقاع
156	3- القافية
161	الموسيقى الداخلية
161	- التشخيص والتجسيم
162	- ملائمة اللفظ للمعنى
163	- السيولة والتدقيق في تناسب الإيقاع
163	- التكرار
166	- اللفظ بين الجزالة والعدوية
167	- المحسنات البديعية
171	الخاتمة

174	قائمة المصادر والمراجع
180	الفهرس